ثمن التقدم

العقل - الإرادة - الفعل



دكتور حسين الشرقاوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ثمن التقدم

العقل - الإرادة - الفعل

الشرقاوى ، حسين.

ثمن التقدم: العقل، الإدارة، الفعل/ حسين الشرقاوى الرحمن. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٢٣٢ص ؛ ٢٥ سم .

تدمك ٩ ٤١٨ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ التقدم الاجتماعى.

(أ) ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥١٨٦/ ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 418 - 9

ديوى٢٤٢ , ٣٠١

ثمن التقدم

العقل - الإرادة - الفعل

دكتور حسين الشرقاوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

يقول نزار قبانى

فى قصيدة «لمـــاذا اكتـــب»

اكتب كى أفجر الأشياء، والكتابة انفجار

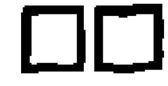
اكتب كى ينتصر الضوء على العتمة. والقصيدة انتصار

اكتب كى تقرأنى سنابل القمح. وكى تقرأنى الأشجار

اكتب كى أنقذ الكلمة من محاكم التفتيش

من شمشمة الكلاب ـ من مشانق الرقابة

لا شىء يحمينا من الموت / سوى المرأة والكتابة



«حينما يتحرر العقل من الخوف ويشمخ الرأس عالياً
وحينما تتوافر المعرفة بلا قيود
وحينما لا يتفتت العالم إلى شظايا تفصل أجزاءها
عن بعض جدران المحلية الضيقة
وحينما تنطلق الكلمات من أعماق الحقيقة
وحينما يمد الكفاح الذى لا يعرف الكلل ذراعيه
ليعانق المثل الأعلى
وحينما لا يضل تيار العقل الرائق طريقه فيتخبط
فى صحراء العادات المرذولة
وحينما تنطلق عقولكم نحو الفكر والعمل المتنامى
لبلوغ فردوس الحرية
أناشدك رباه أن توقظ قومى من غفلتهم وغفوتهم»



رسالة خالدة تصلح لكل زمان ومكان
أطلقها شاعر الهند الخالد
رابندرانات طاغور
١٨٦١ ـ ١٩٤١ م
الحاصل على جائزة
نوبل فى الأدب ١٩١٣

مقدمة

التقدم والتحول فى النموذج السائد فى التفكير..!

فى أثناء إعداد هذا الكتاب، فاجأنى أحد أصدقائى المقربين، وأحد الذين أحب أن أسمع رأيهم، سواء فيما اكتب أو فى أمور الشأن العام، لما له من ثقافة واسعة ورؤية نقدية شاملة، ووجهة نظر متميزة، فاجأنى بسؤال لم أكن أتوقعه على الرغم من بساطته، وعلى الرغم أيضًا من ضرورة طرحه.! فقد سألنى عن اسم هذا الكتاب وماذا أعنى حقيقة بالتقدم؟ ولأول وهلة وجدتنى وقد فاتنى أن أبدأ بتعريف ماهية التقدم.. ولكن بعد برهة، وجدت أنى قمت فعلاً فى فصول الكتاب المختلفة من تبيان فكرة التقدم ومناقشة جانب كبير من مناحيه ودروبه، وطرق القبض على مفاتيحه ووسائله.. ولكن هذا لم يمنع الفكرة من أن تجوس بعقلى وتظل تتجاذبه وتشده وتدفعه.. لماذا فعلاً لم أحاول تعريف ماهية التقدم؟! قد يكون لصعوبة الإجابة على السؤال.! أو قد يكون لأن ليس هناك إجابة واحدة للسؤال.! أو قد يكون لتشعب الإجابة ودخولها فيما هو دينى وتاريخى وعلمى واجتماعى واقتصادى.! أو لأن الإجابة قد تشمل كل هذه الاحتمالات وهذه التفاعلات مجتمعة..!

والمهتم بمجال علم الاجتماع الحديث سوف يفاجأ بكم التعبيرات التى ملأت زخم الموضوع بتعبيرات متداخلة ذات معان متناقضة فى كثير من الأحيان رغم تشابهها فى كثير جداً من المفردات.. فهناك التقدم Progress، وكذلك التحديث Modernization، والتطوير والتحسين Advancement، وغيرها كثير...

والتقدم كـان يعنى لفترة قريبة جداً، أن الإنـسـان يحقق تقدماً «بوجه عام» فى حياته كلهـا ويتحـسن باستـمرار (مع أنه من المـمكن أن يتـحسن الإنسـان فى بعض الأمور ويتـدهور فى بعض الأمـور الأخرى)، وقـد وجدت فكـرة التقـدم فى أوربا منـذ القرن السادس عشر، عندما بدأ الناس يتبينون أنهم أصبحوا يملكون من المخترعات والمنتجات ما لم يملكه الـقدماء، مثل السكر والورق والطباعـة وطواحين الهواء والبوصلة والبارود وما إلى ذلك، وكلها مـدخلات مصدرها آسيا، وفى فتـرات التوسع الاقتصادى والتطور العلمى والـتقنى، كان هؤلاء النـاس لا يشعرون بمجرد الـغبطة والسعـادة عندما كانوا يقارنون عهودهم بعهـود سابقة، وإنما اعتبروا أن روعـة أيامهم وفضائل زمانهم أعظم مما كان لدى القـدماء..وكما تم الربط بين التقدم والمخترعات التى توصل إليها الإنسان، أو الربط بـين التقدم وناتج الحضـارة المادى من الأشياء، وتم تجاهل الـتغير الذى حدث فى طرق التـفكيـر، والذى كان له أبـلغ الأثر فى كل ما تلاه من تـغييـرات ساهمت فى تحسين حياة البشر على مدى العصور المختلفة..

ولعل الأفكار العظيـمة عن تطور عقل الإنسان كـما وردت فى قصة «حى بن يقظان» لابن طفيل، الذى وضعها فى القـرن الثانى عشر الميلادى، وسعيه الدءوب للوصول إلى حقيقة الأشياء، وتدرجه فى فـهم النتائج بناء على الملاحظـة والتجريب والاستقراء، لعل هذه الأفكار العظـيمة هى التى أدت فيما بعد لظهور أفكار روجر بيكون فى القرن الثالث عشر، وفرانـسيس بيكون فى القرن الـسادس عشر عن أسس التفـكير العلمى الحديث، والتى لـولاها لظل عقل الإنسـان فى غيه وضلاله وجهله وجمـوده..! وقد أفردنا فصلاً كاملاً لعرض تطور عقل الإنسان فى رسـالة حى بن يقظان...

فأفكار مثل تـلك، ومفكرون من هذا الطراز النادر هم الذين قادوا البشرية لكى تصل إلى ما وصـلت إليه الآن، ولما حـدث التغـيير إلى الأحـسن الذى قد نـراه من حولنا فى جميع مناحى الحياة..!

ومما يـزيد الأمور تعقيداً هو كيف نقيس الـتقدم؟ هل هو مقياس اقتصادى أو مادى أو أخلاقى أو مجتمعى..! أم هـناك مقياس مركب يشمل كل هذه المقاييس مجتمعة..! هل

هو الـنموذج الغربى الذى يعتبر الغرب هو الـنموذج الكامل للتقدم، وكل ماعداه ـ بنفس هذه النظرة ـ يعتبر مجتمعات غير متقدمة..؟

وقد وصل الأمر إلى أن بـعض الباحثين فى هذا المجال، دعـا إلى استـخدام مقاييس للتقـدم، أقل ما توصـف به أنهـا مضحكـة أو مثيرة للـسخرية أو قـاصرة مثل معدلات استخدام الطاقة (مثل معامل كارداشيف Kardashev scale لاستـخدام الطاقة فى الحياة والـصناعـة) أو عدد أجهـزة الكمـبيوتـر وتقدم أجـهزة الاتصـالات فى بلد مـا (معامل ليوسكى..Leuski).!

وقـد اعترض د.جلال أمين على أن البعض الآخـر أصبح يرى أن المقياس الذى يجب أن يقاس به تقدم أمة من الأمم هو المقياس الاقتصادى فقط..وأوضـح أن الاقتصاد انتقل من مرحلة الاقتصـاد «التقليدى»، إلى مرحلة «التمهيد للانطلاق»، ثم «الانطلاق» وبعد هذا يصل إلى «النـضوج» الذى لا يـكتمل إلا بالـوصول لنـمط الحياة الغـربية والأمـريكية الحالى، والذى أعتبره بعض منظـرى الهيمنة الغربية والأمريكية المعاصرة أفضل مراحل التطور الاقتصادى طرا..وإذا كان التقدم التكنولوجى هو الذى مكن من التفوق العسكرى للـرجل الأبيض والغلبة على الأفريقى والآسيـوى، ومكنه من تحقيق الرخاء الاقتصادى. والرخاء ينطـوى على كثير من الأشـياء المرغوب فيـها: الغذاء الكافـى، والملبس النظيف والمسكن الواسع، والراحــة، ووقت الفراغ الطويل، أو عـلى الأقل القدرة على إطالة وقت الـفراغ، فإذا اجتمع كل هذا مع القوة العسكرية والقدرة على إملاء الإرادة على الآخرين، فما أسهل أن ينـخدع المرء بالظن أن كل هذا لابد أن يعنى بالضرورة تقدماً فى كل شىء آخر.. (خرافة التقدم والتأخر د.جلال أمين ـ ٢٠٠٥).

وهذا التسطيح القاصر يغفل أن للقضية جوانب أخرى، فقد لا يعنى التفوق المادى، أو التكـنولوجى فقط، تـفوقاً مماثلاً فى المحافـظة على إنســانية الإنسان وتـفرده وتميزه، وحريته وحقـوقه فى أن يفكر ويستخدم عقله بطـريقة مختلفة عن الآخرين، وألا يصبح وحدة من عدة وحدات فى مجتمع من الماكينات، كلها تعمل بطريقة واحدة، وتفكر بطريقة واحدة، ويـصبح كـالمسخ تحـركه وسائل الاعلام وتـسيطـر على تـوجهـاته ومقدراته،

وتحكمه أخلاق السوق ونمط الاستهلاك القاسى الذى لا يرحم ويحرك الجموع الغفيرة مثل قطيع من الحملان لا تعرف لها طريقاً بينما هى تساق للذبح..، وتنحصر دوافعه وحوافزه للحياة فى قيم بسيطة ومباشرة وسطحية، مثل أن تنحصر إما فى المنفعة أو اللذة..! وقد عرضنا لهذا الجانب فى فصل كلب بافلوف والعالم الجديد الشجاع..

وقد جر هذا الفهم القاصر لطبيعة الحضارة وطبيعة دورة الصعود والهبوط لأى حضارة، إلى تقسيم الدنيا إما إلى مجتمعات متقدمة حسب النموذج الغربى أو غير متقدمة.. وأصبح النموذج الغربى ينظر إليه على أنه الأرقى وأن النماذج الأخرى ينظر إليها على أنها من طبقة دنيا.. واعتبر أن مركز التحديث هو العالم الغربى ممثلاً فى أوروبا، لأنه بدأ فى أوروبا ـ من وجهة نظر الأوروبيين المتعصبين ـ وانتقل منها عبر البحار إلى العوالم المكتشفة حديثاً مثل أمريكا وكندا واستراليا ونيوزيلندا..! وقد تناسى ملفقو التاريخ من ضحايا العنصرية الغربية فضل الحضارات الأخرى وبلغ بهم الضلال وتبريرهم للاستعمار والاستبداد والهيمنة مبلغاً وصل إلى حد الزعم بأن الحضارة الإغريقية والغربية الحديثة نتجت من تلقاء نفسها ولم تؤثر فيها الحضارات الأخرى التى سبقتها، أو أن هناك أجناس أرقى من أجناس أخرى..! وقد ناقشنا هذه القضية بإسهاب فى فصل ضلالات تاريخية وأوهام عصرية وفصل اللوح الخالى..

وفى كتاب «المجتمع المنجز» Achieving Society وضع دافيد ماكليلاند McClelland فى عام ١٩٦٧ نظرية التحفيز Motivation Theory وقد قسم الدوافع التى تحفز الإنسان إلى دوافع داخلية وخارجية.. فالدوافع الداخلية ترجع إلى:

ـ أى إنجاز لعوامل داخلية يتحكم بها الأشخاص (مثل حجم المجهود المبذول فى كل عملية يقوم بها المرء ـ وليس عن طريق قدرة ثابتة أو عن طريق سمعة سابقة ـ فالفرق الرياضية الكبرى لا تكسب من مجرد عراقة اسمها وتاريخها مع البطولات ولكن من المجهود والفكر والتنظيم الذى تبذله فى كل مباراة تدخلها..!).

ـ الإيمان الداخلى بأنهم فاعلون فى اتجاه تحقيق الهدف (أى أن النتائج ليست وليدة ضربة حظ).

ـ أنهم مدفوعون للحل بغموض الموضوع والرغبة فى فك طلاسمه، والقبض على شفرته، وليس مثلاً بالرغبة فى التمرين على طريقة لحل الامتحان والحصول على الدرجات.

ـ ودائماً ما يعزو الناس انخراطهم فى هذه الأعمال إلى المساهمة فى الخير العام، أو التزام أخلاقى للمجتمع، أو نوع من رد الجميل للمجتمع الذى عاشوا فيه...

أما الدوافع الخارجية فعادة ما تستخدم فى مجال الأعمال لتحفيز العاملين وتتكون عادة من:

ـ مردود محسوس مثل زيادة المرتبات أو الترقيات (أو العقوبات).

ـ مردود غير محسوس أو معنوى مثل التكريم بواسطة المجتمع.

وقد شدد إبرهام ماسلو Maslow على أن الإنسان قد يكون فى غاية الذكاء (كما يقاس بمقاييس الذكاء المعروفة)ولكنه لا يملك الدوافع والمحفزات الكافية ليوظف ذكاؤه فى أداء مهام معينة..!

وقد أوضح ماكليلاند أن هناك ثلاثة احتياجات أساسية للإنسان متفقاً فى ذلك مع ماسلو وهى:

١ ـ الاحتياج للإنجاز Need for Achievement

٢ ـ الاحتياج للقوة Need for Power

٣ ـ الاحتياج للاندماج Need for Affiliation

ورغبة الأفراد فى الإنجازات المؤثرة، يعززها التمكن من مهارتهم وقدراتهم، وكذلك التحكم فى مستويات أدائهم العالية. وهناك علاقة بين معامل الاحتياج للإنجاز وصعوبة المهمة الموكلة لشخص ما. فبينما الأشخاص الذين يحصلون على معامل إنجاز قليل يميلون إلى اختيار المهام السهلة، لتقليل مخاطر الفشل، أو اختيار مهام ضعيفة ليتجنبوا الحرج فى حالة حدوث فشل.!

أما الأشخاص ذوو معامل الاحتياج للإنجاز العالى فيميلون لاختيار المهام متوسطة الصعوبة، لشعورهم بأنها تمثل تحدياً ما، ولكنه فى متناول أيديهم. وهؤلاء يسعون إلى

التحديات ويظهرون قدرة عالية فى الاعتماد على النفس.. وكثير من أصحاب المشاريع الجديدة والجريئة يقعون فى هذه الشريحة.. وأحسن جائزة تعطى لهم هو الاعتبار والتكريم من الآخرين لإنجازاتهم..!

وقد شدد كلا الكاتبين على أن أحد أهم مصادر معامل احتياج الإنجاز العالى يتركز فى نوعية التربية التى يقدمها الآباء لأبنائهم، والتى يشجعونهم فيها على الاعتماد على النفس، وأن يرتبط الإنجاز - أى إنجاز - بكفاءته الذاتية ومجهوده وليس عن طريق الحظ أو الواسطة أو المحسوبية أو غيرها..!(عرضت هذه الفكرة تفصيلاً فى فصل تحديد غايات التعليم).

وقد ظهرت فكرة التقدم العلمى كانعكاس للتغييرات التى حدثت فى طرق التفكير كما أوضحنا سلفاً، فأصبح التقدم العلمى ينظر له على أنه قدرة العلم على حل المشاكل التى تواجه الإنسان كل يوم نتيجة المتغيرات التى تحوطه من كل جانب، باستخدام الطريقة العلمية فى التفكير، وأصبحت القيم المطلوبة لتحقيق هذا التقدم العلمى قيماً بسيطة يمكن تحقيقها بسهولة، وموجودة فى كل البشر، وأى مجتمع، فالمطلوب قدر عادى من الفضول، وقدر عادى من الوعى، وقدر عادى من التعلم (والذى يعنى زيادة خبرة الإنسان وتغير فى سلوكه بناء على ما تعلمه)، وقدرة عادية على إعمال العقل، وقدرة على الاتصال مع الآخرين.. ونستطيع أن نجزم أن هذا الاستخدام للطريقة العلمية فى التفكير، يمكن أن يستعمله العلماء كما يستخدمه المحامون ولاعبو الكرة والطباخون وغيرهم لأن التفكير العلمى هو أسلوب حياة ينطبع على جميع مستخدميه، ويشترك فيه جميع الناس فى مجتمع ما فى زمن ما..!

والتفكير نفسه مر بمراحل من التطور، وظهرت نظريتان أساسيتان لشرح طريقة التفكير، وهما الفلسفة الميكانيكية، ونظرية الاستقراء..فبينما اعتبر أرسطو وجود أربعة أنواع من الأسباب، وأهمهم «السبب النهائى» هى السبب أو الهدف من أى شىء وعلى هذا كان «السبب النهائى» للمطر مثلاً هو نمو الزرع، وكان من الطبيعى رؤية هذه الأهداف فى أى تغيرات فى الطبيعة، وكان العالم فى رأى أصحاب تلك المدرسة مسكون

بالملائكة والملـوعنين والعفاريت والأرواح الشريـرة، وأنهم يتحكمون فى كل شىء، حتى وصل الأمر بالعلـماء إلى الحد الذى تكلموا فـيه عن وجود «روح فى المغناطيس» تسبب انجذاب المعادن إليه..!

وقد حاولت النظرية الميكـانيكية إيقاف ذلك النـمط من التفكير، وكان على رأس هذه المدرســة رينيه ديكارت الذى رفض الـعمل بفكرة الأهداف، والعـواطف، وذكاء الطبيعة.. وفى نظرته العصرية، فإن المادة تتحرك نتيجة وبناء على قوانين وقواعد الفيزياء، وبينما كان ينظر للـطبيعة فيما قـبل كمخلوق، نظرت «الثـورة العلمية» للطـبيعة على أنها تتبع قوانـين الطبيعة والـفيزياء.. ثم جاء إسحـاق نيوتن ليعارض أيـضاً النظرية المـيكانيكية، معـللاً ذلك فى كتابه «المبادىء» بأن حـركة الكواكب والقمـر المنتظمة لا تـستند أصولها لأسباب ميـكانيكية، حيث أن هذه الكواكب تسـير بحرية فى مجال بيضاوى، وفى جميع أنحاء الكـون.! وقد عزا نيوتن النظام الشمسى وثبـات النجوم فى مواقعها إلى قوة عليا هى «الله» والذى له أن يـضـع الأسباب الـنهائيـة..! قائلاً: «إن وضـع النجـوم بعيدة عن بعضها بمسافات كافية قد تم على هذا النحو لتجنب قوة الجاذبية المتبادلة بينهم، ولتمنع حدوث اصطدام هـائل، إن النظام البـديع للشمس، والـكواكب والمذنبات لم يـكن ليظهر بدون قوة عليا.. وإذا كانت النجوم تمثل المركز لتنظيم متشابه، فمن البديهى أن تكون قد خلقت بنفس النظام ومن خالق واحد..» وعلى هذا لـم تسقط هذه النجوم كنتيجة للجاذبية بين بعضها وبعض قائلاً «لقد وضـعها على مسافات مناسبة من بعضـها..ونحن نعرف أن الله بخصائصه وأعماله وبقدرته هو الأقدر على صناعة الأشياء فى أحكم وأكمل صـورة وكذلك الأسباب المحركة لها..!!»

وفى أثـناء الثورة العـلمية تغيـرت رؤية دور العالم فيـما يتعلق بالـطبيعة، وقد أدى ظـهور قيم مثل الـتجربة الـقائمة عـلى الأدلة أو الملاحظة إلـى ظهور طريـقة الاستقراء كطريقة علمية لها دور هام فى التفـكير العلمى المعاصر.. وتحت تأثير ابن طفيل (القرن الثانى عشر) وروجر بيكون (القرن الثالث عشر) وفرانسيس بيكون فى القرن السادس والسابع عـشر تطورت تقاليد الاستـقراء، وأصبحت من الممارسات الـعلمية المتبعة.. وتم

الاستغناء عن معتقدات أرسطو عن الظروف الطبيعية والصناعية،وأصبح فكر التجريب العلمى من الممارسات المقبولة من جميع الأوساط العلمية..!

وعندما يحدث تغيير فى الافتراضات الأساسية للنظرية العلمية، مثلما يحدث عندما يواجه العلماء عيوب أو مشاكل غير تقليدية، لا يستطيعون تفسيرها بما هو موجود تحت أيديهم من أنظمة مقبولة عالمياً.. عندئذ فقط يتحتم حدوث تغيير حاد فى النموذج المعتاد للتفكير وهو ما أطلق عليه توماس كون Kuhn فى كتابه الشهير «بناء الثورات العلمية» الذى وضعه فى ١٩٦٢«تغيير النموذج. Paradigm Shift» وفى رأيه أن تغيير النموذج ليس فقط فى نظرتنا الحالية للأمور، ولكن تغيير النظرة الشاملة «الكونية» الموجودة وكل التداعيات التى تتبعها وتأتى معها،وقد أوضح كون أيضاً أن أى عيوب تظهر فى أى نظام، يمكن محوها، أو التعامل معها بمستوى مقبول من الأخطاء،وأن هناك مستويات مختلفة للعيوب، وعلى حسب المستوى الذى وصلت إليه هذه العيوب يتم التعامل معها من قبل القائمين على العلم فى مجتمع ما وزمن ما..!

فعندما تحدث عيوب مؤثرة وكثيرة فى نظام قائم، فإن التنظيم العلمى الحالى يتم إلغائه خلال الأزمة، وأثناء هذه الأزمة تظهر أفكار جديدة، أو أفكار قديمة تم تجنبها فى الماضى،أو كانت مرفوضة أو مستهجنة، عادت وفرضت نفسها مرة أخرى للخروج من الأزمة، وبالتالى يخرج «نموذج جديد» له مؤيدون ومعارضون، وتظهر فى الساحة معركة بين مؤيدى الأفكار الجديدة والمدافعين عن الأفكار القديمة.

وقد حدث ذلك فى بدايات القرن العشرين فى علم الفيزياء، عندما حدث تحول فى النموذج السائد لنظرية ماكسويل (جيمس ماكسويل ١٨٣١ ـ ١٨٧٩) للكهرباء المغناطيسية بظهور نظرية أينشتاين فى النسبية عام١٩٠٥، والتى لم يستقبلها العالم بهدوء فى البداية، وإنما استقبلها بتوجس تحول بعد ذلك إلى معارضة، وتعرضت لموجات مختلفة من الهجوم فيما بعد، سواء باستخدام نتائج علمية مستخلصة من أبحاث، أو بناء على اختلافات فلسفية بين الجانبين، ولكن بانتصار نظرية النسبية فى النهاية، أصبح من الضرورى مرة أخرى إدخال هذه الدلائل والنتائج إلى «منخل

المعـرفة» تمهيدا لإضافتها لمخزون المـعرفة البشرية.. وحدث نفس الاختلاف مرة أخرى وأصبح لها معارضون ومؤيدون، فبعض العلماء وجد نظرية أينشتين سهلة الفهم، بينما البعض الآخـر وجدها عصية على الفـهم مقارنة بمعادلات ماكسويل السابقة، رغم أنها اختفت فيما بعد..!

وهناك أمثلة عديدة على هذه التحولات الصارخة فى النموذج السائد فى التفكير على مدى الأزمنـة المختلفة، وكما رأينـا فإن بُنى فكرية تأتى لـتحل محل أخرى سابقة، وقد رأينـا كيف أفسحت نـظرية بطلـيموس فى الفلك الـطريق إلى طريقة كـوبرنيكس، الذى أفـسح الطريق لـنيوتن، ثم حل مـحله أينـشتين، أو الـتحول فى مـجال البـيولوجى من النـموذج الخالق للنموذج التطورى، أو توحيد الفيـزياء التقليدية بواسطة نيوتن وتحولها لنموذج متماسك على مستـوى العالم فى دراسة علم الميكانيكـا، أو تطوير علم ميكانيكا الكم الـتى أعادت تعريف عـلم الميكانيـكا التقلـيدية، وجاء كل من لافوازيـيه وبريستلى، فـأنهـيا مفـهوم الـهـواء المضـغوط Pneumatic، وكـشف غـموض الـكيف Quality، والفـلوجستون (الأجسام القابلة للاشتعال) ليـحل محلها الكيمياء المرتكزة على الاحتراق الداخلى، وتطوير أسـاليب جديدة فى علم الجينات كان لـها أكبر الأثر فى تغيير فروض ظلت ثابتة لمدة طويلة فى علم الأجناس وغيرها كثير...

وقد بنى تعريف تحول الـنموذج أو المثال المتفق عليه على أنـه تغيير كبير فى طريقة أو نموذج التفكير.. وتغيير جذرى فى المعتقدات الشخصية والأنظمة المعقدة والمؤسسات، لاستبدالـها بالأنظمة السابـقة من التفكير، الـتى لم تستطع مجابهة الـتغيرات المتسارعة الحادثة من حولها، أو وضع حلول للمشاكل التى استجدت على الساحة..!

وأحيانـاً تكمن قوة الإقنـاع للمعـارضين للفـكرة الجديدة فى الـسماح بمرور بعض الـوقت على هذا التـحول فى التفـكير، مما يـحدو بهؤلاء المـعارضين إلى الاقتـناع بتلك الأفـكار واستـيعـابها، ودخـولها ضـمن التـيار السـائد، وأحـياناً لا يـحدث ذلك ويظل المعـارضون على أفكارهم إلى أن يجىء جيل جديد أكثر فهماً وأكثر معرفة بهذه الحقائق العلمية الجديدة، يزيحهم من أمكانهم ليتبوأ هو أماكنهم ويحل محلهم..!

وعندما يتغير نظام معين من تفكير إلى آخر، يطلق عليه كون تحولاً فى المثال، وغالباً ما تكون الخلاصة النهائية نتيجة لعملية طويلة من تحول فى التفكير.. وهناك أيضاً اختلاقات وسوء فهم لطرق التفكير عن طريقة كون، فقد اختلف معه بعض الباحثين موضحين أن اكتشاف طرق التحول فى المثال كما أن الطبيعة الديناميكية للعلم (مع وجود احتمالات كثيرة للحكم بطريقة غير موضوعية من هؤلاء العلماء) هو حالة نسبية، ووجهة النظر بأن جميع الاعتقادات متساوية مثل الاعتقاد فى السحر، أو الإيمان بالدين، أو العلم الكاذب،وأنها سوف تصبح لها نفس الفائدة العملية، وبنفس القيمة للعلم الحقيقى قد لا يمكن إثباتها..! ويعارض كون هذا التحليل، ويقرر أن التفكير العلمى يتبدل بواحد جديد من خلال عملية مجتمعية معقدة، تكون الفكرة الجديدة فيها بالضرورة أحسن من الفكرة القديمة وليست فقط مجرد فكرة مختلفة أو غريبة..! (ناقشنا فى فصل صناعة المستقبل البديل، عمليات صناعة الأفكار الجديدة والنزعات الجديدة فى المجتمع).

وقد أوضح كروزويل Kruzweill فى مقالة له بعنوان «قانون تسريع العائد» فى عام ٢٠٠١ أن تسريع التغيير قد يصل بالإنسان إلى إمكان منافسة الذكاء الصناعى للذكاء البشرى، بل وتهديده خلال العقود الثلاثة القادمة والتفوق عليه بشكل غير محدود..! وإن التقدم الهائل والمتواصل الذى سوف تحرزه تكنولوجيا الصناعات المتناهية الصغر(النانوتكنولوجى) خلال العقدين الأولين من القرن الحالى سوف يساعد على إنتاج كل الأشياء من خامات رخيصة للغاية، كما سيتم القضاء على كل الأمراض والأوبئة بل والتغلب على عملية الشيخوخة ذاتها..! كما يذهب كروزويل إلى أن عملية التطور التكنولوجى المتسارعة سوف تضاعف من معدلات ذلك التسارع لدرجة يصعب قياسها بالمعايير المعروفة لنا فى الوقت الحالى..!

ومهما اختلفت وجهات النظر فهناك شبه إجماع على أن ظاهرة الخروج على المألوف والخصوصية التى سوف تميز الإنسان فى المستقبل القريب والتى يشار إليها باللغة الإنجليزية بكلمة Singularity أن هناك ثلاثة أنواع من التقدم التكنولوجى تهيئ لقيام

هذا الحدث ـ الظاهرة ـ وتعتبر فى نفس الوقت من أهم ملامحه ومقوماته، وهى التقدم فى مجال الذكاء الصناعى والتقدم فى مجالات الآلات والمواد المتناهية الصغر أو التكنولوجيا الجزئية والتقدم فى مجال التكنولوجيا الحيوية.. وقد عرضت هذه الأفكار بإسهاب كبير فى فصلين كاملين من فصول هذا الكتاب، فى فصل الموجة الرابعة، والفصل الذى ناقش الصناعة القائمة على البيوتكنولوجي والنانوتكنولوجي.

على أن أهم ما يعنينى ويشدنى فى أفكار مثل أفكار توماس كون عن تغيير المثال Paradigm shift ليس قدرة هذه المجتمعات على إحداث التغيير ـ رغم ما ينطوى عليه ذلك من فعالية فائقة ـ ولكن يجذبنى أكثر قدرة هذه المجتمعات على معرفة متى يجب أن يحدث هذا التغيير؟! متى يعرف المجتمع أن عليه أن يتخذ الخطوات اللازمة لتغير المثال المتبع واستبداله بآخر يصلح لما استجد من مشكلات فى هذا المجتمع..! متى يضع المجتمع حداً فاصلاً بين طريقة تفكير وطريقة أخرى..! بين نظام أثبت فشله ونظام يرجى نجاحه..! متى يستشعر المجتمع الخطر قبل أن يقع ويبدأ فى اتخاذ الخطوات اللازمة لتجنب حدوثه..!! متى يعرف المجتمع أن هناك حاجزاً يعترض طريقه، وأن عليه أن يبتدع طريقة جديدة تمكنه من عبور هذا الحاجز..! تلك العلاقة الفعالة بين العلم الخلاق والمجتمع القابل للتغيير..قدرة المثقفين والمفكرين على قيادة نمط التفكير فى المجتمع،والغوص فى أفكار جديدة ومناقشتها وفحصها وتمحيصها بدقة، بدون مزايدة أو خطابة كاذبة..! وبدون أن تحكمهم تحزبات وافتراضات مسبقة أو أهواء موجهة أو مصالح متوقعة..! يلفت نظرى بشدة حجم الإنجاز الفكرى والمعاناة العقلية التى يتكبدها المفكرون لظهور فكرة جديدة أو نظرية مستحدثة أو حتى تطبيق جديد فى مجال جديد..! وحجم الحراك الثقافى والفكرى ممثلاً فى عدد الكتب والأفلام والمسرحيات والقطع الموسيقية الجديدة التى تظهر كل عام وتقدم أفكاراً جديدة مبتكرة.! قدرة الجيل الجديد على مناطحة الجيل الذى سبقه مادام هناك عقل يفكر وأيدى تعمل.. ما حدث بين ماكسويل وتلاميذه واينشتاين وتلاميذه بعد ماكسويل بخمسة وعشرين عاماً فقط.. يظهر مدى الديناميكية التى يوفرها العلم للحياة، والحياة للعلم، وبدون

أحدهما يموت كلاهما..!هل يقبل أستاذ اليوم معارضة أستاذ اصغر منه فى شئون العلم، حتى وإن استند لنتائج جديدة توصل إليها..! هل عبارة مثل «أنت مش عارف بتكلم مين؟!» لن ترد فى الحوار بينهم..! ويظهر تعديل أو تغيير المثال أيضًا مدى قدرة المجتمع على تحطيم الأصنام واختراق التابوهات التى لا تمس..! فالأصنام مازالت موجودة فى رؤوسنا نصنعها كل يوم بجمودنا وتحجرنا وضلالة أن الخلف الصالح لن يضارعه السلف الطالح..! وأن من فات قديمه تاه، هؤلاء الذين تربوا على أن هناك فكرة واحدة، وحلاً واحداً للمسألة، وحزب واحد وحاكم واحد يصلح وهكذا..! هؤلاء الذين تصوروا أنهم معصومون من الخطأ، أو أنهم وحدهم يملكون الحل..!!

طرح علىّ أستاذ زميل ذات يوم سؤالاً بهذه الطريقة هل تشك؟ وقبل أن أجيب، أجاب هو إياك والشك..! فقلت له ولما لا فالأنبياء أنفسهم ساورتهم بعض الشكوك،وصولاً إلى اليقين،والشك أول درجات التفكير السليم، وبدون أن نسأل لن نتعلم..! فنبى الله إبراهيم سأل ربه فى سورة البقرة (آية ٢٦٠) أن يحى الموتى له مع إيمانه العميق بالله لكى يطمئن قلبه فقال الله تعالى فى كتابه العزيز **﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾**.

وقد تضرع كليم الله موسى لله أن يراه، فقال تعالى **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى انظر إليك﴾** وقد كان طلب موسى صرخة حب عظيم لنبى أحب الله وأراد أن يراه، وتلطف الخالق الجليل بعبده الضعيف وأفهمه أن أحداً لا يصمد لجلال النور الإلهى، وأمر الله تعالى موسى أن ينظر إلى الجبل ثم تجلى الله تعالى على الجبل، واندك الجبل وخر موسى صعقاً، وحين أفاق موسى كان أول ما قاله **﴿سبحانك تبت إليك﴾**..!

وقد ناقشنا فكرة سيطرة الأوهام والضلالات على طريقة تفكيرنا المعاصر، وأعراض انتشار السطحية والجمود فى خطابنا الدينى المعاصر فى فصل مانخوليا تاريخية وأوهام عصرية.!

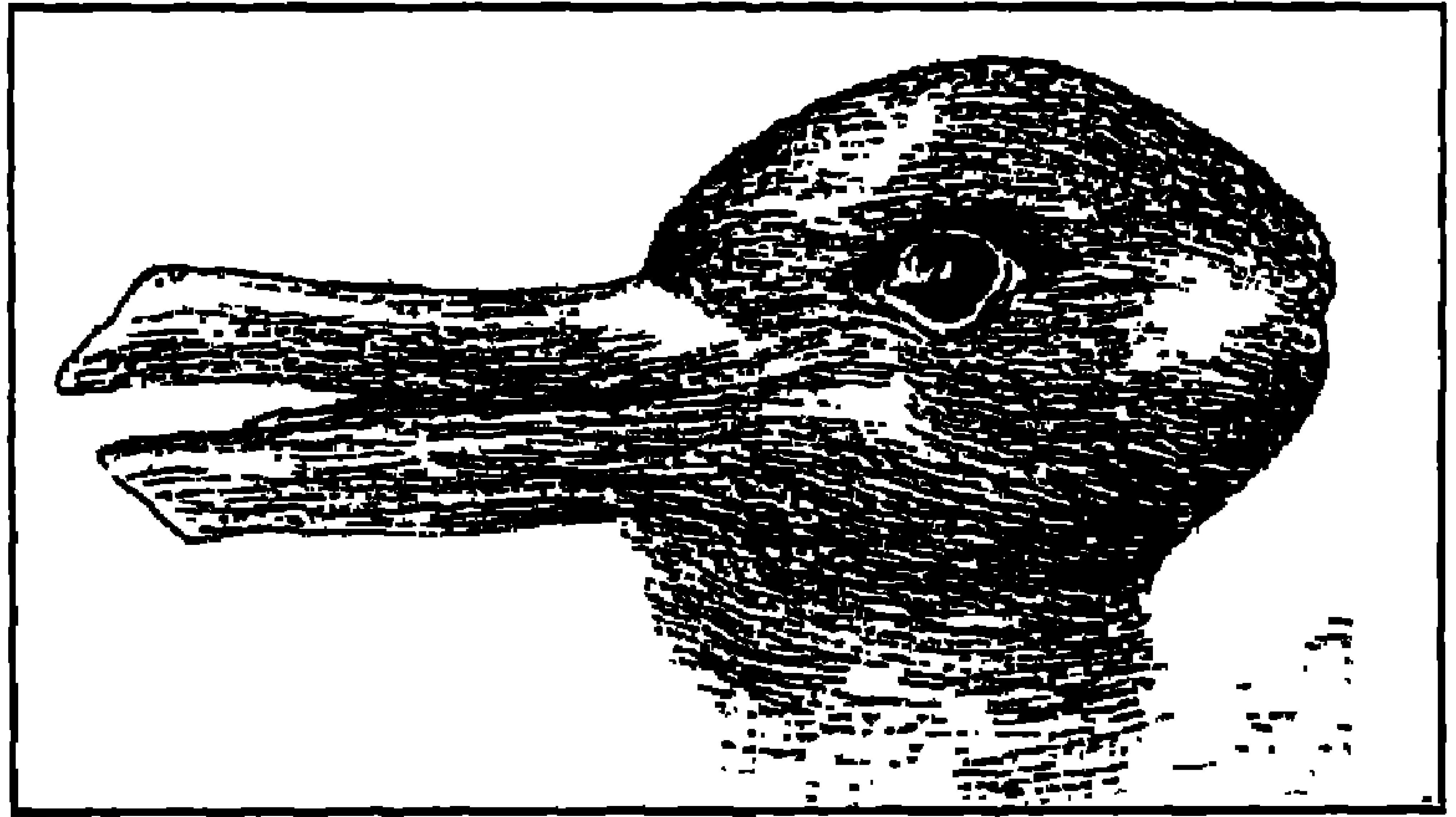
ونخلص من ذلك أن التقدم ـ كما نراه ـ يقاس بمدى قابلية وقدرة الأمة أى أمة على استخدام العقل كما هيأ الله له أن يستخدم، فعقل الإنسان لا حدود له، ولا سقف للحد الذى يمكن أن يصله، ولا يمنع تطوره اختلاف فى جنس أو فى الجينات أو فى الجغرافيا..! أن تملك هذه الأمة القدرة على تحرير العقل من أوهامه وضلالاته التى تعتقله داخل سجون الجمود والتحجر، وتقيده بأغلال تشده دائماً للخلف.. وقدرة العقل على تغيير طريقة تفكيره والنموذج السائد فى التفكير إذا استدعت الحاجة لذلك.. ولا يستطيع العقل أن يقوم بكل ذلك بدون أن يصاحبه إرادة الفعل، وإرادة القوة والحاجة للإنجاز... ولا شك أن العقل والإرادة لا يعملا فى عدم وجود القدرة على الفعل الخلاق... فالعقل والإرادة والفعل مثلث التقدم الذى يجب أن تلتئم أضلاعه، وكأى مثلث له قاعدة وضلعين مكملين لها، ويمكن لأى ضلع أن يتحول لقاعدة لهذا المثلث، وأى قاعدة سليمة لهذا المثلث تمكنه من الاستقرار والثبات فى وضعه..!

وهناك فريقان متعارضان حيال هذه الرؤية، أحدهما بالغ التشاؤم وينكر أى إمكانية لبناء هذه الأضلاع من واقعنا المتردى، والآخر لديه بعض التفاؤل يرى أن بناء هذه الأضلاع ليس من المستحيلات لو بدأنا بإرادة وجدية ووفق شروط مناسبة.أما الفريق الثالث الذى يرى أن أحوالنا فى هذا الشأن هى على ما يرام، وليس فى الإمكان أحسن مما كان، فهو فريق لم يعد جديراً بأى مناقشة..!.

هل نذكر أسطورة بروميثيوس؟! هذا الإله اليونانى القديم ابن ليبوتس وكليمين وأخو أطلس ومينوتس وأبيموتس..الذى سرق النار من زيوس وأعطاها إلى البشر لكى يستخدموها وينتفعوا بها..! ومن يومها أصبح ينظر إليه على أنه من الرموز الهامة فى التاريخ المتعاطفة مع الإنسانية.. وظل حتى يومنا هذا يرمز ويشار إلى الأحداث والناس الذين لهم قدرة على استخدام ذكائهم وقدرتهم على الابتكار فى مواجهة المشاكل التى تصادفهم والجرأة فى اتخاذ القرار على أنهم بروميثيون..! فقد غضب منه زيوس كبير الآلهة غضباً شديداً، عندما أعطى النار لبنى البشر ليس لما لها من فوائد ولكن لما لها من أضرار، فقرر معاقبته وربطه بالجبل (كما تُنبئنا بذلك إحدى معالجات القصة)، وكان يأتى إليه كل يوم نسر عملاق ليأكل كبده.! ولكن لكونه من الآلهة التى لا تموت، فإن

أعضاءه أيضاً لا تموت..! فكان ينمو له كل يوم كبد جديد حتى يجد النسر العملاق ما يأكله فى اليوم التالى، وتحمل برومثيوس كل هذا الألم وغضب زيوس من أجل ما اعتقد أنه مهم ومفيد لبنى البشر، إلى أن جاء هيرقليس واستطاع أن يقضى على النسر العملاق ويحرر برومثيوس..! والقصة مثلها مثل كل الأساطير اليونانية القديمة تحفل بكثير من الرموز والمعانى والإيحاءات والحكم..!

ألا نلمح هناك تشابهاً بين ما يمكن أن يقدمه التقدم من فوائد عظيمة للبشر ومن أضرار محتملة لو لم يحسن العقل التعامل معه..؟! ألا نرى قدرة التقدم الفائقة على اضافة الكثير للبشرية، وفى نفس الوقت نستشعر حجم المسؤولية والوعى الذين يتطلباهما السير على طريق التقدم وحتى لا يجنح بعيداً عن مساره..! هل نشعر بمدى الشجاعة التى نحتاجها للتغيير..! هل نشعر بمدى الحاجة للتغيير؟! هل نستطيع اعادة اكتشاف النار أو التقدم مرة ثانية مثلما فعلها برومثيوس فى المرة الأولى؟!



هذه هى الصورة الشهيرة الغامضة! هل هى بطة أم أرنب؟!(•) وقد استخدمها توماس كون فى كتابه «بناء الثورات العلمية» ليبين كيف أن الإيحاء فى صورة البطة ـ الأرنب يمكن أن يظهر كيف يمكن للتحول فى نموذج التفكير Paradigm Shift من أن يجعل نفس الشخص يرى نفس المعلومات المتاحة أمامه بطريقة مختلفة تماماً..!

فى هذه الصورة الشهيرة يمكن للعقل أن يتحول من تلقى الصورة بطريقة معينة (كأن يراها بطة مثلاً) إلى تلقيها فى صورة أخرى مختلفة تماماً (ويراها كأرنب)، بمجرد أن نجعل هذا الشخص يتحرك للأمام والخلف بصورة متكررة بينما نمسك بنفس الصورة فى أيدينا..!

(•) هذه الصورة من أعمال جاسترو Jasrow.
فى عام ١٨٩٩ فى مقالة عن «عين العقل» The mind's eye.

ومع الوعى بأنه لم يتـغير شـىء فى البيئة المحيـطة.. يمكن توجيه هذا الشخص لأن يولى اهتمامه ليس للبطة أو للأرنب ولكن للخطوط التى تظهر فى الصورة التى يراها..! وفى النهـاية قد يتعـلم هذا الشخص أن يرى الخطـوط فقط ولا يرى أى من الصورتين الأخرتين، وقد يقول حينئذ (ما لم يـستطع قوله فى البداية) وهو أنه يرى هذه الخطوط حقيقيةً، ولكنه يراها تتبدل أمامه إما إلى بطة أو إلى أرنب..!!

وفى التجارب النفسية المـشابهة.. فإن فعالية الإقناع تـعتمد على كونه قابلاً للتحليل بهذه الطـريقة.. وما لم يكن هـناك معيار خارجى يمـكن من خلاله قياس تحول الرؤية، فإن الوصول إلى نتائج محددة عن احتمالات التلقى لا يمكن الوصول إليه..!!



1

العقل والإرادة

ثمن التقدم

العقل
الإرادة
الفعل



كلب بافلوف..
والعالـــم الجديـــد!!



في سلسلة من التجارب المثيرة لدراسة السلوك ، قام العالم النفسي والطبيب الروسي الشهير إيفان بتروفيتش بافلوف (١٨٤٩ ـ ١٩٣٦) بعمل مجموعة من الدراسات على ردود أفعال الحيوانات ودرجة استجابتها للمؤثرات المختلفة ، فقام بدراسة قابلية إفراز الكلاب للعاب عند سماع أصوات معينة (أجراس أو صفارات أو أشواك صوتية أو وقع أقدام..) أو رؤية أشكال معينة قبل تقديم الطعام لها ووجد أن الكلاب تستجيب لتلك المؤثرات وتبدأ بإفراز اللعاب سواء قدم لها الطعام أم لم يقدم ، وكان بافلوف يعرف أن للكلاب، مثلها في ذلك مثل أغلب الحيوانات، أفعالاً انعكاسية على السليقة، يسيل بها اللعاب تجاوباً للطعام. فرغب في معرفة ما إذا كان من الممكن تغيير هذه الأفعال الانعكاسية، فقام بإجراء تجربة بوضع كلب في غرفة خاوية صغيرة تحتوى على القليل من العناصر التي تسبب شرود الذهن. وبعدما استقر الكلب في الحجرة ، قرع جرساً ثم ادخل بعض الطعام إلى الغرفة في الحال وبعد انتهاء الكلب من تناول طعامه أزيل الطبق في هدوء تام. وتكررت هذه العملية عدة مرات، وبدأ بافلوف يلاحظ أثناء مراقبته للكلب من ثقب في جدار الغرفة تغيراً في سلوكه، فبعد بضع تجارب يقرع فيها الجرس قبل وصول الطعام مباشرة بدأ الكلب يثار بصوت الجرس. فكان يلعق شفتيه، وكان يبدأ في إفراز اللعاب كما لو كان الطعام قد وصل بالفعل..!! وقادته تلك الأبحاث لوضع نظرية التكيف Conditioning التي تشرح نظرية رد الفعل وتبين أن رد فعل الحيوان الذي يحدث عادة يكون مبنيًا على خبرة سابقة، وقد أدى ذلك إلى وضع أساس «التكيف التقليدي Classical conditioning» في علم النفس، وهو يربط

بين المؤثر (الصوت المميز قبل تقديم الطعام فى هذا المثل) ورد الفعل المحدد (إفراز اللعاب) وهو ما يتفق مع قانون أرسطو عن التجاور أو التماس Contiguity Law والذى ينص على "عندما يرتبط حدوث شيئان معاً دائماً، فأن رؤية أحداهما سوف تجلب صورة الأخر للعقل".

وقد استحدث بافلوف تعبير الإفراز النفسى Psychic Secretion ليوضح إمكانية وحدود رد الفعل بدون تفكير، وذاعت تلك النظرية فى الأوساط العلمية ذيوعاً واسعاً حتى أن بافلوف حصل على جائزة نويل فى الطب فى عام ١٩٠٤ على هذه النظرية، وقد وضع مصطلح رد الفعل المقنن Conditional Reflex والذى تمت ترجمته خطا من اللغة الروسية إلى الإنجليزية إلى رد الفعل المشروط ,Conditioned Reflexوقد انتشر هذا المصطلح انتشاراً واسعاً حينما تمت ترجمة أبحاث بافلوف للإنجليزية عام ١٩٢٧.

وقد قام العالم الأمريكى جون واتسن بكتابة عدة مقالات لشرح دراسات بافلوف وتوصل إلى أن فكرة "التكيف" هى صورة أتوماتيكية للتعلم.. وقد أصبحت تلك الفكرة حجر الأساس فى تخصص علم النفس المقارن وكذلك كمدخل لدراسة علم السلوك.. وقد تحمس برتراند راسل كثيراً لأفكار بافلوف وذكرها فى كتابه "فلسفة العقل ".

وقد أثرت أبحاث بافلوف عن " رد الفعل المقنن" ليس فقط فى الأوساط العلمية ، بل امتدت لتشمل الأوساط الأدبية.. ,وأصبح مصطلح "كلب بافلوف" يطلق على الأشخاص الذين يستجيبون بطريقة رد الفعل بدون إعمال العقل وبدون التحليل العقلى اللازم لجوانب المشكلة ويقال أن فلان يتصرف وكأنه كلب بافلوف..

وقد ظهر هذا التأثير الباقلوفى على الكتابات الأدبية والحياة الثقافية عامة فظهر كتيمة أساسية فى رواية ألدوس هكسلى ذائعة الصيت عن مدينة المستقبل غير الفاضلة «عالم جديد شجاع Brave New World». كما امتد هذا التأثير ليصل إلى عالم الموسيقى ، حتى أن هناك فرقة موسيقى روك أند رول أمريكية كونها عازف الجيتار والمغنى "دافيد سيركامب" فى عام ١٩٧٢ استخدمت نفس الاسم " فرقة كلب بافلوف " وذاعت شهرتها كثيرا بدءاً من السبعينيات وحتى التسعينيات.

في رواية الدوس هكسلي "عـالم جديد شجاع" والتي كتبها في عام ١٩٣٢ والتي تحولت إلى عدة أفلام سينمائية، واستمد عنوانها من رواية لشكسبير باسم "العاصفة" والتي جاءت على لسان إحدى بطلاته وهي ميراندا في معرض حديثها عن مدى روعة العالم الجديد الشجاع الذي نعيش فيه، ليضع فيها تصوراته عن الحياة في المستقبل وتحديداً في القرن السادس والعشرين، والتي تنبأ فيها بالتغيرات الجديدة التي سوف تظهر في المدنية الحديثة، وشدد على تفكك الأسرة، وعدم تركيز العاطفة الجنسية على شخص واحد، وأن استخدام كلمة الأب والأم في الكلام أصبح يثير في هذا المجتمع مشاعر الخجل والحياء، وتحمر لدى سماعها الوجوه وكأنها عيب أو عار..!، وتوقع حدوث تطورات مذهلة في تكنولوجيا الأبحاث، والتخليق، والقدرة على التنويم. وفي هذه الرواية يرى هكسلي أن الإنسانية سوف تصل إلى مرحلة لم تعد فيها تهتم بأي شيء ولا يعنيها أي شيء ، يتمتع كل الأشخاص في هذه المدينة بالصحة الجيدة وبالتقدم التكنولوجي.. وبعدما تم استئصال الحرب والفقر نهائياً.. ليعيش كل البشر سعداء..!!

وقد تم تحقيق ذلك عن طريق استئصال عدة أشياء مثل الأسرة والاختلافات الثقافية بين الأفراد، فكل الناس متشابهون مثل الماكينات، ومُنع الفن والأدب، فقد مُنعت روايات شكسبير، فليس هناك مكان للعواطف التي يصفها،كما تم تقليص دور العلم والدين والفلسفة.. وقد أصبح المجتمع منشغلاً بتحقيق اللذة عن طريق المخدرات والجنس..!.

والمجتمع أو "دولة العالم"كما ورد اسمها في هذه الرواية يسعى لأن يكون جميع أعضائه مستهلكين جيدين لكل السلع التي يقدمها النظام لهم، ليسهم ذلك في نمو الاقتصاد، معتبراً أن مقياس النجاح الوحيد هو النمو الاقتصادي، وكل المواطنين متوقع منهم الاندماج مع بعضهم البعض، وغير مسموح لهم بقضاء فترات بمفردهم أو التفكير في أمورهم الشخصية، والتعددية الجنسية وعدم الارتباط بشخص واحد في هذه العلاقات هو النموذج السائد في هذا المجتمع، والجميع يجب أن يستخدم عقاقير مضادة للاكتئاب (كان يرمز لها في الرواية بالسوما، توزع على المواطنين في مراكز التسوق..!!) تدخل من يتناولها في غيبوبة لذيذة تمتد لبضع ساعات أو حتى بضعة أيام

، يزول خلالها هذا الشعور بعدم الرضا ، ويعود هذا الشخص إلى ممارسة حياته الطبيعية مثلما يمارسها سائر الناس ،أى يشعر الجميع بالسعادة..!!.

على أن أهم ما ورد فى هذه الرواية هو طريقة دولة العالم كما أسماها هكسلى فى روايته فى السيطرة على البشر، والطريقة التى اتبعتها القلة المسيطرة على مقاليد الحكم فى هذه الدولة فى حشر المعلومات المراد إدخالها فى عقول الأطفال أثناء النوم. وتعتمد هذه الطريقة على محاولة نقل المعلومات للشخص النائم عن طريق تشغيل شريط تسجيل أثناء نومهم وهى ما يطلق عليها الآن فى علم النفس «تعلم الأفكار أثناء النوم Sleep-learning» وهو ما يؤدى فى النهاية إلى ما يسمى بالتشريب الحكومى Government Indoctrination وهو ما يعنى قدرة النظام على تشريب وتشكيل المجتمع بأفكار ما وتوجهات معينة حتى ولو كانت تجافى العقل والمنطق. مما يخلق جيوش من الناس المتشبعين بهذه الأفكار يعملون بها ولا يفكرون فيما يعملون، ويعيشون بطريقة رد الفعل وليس بطريقة الفعل القائم على العقل وتدبر الأمور، مثلهم مثل كلاب بافلوف الذين لا يفكرون فى ردود أفعالهم، وتصبح تصرفاتهم مجرد أكليشيه ثابت ودليل على انتهاء قدرتهم على التفكير Thought-terminating Clichés وهو ما يؤدى بهؤلاء البشر للوقوع فى براثن العبودية الجديدة، عبودية الرأى الواحد والشخص الواحد والحزب الواحد والطريقة الواحدة والمنهج الواحد..!

وقد فطن هكسلى إلى هذا الاعتداء الصارخ على إنسانية الإنسان بكل ما تعنيه الإنسانية من خصوصية فى التكوين سواء الشكلى أو النفسى أو الأخلاقى، وتفرد وتميز أى إنسان عن الآخر فى كل شىء ،فمعاملة البشر وكأنهم وحدات متماثلة يجوز عليهم ما يجوز على الأجسام المادية والجامدة المجردة من الحياة كفيل بترسيخ هذا الاعتداء وتكريسه، وتنبأ بأن هذا التوجه قد يصيب الإنسانية فى مقتل ، ويفقدها ما يستحيل تعويضه..!

إن عالم هكسلى الجديد الشجاع الذى تنبأ به قبل خمسة وسبعين عامًا وسخر منه وعبر عن عدم رضائه عنه، قد تحقق وقد حدث بالفعل فى كل تفصيلاته الصغيرة وكأن

رؤيته قد تحققت كاملة رغم أنه كتب عن الثورة الجينية مثلاً قبل أن تتحقق فعلياً على يد العالمين واتسن وكريك الذين اكتشفا تركيب الحامض النووى DNA بعشرين سنة ، وكتب عن الهندسة الوراثية قبل أن تصبح إحدى الممارسات العلمية المعاصرة ، وما يقال عن الهندسة الوراثية يمكن أن يقال عن الاستنساخ وأطفال الأنابيب وتكنولوجيا المعلومات وغيرها.

وما تنبأ به فى العلم حدث ما يماثله فى السياسة والإعلام وغيرها من المجالات، ففى عالم السياسة أصبحت فكرة سيطرة القائمين على الحكم على الناس هى النموذج الأكثر تطبيقاً فى جميع الأنظمة الحاكمة، وزادت درجة التدخل فى حياة الناس بالتنظيم والضبط والربط والتجسس والملاحقة والتتبع بطريقة غير مسبوقة، كما أصبح الإعلام أيضاً لا يكف عن تكرار أخبار ملفقة وتعليقات كاذبة وتفسيرات واحدة،ولكنها مدروسة بعناية، تجعل تصديق مثل هذه الأخبار والتعليقات أمراً حتمياً، تفيد توجهات القائمين على الحكم فقط، بحيث أصبح مجرد الشك فيها مستحيلاً، والخروج عن ما تم حشره فى عقول الناس جريمة، والتفكير فى غير الاتجاه السائد يستلزم العقاب، وأصبحت صناعة القبول والرضا manufacturing of consent هدف الإعلام الحكومى، وكما تنبأ هكسلى فى روايته بأن من يتشكك فى أن ما يسمعه لا يطابق الحقيقة بالضبط سوف يعزل فى جزيرة منعزلة، نجد أن ما يحدث الآن من القائمين على السلطة فى التعامل مع أى رأى مخالف يفوق بمراحل ما توقعه هكسلى فى هذا الشأن..!

وليت هذا التسلط على البشر وقدرتهم على التفكير بأنفسهم لأنفسهم، وتغيير مفاهيمهم ومعتقداتهم، والاقناع الجبرى، وحشر وتشريب عقولهم بالتوجهات الحكومية، يأتى من جهة الحكومات الاستبدادية فقط، ولكن أصبح الإملاء وفرض الفكر، وغسيل الأدمغة يأتى من الكتب التى يصرح بنشرها والتى نقرأها كل يوم، والتى أصبحت أقرب إلى المنشورات الحكومية الدعائية، وتقليل فرص الوصول إلى المصادر الطبيعية والصحيحة للمعلومات، وبرامج التليفزيون الموجهة التى نراها والتى تغذى السلبية والتنميط،وهمها الأول إغراق الناس فى عالم من المتع والملذات والتشويق، وأفلام

السينما التى تميل إلى ترويج العنف والرعب والإثارة التى تمجد أسطورة الأقوى الذى لا يقهر، وتبرير العنصرية والاستغلال والانتهازية، وإعلانات التليفزيون (التى تسوق المشاهد ليصبح مُستهلكًا مُسيطرًا عليه تماماً، وخاضعاً تماماً لقوانين السوق، وكلما زاد حجم السلع التى تباع وتشترى كلما تضاعف حجم الثروة وبالتالى يقاس النجاح)، وألعاب الفيديو التى تزرع فى نفوس الشباب بطولة زائفة بدون جهد أو فكر أو عرق، وتدريبهم على نماذج تكتيكية للقتل لمجرد التسلية وإحراز مزيد من النقاط..!، والجماعات الدينية التى أعلنت نفسها المالك الوحيد للحقيقة، وكفرت كل ما هو غيرها، والجماعات السياسية والأحزاب التى تعتقد أنها الوحيدة التى تعرف خارطة الطريق، وأنها الوحيدة التى تستطيع أن تأخذ بأيدى الناس الذين لا يستطيعوا السير فى طريقهم بدون أيدى بابا النظام وماما الحكومة..!!

ولكن ما يعنينا فى رواية هكسلى، قدرة المثقفين الهائلة - الموجودة دائمًا فى كل مجتمع - على قيادة فكر هذا المجتمع، فصرخة الغضب والاحتجاج التى أطلقها هكسلى وغيره كثيرون - قبله وبعده - هى التى جعلتنا نفكر ونتدبر فيما حولنا، وقدرته على فضح أساليب القهر سواء القهر المادى المعروف على مدى العصور، أو القهر المعنوى، عن طريق ما أصبحت عليه وسائل الإعلام والاتصال الحديثة من تأثير واضح فى عقول الناس وميولهم وغسل أدمغتهم وتشريب عقولهم بما يريد الحكام نشره من أفكار ومعتقدات ومعلومات، هى التى جعلتنا نصحو من غفوتنا، نتلفت حولنا لنجد أن مقادير أمورنا ليست بأيدينا، ونرتعب خوفًا مما يمكن أن يأتى به المستقبل..!.

أن القدرة على الرؤية السليمة للأمور تعطينا أملاً فى قدرتنا على استشراف المستقبل والتعامل معه بشجاعة، إذا عرفنا كيف نفك شفرته ونحل طلاسمها.. فرواية هكسلى لا تقصد مجتمعاً معيناً أو ثقافة معينة، وإنما تعنى رواية هكسلى بكل البشر فى كل مكان وزمان، وأزمة الحرية فى كل العصور، لقد انهى هكسلى روايته بأحد الأطفال الذى كان دائماً ما يتشكك فى كلام مدرسته عن عدم قيمة الدين والأسرة والفن، بأن قرر وضع سدادة فى أذنيه قبل النوم حتى لا يسمع ما يريدونه أن يسمع..! إن تلك

النهاية القوية الموحية هي التى تؤكد على أنه مازالت هناك شجاعة فى هذا العالم الجديد الذى نحياه، وأن هناك أملاً مادام هناك عقل يفكر وأيادى تعمل، وبدون تلك الرؤية الواضحة لما يجب أن نفعل حتى نغير من واقعنا ومستقبلنا لكى لا نصبح مجموعة أخرى من كلاب بافلوف التى تعيش بطريقة رد الفعل، فإننا سنظل نعيش فى عالم قديم جبان!!.





الموجـــة الرابعـــة



عندما حاول توفلر فى عام ١٩٨١ فى كتابه "الموجة الثالثة " أن يحدد معالم التغيير الضخم الحادث حاليًا أشار إلى أن البشرية مرت بموجتين سابقتين، موجة زراعية عندما استقر الإنسان الذى كان يعتمد فى البداية على الرعى على ضفاف الأنهار وتعلم الزراعة وأتقنها، وقد استمرت هذه الموجة مئات القرون ومازالت بعض الدول فى إفريقيا تعيش فيها، ثم جاءت الموجة الثانية فى صورة الثورة الصناعية فى أوربا عندما تم اختراع المحرك والآلة البخارية استمرت هذه الموجة عدة مئات قليلة من السنين، إلى أن قامت موجة ثالثة بدأت إرهاصاتها فى أمريكا وأوروبا وأسماها المعلوماتية أو السماوات المفتوحة تعتمد على قوة تواجد المعلومات وانتشار وسائل الاتصال السريعة بين البشر فى جميع أنحاء الكون. ولو أراد توفلر أن يعيد طبع كتابه الآن لوجد أن الموجة الثالثة نفسها بعد أقل من عشرين سنة قد أوشكت على الانتهاء وتسليم الراية إلى الموجة الرابعة التى تعنى بالهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية لتحسين السلالات لعدد من المحاصيل الزراعية والفاكهة تحسيناً مذهلاً وإنتاج الأمصال واللقاحات وبكتريا مضادة للأمراض التى كانت تعتبر مستعصية مثل السرطان ومرض فقد المناعة" الإيدز" كما أمكن استنساخ الحيوانات والأنزيمات النشطة والميكروبات التى تستخدم فى استخراج المعادن من المحاجر والحشرات المدربة على تحليل أو تكسير المخلفات العضوية أو الصلبة وأصبح التخلص من المخلفات وتحويلها إلى أشياء مفيدة إحدى الصناعات الكيميائية المربحة..!!

وظهرت تعبيرات مثل تكنولوجيا النانو، والبيكوتكنولوجى ، والفيمتوتكنولوجى، وأصبح من الواضح أن هذه الموجة التكنولوجية ستؤثر فى حياتنا اليومية تأثيراً كبيراً، ولم يكن يجول بخاطر توفلر نفسه أن اكتشاف مثل اكتشاف الفيمتوثانية بعد ظهور كتابه بخمسة عشر عاماً فقط والتى أوصلت قدرة البحث العلمى على تسجيل تفاعلات كيميائية فى منتهى السرعة قد يعد انقلاباً علمياً مدوياً ويؤدى إلى اكتشافات علمية لاحقة لم نكن لنتمكن منها بالوسائل التقليدية المتواجدة.

فلو نظرنا مثلاً إلى تكنولوجيا النانو والتى تعنى بتغيير الخواص التركيبية والكيميائية للذرة الواحدة عن طريق التعامل مع حالة الطاقة للإليكترون داخل الذرة للوصول إلى حالة أكثر ثباتاً وصفات جديدة للمادة الأصلية. وتكنولوجيا النانو تشمل عدة علوم متداخلة فهى تشمل علوم البيولوجى والفيزياء والكيمياء وعلى حسب تعريف مبادرة الولايات المتحدة الوطنية لتكنولوجيا النانو لهذه الظاهرة أنها تعنى بالفهم العميق لتركيب المادة والتحكم فى المادة على مستوى متناهى فى الصغر لا يزيد عن ١٠٠ نانوميتر من أجل تخليق مواد جديدة بصفات مختلفة.

وتكنولوجيا النانو (والنانو هى كلمة يونانية الأصل معناها "القزم") تبيح التعامل مع المادة على مستوى متناهى فى الصغر Nano scale وتتحكم فى الشكل والحجم على مستوى قياس النانو، ولكى نفهم مدى صغر مقياس النانو فهو جزءٌ من البليون (وليس المليون) ويجب أن نعرف أن كل ٨ ـ ١٠ ذرات تبتعد عن بعضها بمقدار واحد نانوميتر، وأن الشعرة الواحدة تعادل فى سمكها حوالى ٧٠٠٠٠ ـ ٨٠٠٠٠ نانوميتر..!

والمواد التى يتم التعامل معها على مقياس النانو يمكن أن تظهر صفات جديدة ومختلفة عن تلك الصفات الموجودة فى نفس المادة عندما يتم التعامل معها على مقياس أكبر، فمثلاً يمكن لمادة معتمة أن تصبح شفافة (النحاس)، ويمكن لمادة خاملة أن تصبح مادة محفزة (بلاتينوم)، ويمكن لمادة ذات خواص ثابتة أن تتحول إلى مادة قابلة للاحتراق (ألومنيوم)، ويمكن لمواد صلبة أن تتحول إلى مواد سائلة فى درجة حرارة الغرفة العادية (الذهب)، ويمكن للمواد العازلة أن تتحول إلى مواد موصلة (سيليكون)..!!.

ولتكنولوجيا النانو تطبيقات عديدة وفوائد متوقعة، فعن طريقها يمكن تصنيع مجموعة كبيرة من المواد والخامات الجديدة التى تحمل صفات محددة سلفاً بناء على تغيير الصفات الفيزيائية للمواد الموجودة فعلاً..

ففى الطب مثلاً أمكن عن طريق تكنولوجيا النانو إنتاج عقاقير مظهرة لتصوير الخلايا وأخرى لعلاج السرطان، أما فى مجال التشخيص فقد أصبح من الممكن الآن عمل معملاً كاملاً على شريحة أو رقاقة إليكترونية Lab-on-a chip ويمكن عن طريقها وضع جميع الاختبارات البيولوجية التى تقيس وجود نشاط لمواد معينة على تلك الرقاقة الإليكترونية بحيث تكون أسرع فى إعطاء النتائج وأكثر دقة ومرونة.

كما يمكن لهذه التقنية أن تسمح بتغيير القوة المغناطيسية لجزيئات الغاز المصنعة والتى يمكن حينئذ أن تلتصق بالمضادات الجسدية Antibodies لتتعرف على الجزيء المريض فقط. كما تمكنت هذه التقنية أيضًا من تصنيع جزيئات ذات طبقة رقيقة مذهبة يمكنها من الالتصاق بالشرائط الجينية القصيرة DNA ويمكن حينئذ أن تحدد المتتالية الجينية فى عينة ما وهو ما يستخدم بكثرة فى تحديد النسب ورسم خريطة الأمراض الوراثية وكذلك فى الجرائم الجنائية للتعرف على طبيعة الجثث المجهولة..

ويمكن لتكنولوجيا النانو تقليل استهلاك الدواء والتأثيرات الجانبية لهذه الأدوية عن طريق تمكين المادة الفعالة فى الدواء من الالتصاق بالمنطقة المصابة فقط ، وتقليل الاحتياج للجرعات الكبيرة من هذا الدواء ، وبالتالى تقليل معاناة المرضى من الجرعات الزائدة وتأثيراتها الضارة وكما يساهم أيضاً فى تقليل التكلفة الكلية للعلاج.

أما فى مجال هندسة الأنسجة، فقد تساعد هذه التكنولوجيا على إعادة تخليق أو إصلاح الأنسجة المتضررة، وتعمل تكنولوجيا النانو على تحفيز صناعى لنمو الخلية باستخدام وسيط مناسب حامل لمواد النانو وعامل النمو بجوار بعضها البعض. وقد تطورت هندسة الأنسجة أخيراً حتى أنها يمكن أن تحل محل عمليات نقل وزرع الأعضاء.

أما فى مجال الكيمياء والبيئة فتلعب تكنولوجيا النانو دوراً محورياً فى صناعة المحفزات الكيميائية والمرشحات.. ويظهر هذا الدور الواضح فى تخليق مواد جديدة ذات صفات كيميائية مصنعة خصيصاً لأغراض معينة ، وعلى المدى البعيد سوف تقدم تكنولوجيا النانو تغييراً فى التفاعلات الكيميائية عن طريق إدراج ما يسمى بالتجميع الذاتى للمواد المصنعة self assembly الذى سوف يساعد على تقليل الطاقة والوقت اللازمين للتصنيع.

وفى مجال استخدام أنظمة طاقة صديقة للبيئة ، بدأت فعلاً هذه التكنولوجيا فى تقديم خلايا وقود تعمل بالهيدروجين والتى تتيح استخدام الطاقة المتجددة ، ومن أهم مكونات جزيئات النانو فى خلايا الوقود هو العامل المحفز المكون من الكربون والموجود على جزيئات معدن نبيل متناهية الصغر لا تتعدى فى حجمها ١ ـ ٥ نانوميتر، أما المواد المناسبة لتخزين الهيدروجين فتحتوى هى الأخرى على عدد كبير من المسام المتناهية الصغر التى تسمح بالتصاق الكربون عليها . nano-sized pores كما قدمت محولات للعادم صديقة للبيئة catalytic converters وقد أصبحت معظم السيارات الحديثة تحتوى على هذه المحولات.

وقد تم تطبيق تلك التقنية فى إعادة تدوير البطاريات القديمة والتى يمثل التخلص منها.مشكلة فى نقل تلك المخلفات عن طريق استخدام بطاريات ذات طاقة محتواها كبير أو البطاريات التى تقبل إعادة الشحن المصنوعة من خامات النانو.

وفى مجال المعلومات والاتصالات فقد استخدمت تكنولوجيا النانو فى صناعة موصلات جديدة semi conductors وأجهزة بصرية إليكترونية، أجهزة عرض، وأجهزة كمبيوتر تعمل بأقل مقدار من الطاقة Quantum computer.

وأمكن استخدام تكنولوجيا النانو فى صناعة بضائع ذات وظائف جديدة مثل مواد سهلة التنظيف ولا تلتصق بها الأوساخ أو البقع، ومواد مضادة للخربشة، وأنسجة مضادة للكرمشة، كما أمكن تطبيقها فى صناعة الطعام وطرق الطبخ وحفظ وتعبئة الطعام، فقد أمكن صناعة طبقة واقية من منتجات النانو تستخدم فى عمليات التعبئة

وتوضع مباشرة على سطح الطعام وتحتوى على مضادات البكتريا، ويمكن أيضًا لمركبات النانو تقليل أو زيادة مسامية المرشحات المختلفة للغازات المنبعثة من الغذاء حسب الحاجة لكل منتج، كما يمكن لها أيضاً تحسين الخواص الميكانيكية ومقاومة الحرارة وتقليل معامل انتقال الأكسجين لتقليل الأكسدة، كما أصبح من الممكن أيضاً عمل مسح لأى تغيرات تحدث فى الطعام وتؤدى لفساده.

وأحد أهم أنظمة المرشحات يعتمد على استخدام أغشية ذات مسام متناهية الصغر تصل إلى ١٥ نانوميتر والتى يمكنها من إزالة الأيونات الموجودة فى السوائل أو فصل السوائل المختلفة عن بعضها. وتستخدم المرشحات المصنوعة بالنانو فى الغسيل الكلوى، كما تستخدم الجزيئات المغنطة بالنانو فى عمل مرشحات الماء والتى تمكنها من فصل المعادن الثقيلة من المياه المستخدمة، وهى طريقة فعالة فى امتصاص الملوثات وتعتبر طريقة غير مكلفة نسبياً بالمقارنة بالطرق التقليدية التى تعتمد على الترسيب والمرشحات التقليدية.

وتقليل استهلاك الطاقة أحد أهم تطبيقات النانو فقد أمكن تحسين صفات العزل الكهربى والحرارى لتقليل استهلاك الكهرباء، وصناعة لمبات كهربية تحول ٥٪ فقط من الطاقة المستخدمة للإضاءة. كذلك دخلت فى صناعة الخلايا الشمسية لتحسين قدرتها على تخزين الطاقة بزيادة مساحة المسطحات القابلة لتخزين أشعة الشمس، كما أمكن صناعة مواد أخف وزناً وأكثر قوة لتستخدم فى صناعة وسائل النقل لتقليل استخدام الطاقة المحركة.

ودخلت تطبيقات النانو أيضًا فى البصريات فقد أمكن صناعة نظارات شمسية تحمى العين أكثر ومضادة للانعكاس الضوئى عن طريق وضع طبقة رقيقة جداً من البوليمر المصنع بالنانو كما تم عمل نظارات مضادة للخدش.

وفى مجال الرياضة أمكن لتطبيقات النانو عمل مضارب تنس من خيوط كربونية متناهية الصغر على شكل أنابيب دقيقة تزيد من قوة الانبعاج والانحناء، مما يؤدى إلى مضارب أكثر قوة من المضارب الحالية.

أما مصطلح البيكوتكنولوجى Picotechnology فيعنى صناعة مركبات بحيث تكون ذراتها مثبتة بدقة أكثر من دقة نانوميتر، وتظهر أهمية هذا المستوى من الدقة عندما يكون المطلوب هو التفاعل مع ذرة واحدة فقط.. وتكون قوة التفاعل مرتبطة بالمسافة بين تلك الذرات (مثل المسافة بين الذرة الموجودة على طرف آلة الفحص والذرة الموجودة على العينة المطلوب فحصها) وتختلف قوة التفاعل بشدة كلما زادت المسافة بينهما وهى تتأثر بتغيير المكان بقياس من ٥٠ ـ ١٠٠ بيكوميتر.

ولأن تكنولوجيا النانو تبيح تخليق مواد جديدة والتحكم فى جزيئات تلك المادة، فإنها قد تعنى فى المستقبل القريب التحكم فى المادة نفسها!! وهو ما دفع الشركات الأمريكية العاملة فى مجال النانو للاندفاع المحموم نحو تسجيل براءات الاختراع فى هذا المجال فى محاولة منهم لفرض سيطرتهم على هذا المجال الهام فى المستقبل، وحجز نصيبهم فى الكعكة، فقد تم فى عام ٢٠٠٣ فقط تسجيل ٨٠٠ براءة اختراع جديدة فى مجال تكنولوجيا النانو فى الولايات المتحدة بمفردها، والأرقام تتزايد عاماً بعد عام، بل وصل الأمر إلى إثارة مشكلة حقوق الملكية الخاصة بالتوصل إلى تلك التقنيات واستعمالها والإفادة منها فى المجالات المختلفة كما أشرنا آنفاً ومدى مراعاة هذه الحقوق إذا انتشرت هذه التقنيات فى مجتمعات دول العالم الثالث المتخلفة التى لم تسهم بأى نصيب فى تلك البحوث وإثارة مشكلة حقوق الملكية فى مثل هذه البحوث الدقيقة تنطوى على مخاطر انقسام العالم من جديد إلى الوضع الذى كان عليه أيام الاستعمار فى القرنين الثامن والتاسع عشر، إذ سوف ينقسم العالم الآن إلى الدول التى تملك والدول التى لا تملك هذه التكنولوجيات، وبالتالى سوف تتمكن دول الغرب المتقدم والتى تملك هذه التكنولوجيا والتى تعرف كيف تستغل دول العالم الثالث كمصدر للمواد الخام الرخيصة وكسوق لتصريف المنتجات من السيطرة على تلك الدول مرة أخرى..! وهو ما يجعلنا نؤكد أن الدخول إلى عصر تكنولوجيا النانو لم يعد ترفاً بالنسبة لنا ودول العالم الثالث بل أصبح ضرورة حياة وفرض عين، ففى خلال سنوات قليلة سيصبح من يمتلك هذه التقنيات هو اللاعب فى الملعب ومن لم يملكها وتذرع بقلة الإمكانيات التى هى فى

الحقيقة قلة حيلة، سيكون عليه مغادرة الملعب مطروداً، ويكتفى بالجلوس وحيداً منبوذاً فى مقاعد المشاهدين لمشاهدة اللاعبين الآخرين وهم يلعبون فى الملعب، لأنه لا مكان بعد الآن لمن لا يعرف قواعد اللعب الصحيحة، فالجهل بقانون اللعبة لا يعف صاحبه من المساءلة ولكنه ذريعة المتخلفين والغافلين والمتقاعسين..!! وليس أدل على ذلك من أن دولاً كثيرة نامية تحاول الدخول إلى عصر تكنولوجيا النانو مثل الهند والصين وماليزيا وغيرهم كثير..!! وهو ما يعطينا صورة عن أهمية هذا التخصص والذى نستطيع أن نزعم أنه سيكون المكون الأساسى للموجة الرابعة فى المستقبل القريب والبعيد..!.





تطور عقل الإنسان..
فى رسالة حى بن يقظان..!



فى بعض الأحيان تقرأ نصاً فتجدك مشدوداً إليه وتعاود التفكير فيه مرات ومرات بعد قراءته للمرة الأولى، وتعاود قراءته مرة ثانية، فتكتشف فيه أشياء جديدة، وتتبين لك نواح وأفكار جديدة لم تخطر على بالك فى القراءة الأولى، وتظل تطالعك هذه الأفكار بين الحين والآخر، وقد تباعد بك الأيام وبين قراءتك الأولى لهذا النص، ولكن تظل فكرته تراودك وتلح عليك، رغم انشغالك بأمور أخرى، وتظل دائماً تلك الفكرة هاجساً يظهر حيناً ويختفى حيناً آخر، يدفعك للتأمل والتفكير وإعمال العقل، فيما احتواه هذا النص وفيما يرمى إليه وكيفية التعبير عن الفكرة، بل يشغلنى كثيرا الجانب الإبداعى فى النص وكيف استطاع الكاتب أن يبنى فكرته ويضع لها الأساس والسياق الذى أوصلها إلى الصورة التى ظهرت عليها، وحجم المعاناة التى لاقاها حتى تولد هذا العمل، واكتملت صورته وخرج من رحم الفكرة فى عقل صاحبها إلى الحياة الواسعة ليقرأه الناس ويتداولونه عبر الأيام والسنين..

وقصة حى بن يقظان إحدى تلك النصوص التى تستهويك عند قراءتها وتشدك إلى تكوينها الشيق، وقصتها الغريبة، وأجوائها الغامضة، وتجرك إلى عصف من الأفكار والتأملات والإرهاصات، وهى قصة ذائعة الصيت، وذاعت بين المسلمين ذيوعاً عظيماً وترجمت إلى عدة لغات حية منها العبرية (١٣٤١ م) واللاتينية والأسبانية والإنجليزية والفرنسية والروسية فى عصور لاحقة، وأعتبرها بعض الفلاسفة الغربيين أبدع وأغرب ثمرات الأدب العربى..

وفى بحث شيق للأستاذ أحمد أمين(*) أظهر أن هناك ثلاث رؤى مختلفة للقصة، كلها تحمل نفس الاسم، واحدة وضعها ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م)، والثانية ابن طفيل الأندلسى (٥٠٦ هـ =١١١٠ م وتوفى ٥٨١هـ =١١٨٥ م)، والثالثة للسهرودى المشهور بالمقتول لأنه قتل وعمره ست وثلاثين سنة فى عهد الملك الظاهر (المتوفى عام ١١٩١م).

ونسخة ابن سينا من حى بن يقظان مليئة بالرموز الفلسفية العميقة والعبارات الغامضة المغلقة التى تستعصى على البعض فى فك رموزها وفهم معانيها. بينما نسخة ابن طفيل جاءت بعبارات مشرقة واضحة ولغة أدبية بليغة. ونسخة السهرودى والتى لم تلق انتشاراً واسعاً مثل النسختين الأخريتين ولم يتبق منها إلا مخطوطة واحدة، تعد أكثر غموضاً وصعوبة من نسخة ابن سينا لإمعانه فى الفلسفة، واستخدام الرموز المبهمة فى مخطوطته التى لم تتجاوز أربع صفحات فقط (حى بن يقظان وفلاسفة الإسلام ـ د.الطاهر أحمد مكى ـ مجلة الهلال ـ نوفمبر ٢٠٠٤)..

والمجال هنا لا يسمح ببيان الاختلافات بين الرؤى الثلاثة، إنما سنعرض للقصة كما رواها ابن طفيل الأندلسى، فقد لجأ إلى القالب القصصى سبيلاً لعرض آرائه الفلسفية بأسلوب يفيض حيوية وتفرداً وإن لم تكن الآراء التى ساقها كلها مبتكرة.. وقد استطاع ابن طفيل أن يستعمل قصة ساذجة بسيطة لعرض كل ما عرفه أهل زمانه من الآراء فى العلم وما وراء الطبيعة والتصوف والتفسير..

وقد عرف الطبيب الأندلسى ابن طفيل كيف يستقى من الأسطورة البسيطة القديمة (أسطورة الصنم والملك وابنته التى رويت عن الإسكندر ذى القرنين فى الأساطير الشعبية الأندلسية) ما يصلح وما يسوغ، وطرح منها ما لا ينفعه، وادخل هنا وهناك من التعديلات ما اضفى على القصة روحًا جديدة ومكنها من حمل هذا الحشد العظيم من الآراء والأفكار.

وتتلخص القصة التى تقع الطبعة الأصلية لها فى سبعين صفحة من القطع المتوسط بأن حى بن يقظان ولد لأم كانت أخت الملك، تزوجت وزير الملك وحملت منه على غير

(*) حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهرودى تحقيق وتعليق أحمد أمين دار المعارف ـ ١٩٦٦

رضا الملك، فخافت عليه من بطش الملك فوضعته في تابوت خشبي بعدما أرضعته وقذفته في اليم وجرفه المد إلى جزيرة أخرى، حيث التقطته ظبية كانت قد فقدت ابنها فحنت عليه، وألقمته حلمتها، وأرضعته لبناً سائغاً حتى ترعرع..!

ثم أن حي بن يقظان هذا حنا أيضاً على الظبية لأنها أرضعته لبنها وعطف عليها كما يعطف على أمه.

ومازال مع الظباء على هذه الحال يحكي نغمتها بصوته، ويحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير، وسائر أنواع الحيوان، يحاكيها في الاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع.

ولما قلدها في هذه الأصوات المختلفة باختلاف هذه الأنواع ألفته وألفها، يشير بذلك إلى أن الإنسان يبدأ في حركاته وأصواته بالتقليد لما حوله. فالإنسان يقلد حركات أمه وأبيه وأصواتهما ولولا هذا التقليد لنشأ الطفل أبكم.. غير أنه نظر إلى الحيوانات فوجدها مكسوة بالأوبار والأشعار والريش إلا هو، ورآها مسلحة بالأنياب والقرون والمخالب إلا هو، فلم يدر ما سبب ذلك ويرى مخرج الفضلات مستورًا عند الحيوانات بالأذناب أو بالأوبار، فكان ذلك يغيظه. فلما قارب سبعة أعوام ولم ينبت له شيء من ذلك يئس من كل ذلك. فبدأ يعوضها بتسخير عقله فاتخذ من أوراق الشجر العريضة ما يكسو بدنه، وربطها بالخوص والحلفاء، ولكنه وجد أن هذه الأشياء تجف بعد قليل، فاتخذ غيرها واتخذ من غصون الأشجار عصيًا تقوم مقام الأسلحة عند الحيوانات، ولفت نظره أن له يدين خيراً من أيديهما، مكنتاه من ستر عورته وحمل سلاحه، فلما سئم من التغطي بأوراق الشجر وسرعة جفافه فكر في جلد الحيوان أو طير ميت، وصادف أن رأى نسراً ميتاً فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه، وسلخ جلده، ثم قسمه إلى قسمين، ربط أحداهما على ظهره، والآخر على سرته وما تحتها. ثم علق الجناحين على عضديه، وعلق الذنب من خلفه، فأكسبه ذلك دفئاً وهيبة عند جميع الوحوش. وصار لا يدنو إليه إلا الظبية التي أرضعته ولما أسنت وضعفت ماتت. فسكنت حركاتها، وتعطلت جميع أفعالها فاستغرب حي بن يقظان، وناداها بصوته الذي اعتاد أن يناديها به، فلم تجب ففكر طويلا في هذا الذي نسميه نحن الموت، فأخذ يفحص أعضاءها عضواً عضواً،

وأذنها وعينها، فلما فرغ من جميع أعضائها الظاهرة، ولم يـر فيها آفة، ففكر أن تكون الآفة في عضو باطني فشـرحها عضواً عضـواً فاستفاد من ذلك معـرفة علم التشريح. وأخيراً وصل إلى أن العضو الذى سبب الموت يجب أن يكون فى الوسط حتى يمد سائر الأعضـاء بالقوة والحياة، فلما مات مـاتت الأعضاء. ففتش في الـوسط وما حوله فلقى القلب. وهو مجلل بغشاء فى غاية القوة، والرئة مطبقة عليه لحمايته. ورأى له من حسن الوضع وجمال الشـكل وقلة التشتت، وقوة اللحم ما حمله على أن يعتقد أنه سبب الموت والحياة، ورآه قد تجمد فيه الدم الذى يوجد مثله فى سائر الأعضاء، وشرح القلب فرأى تجويفًا من تجويفـاته فارغاً كان فيه حرارة ثم ارتحلت. وأنـه بارتحالها ارتحلت الحياة معه، وبذلك أدرك سر الموت.

وفي خلال تلك الفترة نـتن ذلك الجسد، فحفـر حفرة وألقى جسد أمه، وجـثا عليها التراب، وبقى يتفكر فى ذلك الشىء المصرف للجسد، وكان يحرك أمه ويصرفها..

هذا إلى أن دجت نار فى أجمة فأعجـبه منظرها، ومما أعجـبه منها أنها لا تصل إلى شىء حتـى تأتى عليه. هذا إلى ضوئها الثاقب ، وجرأتها وقوتها حتى لا يستطيع أن يمد يده إليهـا. وأراد أن يأخذ منها شيئًـا فاحترقت يده، فلم يستـطع القبض عليها، أو يأخذ منـها قبسًا لم تكن الـنار أتت عليـه كله. ومازال يمد ذلـك القبس بالحـشيش والحطب الجزل، ويتعهده ليل نهار استحسـاناً له وتعجباً منه، ولأن النار التى كانت تمده بالضوء والدفء ليلاً. فعظم فى نظـره شأنها، وأعتقد أنها أفضل الأشياء لديه. وكان يرى لهيبها دائمًا يـتجه إلى الـعلو فـغلب على ظـنه أنها مـن جملـة الجواهر الـسماويـة التى كان يشـاهدها. وكان من حين إلى حين يـختبر قوتها ، فيـلقى فيها شيئًا فيرى أنها تأتى عليه إن عاجلاً وإن آجلاً.

ومرة اختبر قوتها بأن ألقى شىء فيها من السمك الذى ألقاه البحر إلى الساحل فلما نضج شم له رائحـة لطيفة وتحـركت له شهوته، فلـما أكله استـطعمه. وأحس بقوة فى جسمه أكثر مما كان يجده عند أكل الثمار.

فتعود أن يأكل اللحوم والأسماك بعد أن ينضجها بهذه النار. وفى تقدمه هذا إشارة إلى المرحلة التى قطعها الإنسان الأول فى التقدم باكتشافه النار.(وقد حدثت أحداث فى تاريخ الإنسان الأول كانت عوامل عظيمة فى تقدمه. منها اكتشافه النار واكتشافه الحديد ومعرفته طرق البذر والإنبات ومعرفة الكتابة وهكذا، ولولاها ما تقدم هذا التقدم).

وأراد أن يحقق فكرته فى أن الحياة مصدرها القلب وهذا التجويف كذلك بتشريح حيوان حى، ورؤية قلبه وتجويفه. فعمد إلى بعض الوحوش وشقها كما فعل فى أمه الظبية، حتى وصل إلى القلب. فانتزع القلب بسرعة. ورأى التجويف مملوءًا بهواء بخارى يشبه الضباب الأبيض فأدخل إصبعه فيه، فوجد حرارة تكاد تحرق يده، ثم خرج البخار من التجويف فمات الحيوان كما ماتت الظبية.

والتفت إلى عصاه فوجدها تصلح لبعض الحيوانات دون بعض وتعلم من التشريح أن القلب يمد كل عضو بما يناسبه، فينبغى أن ينوع أداة الصيد حسب انقسامها إلى حيوان بحر وحيوان بر، وحيوانات متوحشة وغير متوحشة.

فعمل من الحلفاء ومن الشوك القوى ومن القصب ما مكنه من عمل أسلحة مختلفة تناسب الحيوانات المختلفة.

ومرة فضل شيء من غذائه، فأراد أن يحتفظ به فاتخذ مخزنًا وحصنه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض، لئلا يصل إليه شيء من الحيوانات.

وتوسع فى ذلك فاستخدم جوارح الطير ليستعين بها على الصيد. واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها إلى آخر ذلك.

ورأى أن يده وأصابعه تعينه على الحركات المختلفة. غير أنه رأى بعض الحيوانات تفوقه سرعة العدو فتآلف مع بعض الحيوانات من هذا القبيل وجعلها تخدمه فى العدو والصيد واسترضاها بما يقدمه لها من غذاء. وأخذ بعد ذلك مأخذ أخرى فتصفح جميع الأجسام التى فى هذا العالم، فرآها متنوعة من حيوانات ونبات ومعادن وحجارة وتراب

ومـاء وبخار وثلج ودخان ورأى لهـا أوصافاً كثيرة بعـضـها يشترك، وبـعضـها يختلف. فهى تتوحد عند الاشتراك فى الصفات، وتختلف عند الاختلاف.

ثم هنـاك صفات مشتركة فى الأنواع كالظباء والخيول والنعاج وصفات مشتركة فى جميع الحيوانات وكـذلك الشأن فى النبات والجمـاد. يرى مثلاً أن جنس الحيوان يمتاز بالحركة وجنس النبات لا يتحرك. ولكنه ينمو، وجنس الجماد لا يتحرك ولا ينمو. ووجد هناك أوصافاً تعمها كلها سواء كانت متحركة أو غير متحركة ونامية أو غير نامية فمثلاً كل هذه الأجسام إما حارة أو باردة. وتأمل فى جميع الأجسام حيها وجمادها ، فرأى أن كل واحد منـها لا يخـلو من أحد أمـرين إما أن يتـحرك إلى أعلى ، كـالدخان والـلهيب والـهواء، وإما أن يتحرك إلى أسفل كالماء وأجزاء من الأرض : هذه طبيعتها إلا أن يحول دون ذلك حائل. ولا يعرى جسم من إحدى هاتين الحركتين. ففكر هل هذه الصفات ذاتية للجسم، أم هـما لمعنـى خارج عن الجسمـية، فظهـر له الفرض الـثانى. لأنهمـا لو كانا لـلجسم، من حيث هـو جسم لما تخـلفا، ونحن نجـد ما يتحـرك إلى أعلى لا يتحرك إلى أسفل، والعكس. ثم هداه التـفكير فى الجسم إلى التفكير فى الروح، ذلك لأنه رأى سائر الأجسام من جـماد ونبات وحيوان مركبة من مـعنى الجسمية ومن شـىء آخر زائد على الجسـمية، لا يدرك بالحس حتى المادة الحـيوانية التى رآها تسكن الـقلب شعر بأن فيها معنى زائداً عن الجسمية، وذلك المعنى هـو الذى يعبر عنه عادة بالنفس أو الروح. وهذا الشىء هو الذى يميز بين الأنواع المختلفة فيصير بها هو.

فكل نـوع يشارك الآخر فى الجسمية. ولكن تميز أصناف النوع الواحد، فتميز الخيل عن البغال عن الحمير مع اتحادها فى الجسمية بروح.

ورأى أن جميع الأشياء التى شاهدها خاضعة لـقانون الكون والفساد ويعنى بالكون الـوجود. وعند بعض الفلاسـفة أن الكون هو حصول الـصورة فى المادة بعد أن لم تكن حاصـلة فيها. ومعنى الفساد الفناء، فالعالم المنظور كله حادث ولا بد له من محدث، وإن الأفعال التى تـصدر عن المادة ليست لها فى الحـقيقة، إنما هى لفـاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إلـيها. وبذلك اهـتدى إلى فكرة ضرورة وجـود خالق فتفقـد الأشياء الموجودة

المختلفة فرآها متشابهة في الأصول وفي التكوين ورأى أنها لا بد أن تكون صادرة عن فاعل ولحد فأمن بإله واحد.

ثم امتد نظره إلى الأجرام السماوية فرأى لها كذلك الأوصاف التي عرفها من قبل وهي الطول والعرض والعمق فهي حينئذ أجسام. فلما صح عنده ذلك وتأمل فيها رأى أن الفلك على شكل كرة وقوى ذلك في اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى المشرق بعد مغيبها في المغرب. ولما رآه أيضًا من أنها تظهر لنظره على قدر واحد من العظم في حال طلوعها وتوسطها وغروبها ولو كانت حركتها على غير شكل كرة لكانت في بعض الأوقات تكون أقرب إلى بصره منها في وقت آخر. ولاحظ أن حركة القمر سائرة من المغرب إلى المشرق، وعلى الجملة فقد عرف كثيراً عن عالم الأفلاك. واهتدى إلى أن الأفلاك كثيرة يحكم أسفلها بأعلاها، إلى أن ينتهي إلى علة العلل وهي الله تعالى. فالفلك بجملته كشيء واحد متصل بعضه ببعض وهو يتحكم في الأرض وما فيها. ونظر نظرة شاملة للعالم كله وتساءل هل هو شيء حدث بعد أن لم يكن، وخرج إلى الوجود بعد العدم، أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم؟ فتشكك في ذلك ولم يترجح عنده أحد الاثنين." لوجود دلائل كثيرة على كل فرض من الفروض"، وهو بذلك يشير إلى اختلاف الفلاسفة في أن المادة قديمة أو محدثة.

وعلى أي حال تبين له افتقار جميع الموجودات في وجودها إلى فاعل وهي معلولة له، سواء كانت محدثة الوجود أو قديمته.. ورجع ثانية إلى جميع الموجودات فتصفحها على طريق الاعتبار في قدرة فاعلها، والتعجب من غريب صنعه، ولطيف حكمته، ودقيق علمه، وأن في أقل الأشياء الموجودة من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما يقضي بالعجب العجاب. وتحقق أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال. وأنه أعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى استعماله. فلولا أنه هداه لاستعماله تلك الأعضاء التي خلقت له لما انتفع بها الحيوان وكانت كلاً عليه ورأى أن كل شيء في الموجودات له جسم أو بناء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل من فيض ذلك الفاعل المختار ومن وجوده. فهو

ولا شك أعظم وأكمل. وهو برئ من كل نقص فيها، لأنه ليس معنى النقص إلا العدم المحض، أو ما يتعلق بالعدم فكيف يلحقه العدم، وهو واجب الوجود لذاته، وهو الكمال وهو التمام، وهو البهاء، وهو القدرة، وهو العلم، وهو هو، وكل شيء هالك إلا وجهه.

وصل إلى هذا الحد من المعرفة حي بن يقظان بعد أن بلغ خمسة وثلاثين عاما. وقد استغرق قلبه في أمر هذا الفاعل، ثم التفت إلى شيء آخر وتساءل: مم حصلت له هذه المعرفة؟ هل من حواسه الخمس؟ طبعًا لا لأنها كلها لا تدرك الشيء إلا إذا كان جسمًا، فالسمع لا يدرك إلا المسموعات، والبصر لا يدرك إلا المبصرات، وهكذا حتى الخيال لا يمكن أن يدرك الشيء إلا إذا كان له طول وعرض وعمق، وقد تبين أن هذا الموجود الواجب الوجود برىء من صفات الأجسام، إنما يدرك بالنفس، وإن هذه النفس إنما أدركته لأنها قبس منه لا يمكن فسادها.

وفكر في المأكولات وسلوكه معها، فهو إن جنى على الحيوان وذبحه اعتدى عليه من غير حق، وإن تركه وتغذى بغيره ضعفت قوته. وكذلك الشأن في الثمار فإن التفاح والكمثرى ونحو ذلك إنما وجد لبها لغذاء بذورها، وإن اكتفى بأكل البذور كاللوز والجوز ونحوهما لم تكفه في إعداده للحياة. فكر في هذه المشكلة كما فكر أبو العلاء المعرى فحلها أبو العلاء بتركه اللحوم، واكتفى بالنباتات ولكن حلها ابن طفيل بأكله من الحيوان احتفاظاً بقوته. بشرط أن يتدرج أولاً من لحوم الفواكه التى نضجت، على أن يحتفظ بالبذر فيلقيه في موضع صالح للإنبات. فإن تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات كالتفاح والكمثرى كان له أن يأخذ من الثمار التي كلها بذر كالجوز والقصب. وأخذ نفسه بأن يقصد إلى أكثرها وجوداً وأقواها توليداً. فإن عدم هذا أيضًا فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه ما يكفيه. على أن يأخذ من أكثره وجوداً، وألا يستأصل منه نوعًا بأسره. ثم إذا أكل منه اكتفى بما يسد رمقه. وألا يعود إلى الأكل إلا بعد الجوع.

ثم فكر في الأجسام السماوية إذ كان يعتقد كالأولين أنها أجسام نورانية أرقى من الإنسان في صفاتها ورونقها وكونها شفافة ونيرة طاهرة، منزهة عن الكدر وضروب الرجس، وأنها متحركة بالاستدارة على مركز نفسها، أو على مركز غيرها، وأنها متمتعة

بمشاهدة واجب الوجود، لا تتحرك إلا بمشيئته، فألزم حى بن يقظان نفسه بالتشبه بها، فكما أنها تشع الخير على العالم الأرضى فقد ألزم نفسه ألا يرى ذا عاهة أو حاجة إلا ويعينه قدر إمكانه. سواء فى ذلك النبات والحيوان والإنسان. فإذا وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب ، أو تعلق به نبات آخر يؤذيه ، أو عطش عطشاً يكاد يفسده، أزال عنه هذه الحجب. وإذا رأى حيوانا أراد أن يأكله سبع أو ضبع أو سقط فى عينيه أو أذنيه شىء يؤذيه، أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك. وإذا رأى الماء يعوقه عائقًا عن أن يسقى النبات أو الحيوان أزال هذا العائق، فكان خيرًا بكل ما يقتضيه معنى الكلمة، ومن ناحية أخرى تشبه بها فى أن يلتزم طهارة نفسه وصفاءها، والاغتسال بالماء فى أكثر الأوقات، وتقليم أظافره، وتعطير بدنه، وتنظيف لباسه. وأن يتحرك مثلها حركة مستديرة فيطوف مثلاً حول الجزيرة، أو بيتًا، أو نحو ذلك. ثم أراد أن يتشبه بها ثالثًا فى تفكيره فى واجب الوجود، والتقليل من علاقته بالمحسوسات وأن يدور على نفسه أحيانًا بقوة وعمق، فيغيب عن نفسه ويتصل بواجب الوجود.

واستغرق فى حالته هذه فرأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واطلع من ذلك على مجالات كأعظم رجال الصوفية. فلما وصل إلى هذه الدرجة عاد فنظر إلى نفسه والى العالم حوله على ضوء ما رأى بقلبه، فرأى أن لا ذات له تغاير ذات واجب الوجود. وأن العالم حوله ليس إلا الحق سبحانه وتعالى، وإن العالم من الله بمنزلة الأجسام الكثيفة يقع عليها نور الشمس فيظهر فيها، وأنه إن نسب إلى الجسم شىء أو فعل فهو فى الحقيقة ليس إلا نور الشمس، على نحو ما شرحته فلسفة "أفلاطون" من وحدة الوجود، وإن ليس فى العالم إلا الله.

ويحكى أنه كان بالقرب من الجزيرة التى يسكنها حى بن يقظان جزيرة أخرى كانت قد وصلت لها تعاليم النبوة على حقيقتها، وكان من بين سكانها رجلان فاضلان متبعين شريعة النبى، غير أنهما كانا مختلفى المنهج، فأبسال كان أكثر غوصًا على الباطن، وأكثر عثورًا على المعانى الروحية، وأميل إلى التأويل، وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر، وأبعد عن التأويل، وإن كان كلٌ يلتزم شريعة واحدة.

أراد أبسال أن يكثر التأمل حتى يقف على الحقيقة فحببت إليه العزلة، فرحل أبسال إلى جزيرة حى بن يقظان، فجمع ما كان له من مال، واشترى ببعضه مركبًا يحمله إلى تلك الجزيرة وفرق باقيه على المساكين.

ونزل أبسال إلى تلك الجزيرة يعبد الله، ويعظمه ويقدسه، ويفكر فيه وإذا جاع أكل من ثمار تلك الجزيرة وخيرها. أقام على تلك الحال مدة وكذلك كان حى بن يقظان مستغرقًا فى مشاهداته، يتحنث فى غار هناك الأيام ذوات العدد، لا يخرج إلا نادرًا، وصادف أن خرج حى بن يقظان يلتمس غداءه فالتقى بأبسال فظن أبسال أنه من العباد المنقطعين واعتزل الناس كما اعتزلهم هو، فخشى أن يكلمه حتى لا يقطع تأملاته.

وأما حى بن يقظان فلم يدر ما هو أبسال، لأنه لم يقع بصره على إنسان من قبل ورآه أشبه به. وولى أبسال هاربًا، فجرى حى بن يقظان على أثره حتى لحقه، وتقرب منه شيئًا فشيئًا، وتشوق أن يعلم ما شأنه، وجزع منه أبسال لما رأى عليه من جلود الحيوانات حتى ظن أنه حيوان متوحش، فطمأنه حى، وكان أبسال قد تعلم كثيرًا من اللغات، فكلمه بها فلم يفهم فأخذ أبسال يعلم حى بن يقظان الكلام وبطريقة لطيفة. وهى أن يعلمه الألفاظ بالإشارة إلى أعيان الموجودات والنطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه حتى علمه الأسماء كلها "كما هى أحدث طريقة فى تعليم اللغات اليوم " ودربه قليلاً حتى تكلم فى أقرب مدة. وجعل أبسال يسأله عن شأنه وكيف صار إلى هذه الجزيرة، فأعلمه حى أنه لا يدرى لنفسه ابتداء ولا أبـاً ولا أماً، أكثر من الظبية التى ربته. فوصف له حالته كلها وكيف ترقى فى المعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول إلى الله. فلما سمع أبسال ذلك تطابق عنده المعقول والمنقول، إذ رأى ما وصل إليه حى بعقله، وما جاء به إليه الأنبياء متفقين.

فعظم حى بن يقظان والتزم خدمته. ثم جعل حى بن يقظان يستفحصه عن شأنه، ويسأله عن حاله، ويفسر له أبسال الفرائض والصلاة والصوم والزكاة والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة فكان حى يتعجب، لم ضرب الرسول المثال للناس، وحملهم على ظواهر الأعمال، ولم اقتصر على هذه الفرائض، ولم أباح اقتناء الأموال والتوسع

فى المأكل ولما لم يلزمهم بالتقليل منها حتى يفرغوا لعبادة الله. وأصعب ما كان يعرض عليه أمر الزكاة، فلم يكن معنى عنده لإباحة نبى الادخار للأموال ووضع ما يلزمها من أحكام لأن المال باطل، يكفى منه اقتناء ما يلزم سد الحاجة فقط ولا حاجة للإكثار منه ولا لقطع الأيدى على سرقة، إلى أشياء أخرى أعترض عليها فى تعاليم النبى، ورأى أن يرحل مع أبسال إلى جزيرته حتى يهدى الناس إلى أكثر مما هداهم النبى. فضلت السفينة مسلكها، ودفعتها الريح إلى مكان بعيد.

ثم جاءت ريح رخاء حملت السفينة إلى الجزيرة المقصودة، وكان أمير تلك الجزيرة سلامان، يرى ملازمة الجماعة، ويقول بتحريم العزلة فرحبوا بحى بن يقظان بعد أن عرفهم أبسال بمكانته. فلما أخذ حى بن يقظان يفضى إليهم بنظراته فى المال ونحوه احتقروه ولم يسمعوا له قولاً. وألح فى قوله فنفروا منه، وعلم من اختلاطه بطبقات الناس أن فطرتهم فاسدة، وأنهم لا يصلحون إلا للتعاليم التى أتى بها الأنبياء، وأن الأنبياء أعرف منه بالنفس البشرية فانصرف حى إلى سلامان. واعتذر عما تكلم به وأعلمه انه قد رأى قومه ووافقهم على ما يقولون. وأيقن أن تعاليمه إنما تصلح لقوم أرقى من هذه الطبقة. وصحب أبسال وعادا إلى جزيرته. وكان أبسال يتخذ حيًا إمامًا له ثم عبد الله بتلك الجزيرة إلى أن أتاهما الموت. وبذلك انتهت القصة.



ورغم أننا أشرنا فى البداية أن القصة فى مجملها قصة بسيطة وسبق تداولها فى القصص اليونانى القديم.. إلا أن ابن طفيل استطاع أن يستخدم تلك القصة البسيطة فى تقديم محاور فلسفته وأفكاره فى تطور العقل الإنسانى.. فالقصة بشكلها اليونانى لم تخرج عن قالب وشكل الأساطير اليونانية القديمة، الملهاة أو المأساة فاهتمت بالجانب القصصى والحدوتة والشخصيات أكثر من اهتمامها بالفكرة وراء الحدوتة، بينما اهتم ابن طفيل بطرح أفكاره من خلال القصة، وهو بهذه الطريقة اضفى عليها نوع من التشويق المحبب وأثار رغبة القارئ فى معرفة النهاية وتطلعه لمعرفة كيف توصل حى بن يقظان إلى ما توصل إليه، بل أن الجانب القصصى فى الحدوتة جعل القارئ وكأنه

مشاركاً مع بطل القصة فى حل المشكلات والصعاب التى واجهته، وفى تطور فكره وعقله ليستوعب المتغيرات من حوله، وفى قدرته على استشراف الحقيقة، وسعيه الدائم للوصول إلى الحقيقة الأعلى..

وقصة سلامان وأبسال فى نسختها اليونانية(*) اهتمت بقصة الحب التى نشأت بين زوجة وأخو زوجها (وهى هنا لم تخرج عن المثلث التقليدى التى مازالت تبنى عليه معظم القصص والروايات حتى الآن، وهو مثلث الزوجة والزوج والعشيق أو مثلث الزوجة والزوج والعشيقة..!!) ، وقد دفعها هذا العشق لأخى زوجها إلى محاولة تزويجه من أختها ليكون زوجًا لهما هما الاثنتان..! وقد قادتها النفس الأمارة بالشهوة والغضب وعشقها لأبسال إلى محاولة دس السم لأبسال بعدما رفض هو هذا الحب من جانب زوجة أخيه وابتعد عنها.. وقد انتهت القصة بأن سلامان غرف ما جرى من زوجته فقرر أن يفعل بالمرأة ومن ساندها ما فعلوا بأخيه..!

ورغم أن القصة تحتوى على بعض الرموز الفلسفية من تناقض بين الشهوة ممثلة فى امرأة سلامان والعقل ممثلاً فى أبسال، وبين محاولة الشهوة السيطرة على العقل، وسمو هذا العقل على قوة الشهوة متمثلاً فى ابتعاد أبسال عنها.. كما أن إهلاك سلامان لامرأته ومن ساعدها فى آخر الأمر قد يرمز إلى غلبة النفس السوية على قوى الشهوة من حولها..

(*) خلاصة القصة اليونانية أن سلامان وأبسال كانا أخوين. وكان أبسال أصغرهما سناً، وقد تربى فى حجر أخيه، فنشأ جميل الصورة، عاقلاً، متأدباً عالماً عفيفاً شجاعاً، فعشقته امرأة سلامان. ولما اختلت به أظهرت له عشقها، فانقبض أبسال من ذلك. ولما رأت زوجة سلامان ذلك قالت لزوجها، زوج أخاك بأختي، ثم قالت لأختها، أني ما زوجتك بأبسال ليكون لك زوجاً وحدك، بل لاشاركك فيه، وقد عرف أبسال بذلك فطلب من أخيه أن يجنده، فولاه قيادة جيشه، وحارب حتى فتح كثيراً من البلاد، ثم رجع إلى وطنه وهو يحسب أن امرأة أخيه نسيته، ولكنها عاودت حبها له، فتوجه للحرب ثانياً، ولكن امرأة سلامان لما يئست من حبها أوعزت إلى رؤساء الجيش أن يخذلوه ففعلوا، وظفر به الأعداء، وتركوه طريحاً، فعطفت عليه مرضعة من حيوانات الوحش" وقد اقتبس هذه الفكرة ابن طفيل فى حى بن يقظان" إلى أن انتعش وعوفي، ورجع إلى سلامان فعطف عليه، ثم اتفقت زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فدسا السم حتى مات.فاغتم سلامان لذلك واعتزل الملك، وأخذ فى عبادة ربه، فأطلعه الله على حقيقة الأمر ففعل بالمرأة والطابخ والطاعم ما فعلوا بأخيه..

أما قصة ذى القرنين وحكاية الصنم والملك وابنته، والتى قد تكون جزءاً آخر من قصة حى بن يقظان، فهى تحكى كيف وصل الإسكندر إلى جزيرة تسمى أرين فوجد بها صنمًا عظيمًا عليه كتابة، فأمر أحد العلماء فترجمها له، فإذا بها قصة حياة صاحب الصنم، وهي تشبه قصة حى بن يقظان من نواحٍ كثيرة، فقد كان أيضًا ابن ابنة ملك وألقت به فى اليم فحملته الأمواج إلى جزيرة نائية غير معمورة، فتبنته غزالة، ونما فى رعايتها وجعل يتفكر ويتدبر (دون أن يصل إلى الحكمة والتصوف)، ثم يقبل إلى هذه الجزيرة رجل يعلم ذلك المتوحد بنفسه المعارف (التى وصل إليها حى بن يقظان من نفسه) وهذا الرجل ما هو إلا أبوه - ابن الوزير الذى تعلقت به أمه وحملت منه - وقد غضب عليه الملك وأمر به فوضع فى مركب حمله إلى هذه الجزيرة ثم يمر بالجزيرة مركب يأخذ الابن والأب - اللذين لا يعرف أحد منهم شيئا عن علاقته بالآخر - إلى الجزيرة المعمورة.. هذا جزء من القصة الذى يتفق مع قصة حى بن يقظان، أما بقيتها فمختلفة تماما..

ولا يعنينا فى هذا المجال تقصى الفروق الأدبية بين القصتين، ولا المصادر التى لجأ إليها ابن طفيل فى بناء قصته، ولا حجم الابتكار فى قصته، وإنما يعنينا فى المقام الأول هو عرض أفكاره عن تطور العقل الإنسانى، وكيفية عرضه للمذهب العقلى والكشفى معا، وتوصله إلى أن الإنسان بملكتيه هاتين يستطيع أن يرتقى بنفسه من المحسوس إلى المعقول ومن المعقول إلى الإيمان بفكرة ضرورة ووجوب وجود خالق أعلى خلق كل المحسوسات والمعقولات أسماه فى قصته واجب الوجود..!

وقد بدأ روايته بان هذا الإنسان العارى من الشعر والأوبار، عديم السلاح ضعيف القوة وقليل البطش ، استطاع أن يغلب الوحوش بقدرة عقله ، وان يصل إلى قيمة الغذاء وطرق الحصول عليه وإنضاجه وتخزينه ، وإن يكتشف النار وفوائدها ، ويعرف تركيب الجسم البشرى وخصائص أعضائه والفروق بينه وبين الجسم الحيوانى ، وتطورت قدرته على استعمال العقل الذى حباه به الله ليدرك فى النهاية أنه يوجد فى كل مخلوق من جماد ونبات وحيوان شيئًا روحيًا غير الجسم يحركه ويتحكم به فأدرك بذلك معنى الروحانية..!.

وقد عرف أهمية وجود أدوات له تساعده فى حياته، فبدأ بتغطية جسده بجلود الطيور والحيوانات ليحمى نفسه برد الشتاء وقيظ الصيف، ووجد بعض الوحوش أقوى منه فلجأ إلى صناعة بعض الأدوات ليستخدمها فى الدفاع عن نفسه في مواجهة تلك الوحوش أو في الصيد فيما بعد لتوفير الغذاء.. وفكرة احتفاظه بأدواته وتطويرها لتناسب الاستخدامات الجديدة التى ظهرت له يومًا بعد يوم ، هى التى جعلته يطور ويحسن من طريقته فى مواجهة تلك المشكلات.! والفرق بين الإنسان والحيوان يكمن فى تلك القدرة على التعلم، فالتعلم يعنى اكتساب خبرة ما بناء على الممارسة، وهو يعنى إضافة لتلك الخبرات فى كل مرة نقوم فيها بنفس العمل! فالقرد مثلاً قد يلتقط حجرًا من الأرض أو فرعًا من شجرة للدفاع عن نفسه، ولكنه يتركه فى مكانه بعد زوال الخطر.. أما الإنسان فيظل يستخدم هذه الأدوات مرة بعد مرة وقد يغير فى شكلها وطرق استخدامها لتلائم الظروف المختلفة التى قد تواجهه..!.

وحى بن يقظان عندما أقدم على تشريح أمه الظبية، كان ذلك لمحاولة معرفة سبب الوفاة، وهو فى سعيه لتلك المعرفة وضع أساسيات المنهج العلمى الحديث فى التفكير.. والذى يعتمد على دقة الملاحظة، ووضع الفرض بناء على المعلومات التى توافرت من الملاحظة، ثم اختبار صحة الفرض أو خطأه بالتجربة. فقد بدأ بتفقد أجزاء الجسم المختلفة من العين والأذن إلى الفم والأنف فوجدها سليمة، وفحص الأطراف عضوًا عضوًا، ولما تبين له أنها مصمتة، ففكر أن ما يتحكم فى ذلك الجسم لا بد أن يكون فى مركز هذا الجسم، أى أن يكون فى التجويف الصدرى..! وهو بذلك يكون قد وضع اللبنة الأولى فى بناء البحث العلمى بوضع الفرض الجدلى Null Hypothesis وهو الفرض الذى يضعه الباحث أمامه بناء على الفحص والمتابعة والملاحظة والمعلومات الأولية التى توافرت له، وسمى بالجدلى لأنه يحتمل أن يكون صحيحاً أو خاطئاً وهو ما يحاول الباحث أن يصل إلى صحته أو خطأه عن طريق التجربة، ليستطيع بعد ذلك أن يربط النتائج بالمقدمات التى أدت إلى هذه النتائج..

و(الفرض الجدلى) الذى وضعه حى بن يقظان، أن جميع أعضاء الحيوانات مصمتة لا تجويف فيها إلا القحف والصدر والبطن.. فوقع فى نفسه أن العضو القادر على

التحكم فى ذلك الجسم لن يعدو أحد هذه المواضع الثلاثة إذ كان قد استقر فى نفسه أن جميع الأعضاء محتاجة إليه وأن الواجب بحسب ذلك أن يكون مسكنه فى الوسط. وكان أيضاً إذا رجع إلى ذاته شعر بمثل هذا العضو فى صدره يخفق على حسب المواقف التى يتعرض لها فمرة يخفق سريعا عندما يركض وراء أحد الحيوانات، ومرة أخرى يخفق بهدوء عندما يكون نائماً أو جالساً، ولاحظ أيضاً دفاع الحيوانات المختلفة عن تلك المنطقة بالذات أثناء محاربتهم (الملاحظة)!!..

فلما جزم بالحكم بأن العضو الذى نزلت به الآفة إنما هو فى صدرها أجمع على البحث عليه والتنقير عنه لعله يظفر به ويرى آفته فيزيلها (التجريب).

فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه فاتخذ حى نفس الخطوات التى يأخذ بها الآن جراح القلب والصدر فى عمليات القلب المفتوح من ضرورة شق القفص الصدرى عند خط المنتصف، ووصل إلى الحجاب المستبطن للأضلاع فرآه قوياً فقوى ظنه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكون إلا لمثل ذلك العضو، وواصل تفتيشه لمنطقة الصدر حتى وصل إلى عضو مجلل بغشاء فى غاية القوة مربوط بمعاليق فى غاية الوثاقة، فعرف أنه العضو المطلوب وهو "القلب".

وفحص القلب، فتبين له أن فيه تجويفاً، فقال " لعل مطلبى الأقصى إنما هو فى داخل هذا العضو وأنا حتى الآن لم أصل إليه" فشق القلب فوجد فيه تجويفين اثنين أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى، والذى من الجهة اليمنى مملوء بدم منعقد والذى من الجهة اليسرى خال لا شىء فيه.. ووصل إلى أن كونه خالياً من الدم يعنى أن هذا الدم لن يعود إليه مرة ثانية.. أدرك أنه لابد وأن يكون هناك شيئاً ما يتحكم فى خروج الحياة من القلب بهذه الطريقة، ولم يدرك ما هو هذا الشىء؟ وكيف هو؟ وما الذى ربطه بهذا الجسد؟ وإلى أين صار؟ ومن أى الأبواب خرج عند خروجه من الجسد؟ وما السبب الذى أزعجه إن كان خرج كارهاً؟ وما السبب الذى كره إليه الجسد حتى فارقه إن كان خرج مختاراً؟

وتعود الجذور الأولى لنشأة هذا المنهج العلمى فى التفكير إلى عصور الفراعنة فقد أثبت الطبيب المصرى القديم " أمحتب" فى مؤلفه الشهير عن الجراحة الذى وضعه فى عام ٢٦٠٠ ق م، الأدوات المستخدمة فى الجراحات المختلفة كذلك وصف لعمليات جراحية كثيرة وقد حقق هذه البردية الشهيرة العالم إدوين سميث، وأشار إلى أنها قد تعود إلى ٣٠٠٠ عام ق م.

ويعكس هذا المرجع الجراحى الهام المكونات الأساسية للمنهج العلمى ويشتمل على الفحص والتشخيص والعلاج ونتائج العلاجات المختلفة.

وفى اليونان القديمة وفى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تم إرساء بعض عناصر المنهج العلمى حينما وضع بلاتو Plato طرق تدريس الحساب والفلك والهندسة فى المدارس.. ومعظم الأفكار الفلسفية التى ظهرت فى هذا الزمان تم استنباطها من حدود الظواهر الطبيعية اليومية واعتمادًا على الفطرة السليمة، كما أن أرسطو بدأ وضع مبادئ هذا التفكير العلمى التجريبى Empiricism وركز على جوهر الأشياء Essence, وبدأ أيضًا منهجه فى تتبع الجزيئات للتوصل منها إلى حكم كلى وهو ما يعرف بالاستقراء Induction أى إمعان النظر فى طبيعة الأشياء وتكوينها والظواهر المحيطة بها للوصول إلى طبيعتها، وليس التجريب..

على أن المنهج العلمى بصورته الحديثة لقى تطورًا عظيمًا على يد الفلسفة الإسلامية، وعلى الأخص فى استخدام التجريب للتفرقة بين النظريات العلمية المختلفة، وظهرت فى البداية فى الطريقة العلمية التى اتبعت فى تقصى صحة أقوال وأفعال السابقين وهو ما يعرف بعلم "الإسناد"، ومراجعة وفحص وتمحيص النصوص المختلفة بطريقة متفتحة تفرق بين المدسوس والمنقول والمتواتر وغيرها وهو ما أدى إلى تكوين فكرة "الإجماع " عن طريق "الاجتهاد" وكان الاعتقاد العام السائد فى أوساط الفلاسفة الإسلاميين بأن المعرفة تستطيع أن تفسر الطبيعة بأمانة.. وفى العصور الوسطى تطورت الفلسفة الإسلامية أكثر وكانت محوراً ومرجعاً أساسياً فى أى اختلاف ظهر فى الآراء العلمية، وكانت الرموز الفكرية من العلماء والفلاسفة الإسلاميين هى التى تصدت لتلك المشكلات الفكرية وحلها.

وقد استخدم العالم الإسلامى البارز "الحسن ابن الهيثم" (٩٥٦ ـ ١٠٣٨ م)، الذى عرفته أوربا باسم "الهاذن"، ـ وهو تحريف لكلمة الحسن ويعد من علماء المقدمة فى الطبيعة النظرية فى جميع العصور والأحقاب ـ المنهج العلمى للحصول على نتائج مبهرة فى كتابه "البصريات" أو "علم المناظر"، وقد أجرى تجارب علمية مستخدماً المنهج العلمى بطريقة سليمة ليظهر أن نظرية "دخول الإشعاع " Intromission للعين كمصدر للرؤية التى ساندها أرسطو كانت صحيحة من الناحية العلمية، بينما نظرية " الابتعاث" Emission أى خروج الإشعاع من العين كسبب للرؤية والتى ساندها بطليموس وإقليدس كانت خاطئة..!.

وقد لخص ابن الهيثم منهجه العلمى فى التفكير فى مقدمة كتابه "المناظر" أن غرضه فى جميع ما يستقريه ويتصفحه استعمال العقل لا اتباع الهوى، وأنه يتحرى فى سائر ما يميزه وينتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، حتى يظفر بالحقيقة ويصل إلى اليقين.

وقد بنى روجر بيكون فى القرن الثالث عشر أراءه فى المنهج العلمى على دراسته لأعمال "ابن الهيثم" وأخذه بالاستقراء، واعتماده على المشاهدة والاعتبار وبما طبق من تجارب، وأوجد من أجهزة، كما تأثر بيكون أيضا بغيره من الفلاسفة الإسلاميين فى وضع نظرية "الاستقراء". وجاء بعده فرانسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٣٩) الذى وضع فى كتابه "الأداة الجديدة " Novum Organum فى عام ١٦٢٠ م أساسيات المنهج العلمى كما عرف فى العصر الحديث، وقد أخذ بيكون مبادئه عن ابن طفيل الذى سبقه بحوالى أربعة قرون والتى وضعها فى قصته عن حى بن يقظان والتى أشار فيها ابن طفيل فى وصفه المبدع لاستنباط روح الملاحظة ونمو الإدراك الفطرى عند حى..!.

وقد حاول بيكون فى كتابه إرساء علاقة سببية لأى ظاهرة طبيعية فى حياتنا عن طريق دائرة ثلاثية متكررة من الملاحظة والفرض والتجريب، وقد شدد بيكون على أن النظريات العلمية يجب أن تبقى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحقائق قدر الإمكان، وفى تشبيه أدبى جميل أوضح بيكون انه من الأفضل للمعرفة ألا تزود بأجنحة حتى لا تتعرض للسقوط، وأن تزود بدلاً منها بثقل يحفظها من التأرجح ويمنعها من الطيران..!

وقد وضع رينيه ديكارت فى كتابه الذى نشره فى عام ١٦٣٧ م «قواعد توجيه العقل Rules for the direction of the mind» أول معالجة عن الطريقة الصحيحة للتفكير العلمى والفلسفى، وفى كتابه "انحراف المنهج Discourse of the Method» الذى وضعه بعده بعدة سنوات، أرسى ديكارت الإطار للمنهج العلمى والذى حدد فيه أربعة مبادئ تميز المنهج العلمى وهى:

أولاً: هى ألا تقبل أبداً أى شىء كحقيقة إلا عندما تتأكد أنه كذلك فعلاً (وهو ما يعنى تجنب الحكم المسبق، وعدم احتواء أى شىء فى حكمى أكثر مما هو مقدم لعقلى بطريقة محددة وواضحة تلغى تماماً الشك فى المنهج المتبع).

ثانياً: تقسيم كل من المشاكل والصعوبات محل الفحص لأجزاء عديدة، وضرورة تقديم الحل المناسب لكل جزئية على حدا.

ثالثاً: توجيه الأفكار بترتيب معين يسمح بأن نبدأ بالأشياء الأيسر والأبسط على الفهم.. ويمكن بعد ذلك التدرج قليلاً قليلاً وخطوة خطوة فى معرفة ما هو أعقد ، والالتزام بهذا الترتيب فى التفكير فى كل المشاكل التى تواجهنا سواء كانت فى طبيعتها بسيطة أو معقدة ، بها نظام وتتابع أو لا تلتزم بنظام معين.

رابعاً: وفى كل الحالات لكى نصل إلى وصف مكتمل الجوانب لجميع مناحى المشكلة محل الفحص، يجب أن نتأكد من عدم حذف أية تفصيلات.

ولم تختلف تلك القواعد كثيراً عن تلك القواعد التى وضعها اسحاق نيوتن (١٦٤٣ ـ ١٧٢٧) فى كتابه «المبادئ Principia»، وأضاف عليها أن تعليل التأثيرات الطبيعية يجب أن يكون على قدر الإمكان بنفس الأسباب، وأن فى علم التجريب يجب أن ننظر إلى الفرض الذى تم الوصول إليه، كنتيجة للمعلومات العامة الناتجة عن الظاهرة محل الدراسة. وقد أكد نيوتن فى كتابه «نظرية كل الأشياء Theory of Everything» على فكرة تقسيم المشكلة إلى أقسام صغيرة حتى يسهل حلها، وأشار إلى أنه من الصعوبة بمكان على إنسان واحد فى عصر واحد أن يشرح كل الظواهر الطبيعية من حوله،

والأفضل أن نقوم بعمل أشياء صغيرة فى كل مرة على أن نكون متأكدين من النتائج التى توصلنا إليها، ونترك بقية الأشياء لمن يجيء من بعدنا ليكملها، وبذلك نستطيع أن نفهم كل الأشياء..

وجميع تلك الافكار التى تعنى بوضع أسلوب للتفكير العلمى السليم، وأساسيات علوم الاستقراء والتجريب، اهتم ابن طفيل بوضعها وتطبيقها على تطور عقل الإنسان البسيط فى رسالته عن حى بن يقظان، الذى لم يعرف له أب أو أم، ولم يعلمه إنسان أى شىء، ولم يقرأ كتابًا فى حياته، أو ذهب للمدرسة، أو لدار عبادة، والمدهش فى الموضوع أنه رغم أنه علم نفسه بنفسه، استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه البشر الآخرين الذين تعلموا ودرسوا وتلقوا علوم الدين، بل أنه فاق هؤلاء البشر عندما استطاع بفطرته السليمة ودقة ملاحظته وتطور عقله على مدار القصة، الوصول إلى حتمية وجود خالق واحد أسماه واجب الوجود، وإن كل حادث لابد له من محدث، وارتقى بنفسه من المحسوس إلى المعقول ثم إلى الله بحيث يستطيع بعقله أن يصل إلى معرفة العالم ومعرفة الله، وعندما تعرف بأبسال وعرض عليه ما وصل إليه من تعاليم نبيه، وعرض حى عليه ما وصل من تعاليم عقله وجدا أنهما متفقان فى الأصول، وإن اختلفا فى الفروع مشيراً إلى أن تعاليم العقل متفقة مع تعاليم الشرع، غير أن الدين يوجب تفاصيل لا يصل إليها العقل، كالصلاة والصوم والزكاة والحج، ويبيح أموراً قد لا يرضى عنها العقل كادخار الأموال وإباحة ما تقتضيه بعض الشهوات، وعندما وصل حى بن يقظان إلى الجزيرة المعمورة، ووجد الناس يتكالبون على الحياة، ففطن إلى أن الدين يجب أن يراعى الجمهور لا الخاصة وحدهم، وأنه لجميع البشر بضعفهم وقوتهم، ولذلك لما ظن حى أنه يستطيع أن يعلم الناس أكثر مما علمهم الدين فشل فى ذلك كل الفشل، واضطر إلى الانسحاب من جزيرة أبسال إلى جزيرته الأصلية..!

ولعل القصة واختيار اسم حى بن يقظان نفسه يحمل كثيرًا من المعانى فحى تعنى أنه إنسان يفيض بالحياة والحيوية ويقظان تعنى أنه متيقظ وواع لما يجرى من حوله.

ولو رجعنا إلى رسالة حى بن يقظان لابن طفيل لوجدنا أن قوة الملاحظة والفطرة السليمة وتطبيقه للمنهج العلمى السليم، قادته إلى اكتشاف نظريات علمية حديثة، قبل أن يتم اكتشافها فى الأزمنة الحديثة بعدة قرون، فقد وصل إلى نظرية الجاذبية الأرضية وقوانين الحركة قبل نيوتن بستمائة عام، عندما تأمل جميع الأجسام حيها وجمادها، فرأى أن كل واحدًا منها لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يتحرك إلى جهة العلو مثل الدخان واللهيب والهواء إذا حصل تحت الماء، وإما أن يتحرك إلى الجهة المضادة لتلك الجهة وهى جهة السفل مثل الماء وأجزاء الأرض وأجزاء الحيوان والنبات، وأن كل جسم لا يسكن إلا إذا منعه مانع يعوقه عن طريقه مثل الحجر النازل يصادف وجه الأرض صلباً فلا يمكنه أن يخرقه، وأنه دائماً يميل إلى الأسفل طالباً النزول.

وكذلك الدخان فى صعوده لا ينثنى إلا أن صادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ ينعطف يميناً وشمالاً ثم إذا خلص من تلك القبة خرق الهواء صاعدًا لأن الهواء لا يمكنه أن يحبسه (نظرية صعود الهواء الساخن إلى أعلى).

وكان يرى الهواء إذا ملئ به جلد وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولا يزال يفعل ذلك حتى يوافى موضع الهواء وذلك من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل إلى جهة العلو الذى كان يوجد منه قبل ذلك (وهى نظرية الطفو المعروفة).

وتوصل إلى ماهية الكتلة ومن ضرورة وجود الأقطار الثلاثة من طول وعرض وعمق لأى كتلة كما توصل إلى نظرية هامة جداً فى الفيزياء الحديثة وهى نظرية عدم فناء المادة وإنما قدرتها على تغيير صورها، فقد توصل إلى أن المادة لا تفنى ولا تبلى ولكنها تتحول إلى صور مختلفة مثل أن يتحول الماء إلى بخار فى حالة غليانه أو البخار إلى ماء فى حالة تكثيفه، أو المادة الصلبة إلى سائلة مثلما يحدث فى صهر المعادن، وقد اتفق مثله مثل غالبية فلاسفة عصره على أن المكونات الأربعة هى التراب والماء والنار والهواء.

وتوصل حى بن يقظان بقدرته على الملاحظة الدقيقة من صعود الشمس ونزولها إلى حتمية كروية الأرض، قبل أن يؤكدها جاليلو جاليلى (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م)، أى بأربعمائة عام ونيف، والتى لاقى بسببها جاليلى الآمرين من الكنيسة التى رفضت فرضياته واتهمته بالهرطقة فى أشهر مواجهة بين الكنيسة والمنهج العلمى الحديث فى التفكير..!.

وكما أوضحنا سابقاً لا تكمن قيمة رسالة حى بن يقظان لابن طفيل فى معناها القصصى فقط، بل تتعدى ذلك إلى قيمة تلك الرسالة فى إرساء دعائم تطور الفكر الإنسانى، كما أنها ترسى مبدءاً هاماً فى التفاعل بين الحضارات وانتقال المعرفة بين الحضارات المختلفة عبر الأزمنة المختلفة، وتؤكد على فكرة أن المعرفة لا حدود لها ولا تعترف بمكان أو تقتصر على جنس معين، وأن التراث الإنسانى كله ملك الإنسانية جمعاء، فنجد انتقالاً قد حدث بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية، ومنها إلى الفارسية والرومانية ثم عادت المعرفة للظهور مرة ثانية بعد ذلك فى المنطقة التى احتوت الحضارة الإسلامية من الصين شرقاً إلى المغرب غرباً، وتفرعت بعد ذلك إلى عدة حضارات منها حضارة إسلامية أندلسية فى أسبانيا، ومنها انتقلت إلى أوربا فى العصور الوسطى. فقد بين الكاتب الأسبانى بلاسكو إبيانز فى كتابه «فى ظل الكاتدرائية» بوضوح أن نهضة أسبانيا لم تأت من الشمال حيث يقطن البرابرة، ولكن من الوسط مع العرب الفاتحين، كما كتب عن الحضارة العربية يقول:«بمجرد أن ولدت الحضارة العربية، عرفت كيف تتمثل أفضل ما فى اليهودية والعلوم البيزنطية، لقد حملت التقاليد الهندوسية العظمى، والبرهان الفارسى، واستعارت الكثير من الصين الغامضة، وهذا هو الشرق الذى أثر تأثيراً عميقاً فى أوربا. لقد وصل دارا وكسرى إلى أوربا لا عن طريق اليونان التى لفظتهما لتحافظ على حريتها، وإنما عن طريق أسبانيا التى كانت مستعبدة من قبل ملوكها اللاهوتيين، وقساوستها الشغوفين بالحرب، والتى استقبلت بذراعين مفتوحين فاتحيها من العرب» (كيف نصنع المستقبل ـ رجاء جارودى ـ ٢٠٠٢).

فالثابت من رسالة حى بن يقظان التى ألفها الشيخ الرئيس ابن سينا، الذى ولد فى تركستان (بين تركيا وإيران) وعاش فى بخارى، أنه بناها على قصة يونانية قديمة، وأنه

استفاد من التيمة الأساسية فيها ليضع قصته فى صورة فلسفية عميقة وغامضة، ثم جاء ابن طفيل الذى عاش فى الأندلس واستوحى قصته من قصة حى التى وضعها ابن سينا إلا أنه غير سياق القصة تماما ليضع فيها أسس نظريته فى نمو العقل وتطوره..!

وعند ابن طفيل أن المعرفة تنقسم إلى قسمين: معرفة حدسية ومعرفة نظرية. أو بعبارة أخرى: معرفة مبنية على الكشف والإلهام كالتى عند الصوفية ومعرفة مبنية على المنطق كالتى عند العلماء. أما الأولى فيمكن الوصول إليها برياضة النفس فتنكشف لها الحقائق كأنها نور واضح يومض إليه حيناً ثم يخبو حيناً وكلما أمعن الإنسان فى الرياضة تجلت له المعارف. وأما النوع الثانى من المعرفة فهو مؤسس على الحواس والمعرفة بالحواس تتآلف وتتركب وتستنتج منها نتائج علمية هى أيضًا نوع من المعرفة التى يسميها المعرفة النظرية.

وقصة حى بن يقظان كما رواها ابن طفيل هى الأساس التى بنيت على واحدة من أشهر القصص فى العصر الحديث وهى قصة " الحياة والمغامرات المدهشة لروبنسون كروزو" التى وضعها دانيال ديفو Defoe فى عام ١٧١٩، أى بعد ابن طفيل بسبعمائة عام، وهى عن شخص عاش فى جزيرة نائية لمدة ثمان وعشرين عاماً بعد غرق سفينته، وتغلب على الصعاب التى قابلته بذكائه وخبرته، وقد استمد ديفو معلوماته من كتاب وليم دامبير (١٦٥٢ ـ ١٧١٥) " رحلة جديدة حول العالم".

ورغم الشهرة الواسعة التى حققتها قصة روبنسون كروزو (أكثر من ٧٠٠ معالجة مختلفة وترجمت إلى أكثر من ١٢ لغة وكانت على رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعًا لسنوات كثيرة)، فلم يذكر مؤرخى الأدب الحديث أبداً أنه اقتبسها من قصة حى بن يقظان التى أشرنا سابقاً إلى ترجمتها إلى كل اللغات المعروفة آنذاك، وذلك رغم التشابه الكبير ـ الذى يصل إلى حد النقل المباشر ـ بين حى وكروزو، من حيث ما وضعه كل من ابن طفيل وديفو فى قصتيهما من أحداث وأفكار أدت إلى التدرج فى الوصول إلى الله عن طريق العقل والتأمل والتفكير العميق فيما حولهما، إلا أن هذا التأثير من ابن طفيل إلى ديفو لم يشر إليه من قريب أو بعيد..!. ولم تسلم قصة روبنسون كروزو

أيضاً فى أول ظهورها من معارضة الكنيسة الإنجيلية لما ورد بها من فكرة التدرج فى إعمال العقل للوصول إلى وجوب وجود الله، وعارضتها الكنيسة إلى الحد الذى أوشكت فيه أيضاً على اتهام ديفو بالهرطقة والكفر..!

وامتد تأثير تلك القصة إلى العصر الحديث، حتى أن جان جاك روسو Rousseau قد اعتمد فى كتابه "أيملى والتعليم" عليها كثيرًا ، كما استوحاها كوتيزى Coetzee الكاتب الحاصل على نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٣ فى قصته "الخصم" التى وضعها فى عام١٩٨٦، وناقش فيها قضايا مختلفة مثل العنصرية والفلسفة والاستعمار.

لقد كانت الروح التى تسود العلوم التى امتاز بها العرب، بدءاً من الفيزياء وحتى علوم الفلك، من البيولوجيا حتى الطب، هى الإيمان بقدرة العقل الإنسانى على الوصول للحقيقة، وإن الحقيقة ملك لمن يسعى إليها، لقد كان حجر الزاوية فى الثقافة الإسلامية فى كل مجالات الدين والفلسفة والعلوم والفنون يتمثل فى فكرة التأكيد على أن الأيمان عمل متواصل ومتجدد، وهو فلسفة للفعل وليس للخمول، هو فلسفة حركة وليس فلسفة سكون، والثابت تاريخياً أن العصور الإسلامية التى شهدت أعلى درجات الاجتهاد والحرية الفكرية وممارسة المنهج العلمى فى التفكير، هى أكثر العصور تقدماً وإشعاعاً على الإنسانية.

إن النظرية الإسلامية للمعرفة والتى تعرضنا لها فى هذا الفصل بناءً على ما تضمنته رسالة حى بن يقظان، تنطلق من الفعل الخلاق، والقدرة على الملاحظة الدقيقة ووضع الفروض واستقراء النتائج بناء على التجريب المقنن، هى النظرية التى ترفض الفرضيات التى لا تتناسب مع العقل، والأسباب التى لا تستند إلى منطق، وهى النظرية التى امتلكت أيضاً بجانب العلم، تلك القدرة الهائلة على ربط العلم بالحكمة والإيمان، وهى الميزة الأساسية التى تميز الثقافة الإسلامية والتى لم تتوفر فى نظرية المعرفة الغربية الحديثة.

وأفكار مثل أن زمن العمالقة قد ولى وأننا غاية ما نستطيعه أن نقف على أكتافهم، أفكار بالية تعيق تقدم العقل وتسجنه فى تابوهات لا قيمة لها..!! فنحن أبناء العصور

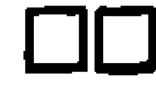
التالية يجب أن نـكمل ما كان ينقص القـدماء، مادمنا منخـرطين فى بحث أعمالهم، وما دمنا غير حمقى، ولنا عقول تعمل فيجب أن تدفعنا أعمالهم إلى ما هو أفضل..!

وأفكـار مثل العلم التجريبى واستقراء النـتائج هى نفس الأفكار التى استعارتها بعد عدة قرون الفلسفة الغربيـة لتنهض وتنطلق، ومازالت تعمل بها حتى الآن، بل وأصبحت سر تقـدمهم وسر تأخـرنا، ولا يوجد ضـرر فى إحياء مـا أرسيناه قـبلاً حتى تتواصل حلقات المعرفة مرة أخرى، ونهيئ العقل الإنسانى للنمو والتطور مثلما حدث فى السابق، ونـعود أمة تـقف بجوار الأمم الأخـرى، وتدلى بدلوهـا فى تقدم المـعرفة، بـعد أن تبدل موقـعها من موقع القائد الـذى يحرك الأحداث ويوجههـا إلى موقع المتفرج الذى يصفق للآخرين فقط ولا يعرف حتى لماذا يصفق على ما يراه من حوله..!.





صناعة المستقبل البديل..!



ـ هل يمكن فعلاً صناعة المستقبل؟

ـ هل المستقبل قابل لإعادة تشكيله؟

ـ هل نملك أدوات صناعة المستقبل؟

ـ هل هناك ضرورة لمحاولة تغيير المستقبل؟

كلها أسئلة تدور فى أذهاننا.. ولكن هل نملك الأجوبة لكل هذه الأسئلة أو بعض منها..! لا شك أنها مهمة صعبة لأن كلنا يعرف أن طرح الأسئلة أسهل من الإجابة عليها..! ولكن على أية حال هذا ما سنحاول الوصول إليه فى السطور القادمة.

وسنبدأ بآخر هذه الأسئلة وليس أولها كما هو معتاد..! وهو هل هناك ضرورة لمحاولة تغيير المستقبل؟ بنظرة إلى العالم من حولنا سنكتشف ببساطة أن هناك خطأ فى المسار، خطأ جسيم لو استمر فى نفس الاتجاه سوف يقودنا إلى حافة الهاوية، إن لم نكن قد وصلنا للحافة فعلاً الآن..! ولا أكون مبالغاً إن قلت أننا حقيقةً قد بدأنا السقوط..!

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه المنطقة الخطرة، إما على حافة الهاوية أو بدأنا السقوط فعلاً، فلم نعد نملك إلا التشبث بكل ما تقع عليه أيدينا من أجل محاولة الصعود مرة أخرى، وازعم أننا لا نملك ترف انتظار السقوط، ولا يمكن أن يكون أحد اختياراتنا، فإما الصعود أو الهلاك..!

فالتغيرات تتسارع من حولنا ، بمعدل يزداد تسارعاً كل يوم ، مثله مثل قطار يغادر المحطة ، يبدأ ببطء ثم يزيد من سرعته تدريجياً ، وعندما يغادر رصيف المحطة تمنع سرعته العالية الذين جاءوا متأخرين من اللحاق به ، والذين جاءوا متأخرين لم يعوا قيمة الوقت ، ولم يفهموا قواعد وقوانين استخدام القطار ، والتى تقضى بضرورة القيام فى الوقت المحدد للوصول فى الوقت المحدد ، يلهثون وراءه ليلحقوا بإحدى عرباته ، قبل أن تزيد سرعته ويبتعد كثيرا ويغادر المحطة ويفوتهم اللحاق به ، ويفاجئون أنهم جاءوا متأخرين لأنهم كانوا نائمين وراحت عليهم نومة، فلا مكان لهم إذن ـ فى عربات القطار الذى غادر قبل وصولهم..!.

هل نملك أدوات صناعة المستقبل؟

الدراسات المستقبلية تعنى بفهم كيف تصبح التغيرات التى نراها اليوم فى حياتنا وننظر إليها بتوجس وريبة ، واقعاً وحقيقة ملموسة فى الغد ، وكما تشمل محاولات تحليل مصادر وطرق وأسباب التغيير تشمل أيضاً فهم أسباب الاستقرار من أجل خلق رؤية مستقبلية ورسم خريطة جديدة للمستقبل البديل. والأشخاص المعنيون بدراسة المستقبل والطرق المستخدمة فى دراسة المستقبل تعنى بدراسة كل ما هو ممكن وما هو محتمل وما هو مرغوب تحقيقه من خلال عملية تحول فى معطيات الحاضر الاجتماعية والطبيعية. وتشمل الدراسات المستقبلية مجالا واسعاً من التساؤلات ، وتمثل ما سيؤول إليه الحاضر من وجهة نظر الرؤى والتوقعات فى المجالات والتخصصات المختلفة.

وتشمل هذه الجهود من أجل التفرقة بين الاختيارات الثلاث كما أوضحنا سلفاً بين:

١ ـ ما هو ممكن و٢ ـ ما هو محتمل و٣ ـ ما هو مفضل ، جهودًا تبذل فى جمع المعلومات الخاصة بالتغيير من أجل المستقبل فى تلك الاختيارات الثلاث ، كما تشمل أيضاً وضع السيناريوهات التى تظهر كل تلك الاحتمالات فى المستقبل. ومثلها مثل الدراسات التاريخية التى تحاول أن تشرح ماذا حدث وكيف حدث فى الماضى ، فإن الدراسات المستقبلية تحاول فهم القوى الواعدة فى التغيرات الحالية ، وتطوير وتغيير النظريات والظروف الحالية.

ولهذا فإن الدراسات المستقبلية يدخل فى نطاقها النماذج النظرية والطرق العملية التى استمدت من تخصصات أخرى مثل علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والهندسة والرياضيات وعلم النفس والتكنولوجيا والطبيعة والعلوم الحيوية وغيرها..

وهناك عاملان يميزان الدراسات المستقبلية عن غيرها من التخصصات رغم أن كل التخصصات تتداخل فى بعضها البعض وهما :

١ ـ توفر دراسة المستقبل رؤية مستقبلية ليس فقط لما هو محتمل بل أيضاً لما هو ممكن ومفضل.

٢ ـ تقوم دراسة المستقبل على الاستفادة من خبرات التخصصات المختلفة.

لقد أصبحت الدراسات الخاصة بالمستقبل علماً قائماً بذاته ، ويدرس فى معظم الجامعات الغربية ، وتطورت تلك الدراسات المستقبلية تطوراً كبيراً فى السنوات الأخيرة، وأصبحت تستخدم السيناريو البديل للمستقبل المحتمل كأداة هامة فى تحديد ما يعتبره الناس محتملاً أو مرغوباً فيه ، وقد نجحت تلك الدراسات فى وضع طرق قياس كمية ونوعية تساعد فى تحديد عدد من الاحتمالات بحيث يمكن للمرء أن يكون قريباً من تشكيل المستقبل أكثر من توقعه ، وهى علم قائم على أسس واضحة وليس نوعاً من الشعوذة أو فتح المندل أو قراءة الطالع. وتشكيل المستقبل البديل يبدأ بوضع عدد من السيناريوهات.. وعملية وضع السيناريو الملائم تمر بعدة مراحل فى التحضير.. وإحدى هذه المراحل تشمل دراسة التوجهات أو النزعات السائدة trends والتوجه السائد قد يمتد ليشمل مراحل بعيدة المدى ، ويتسع ليشمل مراحل عريضة المدى. وتؤثر التوجهات السائدة على جماعات كثيرة فى المجتمع ، وتنمو ببطء ويكون لها تأثير قوى ، بينما فى المقابل فإن البدعة أو الموضة الوقتية fashion تظهر على المدى القصير وتؤثر فى شريحة محدودة من المجتمع ، ورغم انتشارها بسرعة إلا أن تأثيرها يكون سطحياً وضعيفاً.

النزعات الكبرى فى المجتمع Mega Trends

والنزعات التى تحكم المجتمع تأتى فى أحجام مختلفة..فالنزعة الكبرى تمتد عبر أجيال مختلفة ، وهى تعنى بالتفاعلات المتعددة بين عدة عوامل ، ومن أمثلة النزعات الكبرى التى حدثت فى تاريخ الإنسان زيادة السكان والتى بدأت من العصر الحجرى حتى عصرنا الحالى،وظاهرة العولمة، والتوسع فى استخدام الكمبيوتر فى كل شىء، وإنشاء شبكة المعلومات العالمية على الأنترنت.

النزعات الوليدة Trend babies

تنمو النزعات الوليدة الجديدة من رحم الاختراعات والاكتشافات والمشروعات العملاقة والأفكار التى لها فرصة للنمو حتى يتسنى لها الدخول فى التيار السائد فى المستقبل.. ومن الأمثلة على ذلك أن الطب البديل كان منذ عدة سنوات مجرد إحدى البدائل المطروحة على الساحة ، ولكنه الآن قد نجح فى تحقيق قدر من الاحترام والقبول على مستوى كثير من الدوائر، ودخل فى دائرة الأعمال الناجحة.

النزعات المتشعبة Branching Trends

ترتبط دائما أى نزعة جديدة فى المجتمع بنزعة أخرى مثلما يرتبط جذع الشجرة بالأفرع والأغصان.. ومن الأمثلة على تلك النزعة التى لها فروع مكملة لها الحركة المعروفة نحو تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة والتى تشعب منها نزعة تقليل الفروق بين رواتب الرجال والنساء فى العالم الغربى كفرع للنزعة الرئيسية.

دورة حياة أى نزعة Life Cycle of a trend

عندما تلقى أى من النزعات الوليدة القبول من المجتمع كنزعة صادقة أصلية لا زيف فيها ، وعندما يتم التأكيد على قبول قيمها فى وسائل الإعلام المختلفة وعن طريق استطلاعات الرأى تكون تلك النزعة الوليدة قد خرجت إلى الحياة. والمتتبعون لدورة حياة أى نزعة وليدة وجدوا أن ١٥ ـ ٢٥٪ من مجموع السكان فى مجتمع ما يتفاعلون

ويتداخلون مع اختراع جديد أو فكرة جديدة أو مشروع جديد فى فترة ما خلال حياتهم اليومية ، وتظل النزعة الوليدة تنمو وتنمو إلى أن تصبح جزءًا من التيار الرئيسى main stream وهو ما يعنى نهاية دورة الحياة بالنسبة لتلك النزعة ، لأنها بانخراطها فى التيار الرئيسى السائد أصبحت جزءًا من نسيجه ومكوناته.

الإشارات الضعيفة والكروت القوية Weak signals and Wild cards

فى أبحاث المستقبل قد تفهم الإشارات الضعيفة لأى نزعة جديدة على أنها مثيرة للإزعاج ،وقد تكون مؤشرات مناسبة اجتماعياً لتغيير نزعة قائمة فعلاً، وقد تمثل معلومات غير كاملة النضج لا تسمح باتخاذ الفعل المتوقع..

أما الكروت القوية فى لعبة تشكيل المستقبل فهى التي يمكن أن تكون احتمالات حدوثها ضعيفة ولكنها عظيمة التأثير. ويمكن لهذا التوجه أو تلك النزعة أن يوضعا فى النظام التقليدى للتوقع فى المشروعات والأعمال الكبرى.. كما يمكن تقديمها كجزء مهم من عملية صناعة القرار لزيادة قابلية شرائح من المجتمع على التأقلم مع المفاجآت التى تحدث غالباً فى عالم الأعمال.

هذه التغيرات المفاجئة قد تمثل نقطة تحول فى تطور نزعة أو نظام معين ، وقد تعلن أو لا تعلن الإشارات الضعيفة عن الكروت القوية ، والتى عادة ما تكون معلومات أولية غير كاملة ومجزأة

التنبؤ بالمستقبل البديل

لم تكن عملية التنبؤ بالمستقبل من العمليات السهلة أو مؤكدة النتائج فقد كانت مثلاً عينة من التوقعات فى عام ١٩٥٠ للتغيرات التى سوف تحدث فى عام ٢٠٠٠ تشير إلى أن شيئاً جديداً كان لا يزال فى خيال الناس فى عام ١٩٥٠ مثل السياحة الفضائية، سوف يصبح من الأمور المعتادة بحلول عام ٢٠٠٠، وهو ما لم يحدث بالضرورة، أو بنفس الطريقة التى توقعها الناس، رغم أن استكشاف الفضاء بات من الأمور التى قطعت فيها بعض الدول الكبرى شوطاً كبيراً، وأصبح خروج الإنسان فى مثل هذه

الرحلات شيئاً عادياً، ولكنه رغم كل هذا التقدم مازال الخروج إلى الفضاء مقصوراً على رواد الفضاء المدربين تدريباً خاصاً لهذه المهام وليس لعامة الناس..!

وتجاهلت التوقعات فى نفس الوقت ما حدث بالفعل فى الخمسين سنة الأخيرة من بزوغ عصر الكمبيوتر والمعلوماتية إلى الحد الذى جعل من الكمبيوتر أداة رئيسية فى تجهيز أى مكتب أو منزل، وانخفضت أسعاره على مستوى العالم كله، وأصبح استخدامه جزءاً هاماً وحيوياً فى الحياة اليومية لكل الناس..!

وكما شملت التوقعات التغيرات التكنولوجية ، شملت أيضا التوقعات الأيديولوجية ، فبينما كانت توقعات الماركسيين فى القضاء على الفقر وتحقيق المدينة الفاضلة فى منتصف القرن الماضى توقعات كبيرة ، نجد أنها فشلت فى الظهور كحقيقة قبل أن ينتهى القرن بعقد كامل ، فلم تستطع الماركسية القضاء على الفقر أو تحسين مستوى معيشة الناس ، بل تعدى الأمر إلى فشل الاتحاد السوفيتى نفسه ، وفشل الأفكار التى بنى عليها ، وانتهى الأمر بتفكيكه إلى عدة دول..!

ودراسة المستقبل وتوقعه تتطلب قدراً كبيراً من الدقة فى العمل ، ووضع عدة سيناريوهات محتملة لمساعدة صانعى القرار فى الوصول إلى " ربما " و" ماذا سوف يحدث" و"ماذا لو حدث" بدلاً من توقع مستقبل "محدد" قد يحدث أو لا يحدث..! كما أن فهم نقاط القوة والضعف فى السيناريوهات المطروحة يساعد المستفيدين من هذه السيناريوهات سواء كانوا أفراداً أو هيئات على الاستعداد لمواجهة هذه التحديات بالمرونة المطلوبة.

و" ربما " تعنى أن السيناريو الأول أو السيناريو الثانى أو السيناريو الثالث أو الرابع أو الخامس قد يحدث ، وهو ما يعنى توسيع مجال الرؤية لصانعى القرار لدراسة جميع الاحتمالات ، وإطلاعهم على كافة المشاكل المحتملة والمتوقعة..! أما "ماذا سوف يحدث" فهى تعطى لصانعى القرار صورة شاملة لما قد يحدث فى أحد السيناريوهات المدروسة بدقة من تسلسل للأحداث، يساعد فى صناعة القرار السليم.. و"ماذا لو حدث" تظهر

حزمة الإجراءات الواجب اتباعها لو حدث ما لم يكن متوقعاً من السيناريو أو لو جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن أو حدثت مفاجآت غير متوقعة نحت بالسيناريو الموضوع سلفاً فى اتجاه آخر..!

وتستخدم كثير من الهيئات المشتغلين بالمستقبل ومخططى المستقبل كجزء من استراتيجية إدارة المخاطر Risk management للمساعدة فى التعرف على أوراق اللعبة القوية التى تمتلكها تلك الهيئات والتى لها احتمالات ضئيلة ومخاطر محتملة مؤثرة.

وكل المؤسسات الناجحة وغير الناجحة تشمل برامجها على جزء له علاقة بالمستقبل، فنجد فى كل الشركات مثلاً أقساماً للبحث والتطوير Research and development والاختراعات والابتكارات ، ودراسات السوق ، والسلوك المتوقع للمستهلكين وغيرها..

دراسات المستقبل فى التعليم

لقد بدأ تعليم دراسات المستقبل فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ الستينيات.. ودراسات المستقبل تشجع استخدام التوجهات والأدوات التى تسمح للطلاب بالتفكير فى المدى البعيد ، واستخدام قدراتهم فى تخيل عقبات التفكير فى المشاكل التى تصادفهم ، والتوقعات والنتائج لهذه المشاكل ، وتهدف هذه الدراسات إلى مساعدة الطلاب على :

١ ـ فهم التوجه العام للإنسانية فى نظرتها للمستقبل.

٢ ـ اكتساب المعرفة والمهارات اللازمة لاستكشاف المستقبل المحتمل والمفضل.

٣ ـ فهم عملية الحراك الاجتماعى والبيئى للإنسانية من أجل صناعة مستقبل بديل.

٤ ـ تركيز المسؤولية والأفعال من جانب الطلاب نحو خلق مستقبل أفضل.

التفكير بطريقة السيناريو

وهى إحدى الطرق المتبعة فى التخطيط للمستقبل ، وهى طريقة استراتيجية فى التخطيط تستعملها بعض الهيئات لعمل خطط مرنة طويلة الأجل. وهى فى مجملها عبارة عن تطبيقات وتعميمات للطرق التقليدية المستخدمة فى عمل المخابرات الحربية.

والطريقة تعتمد أساساً على أن بعض المحللين يقومون بتخليق نموذج محاكاة لمشكلة ما ويقدمونه لصناع السياسة للاستفادة منه. ويحتوى هذا النموذج على حقائق معروفة عن المستقبل مثل البيانات الديموجرافية والجغرافية والحربية والسياسية والصناعية والموارد المعدنية وغيرها.. كما تشتمل أيضاً على دراسة للنزعات المحتملة فى المجالات الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية والتى يمكن أن تشكل القوة الدافعة.

والتخطيط باستخدام طريقة السيناريو يمكن أن يشمل العناصر التى يصعب تكوينها مثل المعالجة الشخصية للحقائق وقراءة التفسيرات المختلفة ، كذلك التغيرات التى تحدث فى القيم ، والقواعد الجديدة ، والاختراعات والتطبيقات التكنولوجية الواعدة.

هذه التجميعات المختلفة من الحقائق والتغيرات المجتمعية الممكنة يطلق عليها سيناريو (ويمكن اقتراح ترجمة عربية لكلمة سيناريو فى هذا السياق وهى : المخطط المحتمل)، وعادة ما يشتمل السيناريو على مشاكل قد تكون محسوسة وهامة ، كما يشتمل على مشاكل أخرى والتى قد تكون موجودة فعلاً ولكن حجمها وتأثيرها قليل فى الوقت الحاضر.

وأى سيناريو قابل للحدوث أو غير قابل للحدوث.! ومع ذلك فإن المحلل الجيد يستطيع أن يختار صفات السيناريو بحيث تكون ممكنة الحدوث.. وعلى هذا فإن التخطيط بالسيناريو يمكن أن يساعد صناع السياسة، ويتوقع لهم نقاط الضعف غير الظاهرة ،أو عدم المرونة الكافية فى تنفيذ الهيئات المختلفة لهذا السيناريو ،أو عدم مرونة الطرق المستخدمة فى تحقيق هذا السيناريو.

وعندما يتم التعرف على نقاط الضعف قبل حدوثها بوقت كاف ، يصبح من الممكن إصلاح تلك العيوب أو تقليلها بسهولة أكثر وبطريقة صحيحة. أما لو ظهرت هذه المشاكل فجأة وبدون توقع فى موقف حقيقى طارئ ،فإن تقليل أو تجنب الآثار الضارة الناتجة عن هذه المشكلة قد لا يمكن تداركها.. وعلى سبيل المثال فقد تكتشف شركة ما أنها تحتاج لتغيير شروط التعاقد نظراً لنشوء مخاطر من نوع جديد ظهرت على السطح ولم تكن الشركة تتوقعها فى حينها، حينئذ يصبح تغيير شروط التعاقد إحدى الوسائل

لتتجنب الشركة المخاطر الجديدة.. أو العمل لتجمع الشركة الأموال اللازمة لشراء التكنولوجيا المتوقعة لحل إحدى المشاكل، مثل ما قامت به شركات البترول الكبرى لتقليل تلوث البيئة ، أو إضافة بعض التعديلات على محركات السيارات لتقليل استهلاك الوقود وخصوصاً بعد تصاعد نزعة الحفاظ على البيئة منذ السبعينيات وحتى الآن ، أو كنتيجة لنزعات سياسية واقتصادية مثل تلك التى تبنتها الدول المصدرة للبترول "أوبك" OPEC فى العقدين الأخيرين من أجل تقنين بيع البترول وعدم الإفراط فى بيع واستخراج المخزون الاستراتيجى لتلك الدول. ويظهر من ذلك أن الخطط المرنة التى تستطيع التعامل مع الحقائق الموجودة فعلاً ، وتستطيع فى نفس الوقت استشراف المستقبل وقراءة أوراقه وفهم توجهاته ونزعاته ، يمكن أن يصبح لها قيمة كبرى فى صناعة المستقبل..!





مانخوليا تاريخية
أم أوهـــام عصريـــة..!!



.. أصيب أحد الأمراء بالمانخوليا (الاسم العلمى للكلمة العامية مانخوليا والتى هى أحد أعراض الجنون)، وظهرت من أعراضها عليه أن تخيل نفسه "بقرة" يجب أن تذبح ويتغذى الناس من لحمها اللذيذ، وكان هذا المريض يخرج صوتاً كصوت البقرة (الخوار) ويصيح اذبحونى..اذبحونى، ولذا امتنع عن الطعام، الأمر الذى أدى إلى ضعفه وهزاله، ولما تم إقناع ابن سينا الطبيب العربي الشهير وأحد أهم العلماء فى تاريخ الإنسانية، بعلاج هذا الأمير، بدأ علاجه بأن أرسل إليه رسالة يبلغه فيها بأنه ينبغى أن يكون فى حالة نفسية جيدة، حيث سيقدم الجزار قريباً لذبحه، ففرح المريض بهذه الرسالة وهيأ نفسه ـ نفسياً ـ للذبح وبعد فترة دخل عليه ابن سينا غرفته شاهراً سكيناً كبيراً، وقال: "أين هذه البقرة التى سوف أذبحها»، فأجابه المريض بإصدار خوار البقرة كى يعرفه، فأمر ابن سينا بأن يطرح أرضاً، وتقيد يداه ورجلاه، وبعد إتمام هذا الأمر، تحسس ابن سينا كل جسمه، ثم قال: «أنها بقرة نحيفة جداً لا تصلح للذبح الآن، يجب أن تتغذى وتسمن أولاً»، ثم أمرهم بإطعام المريض بأطعمة جيدة ومناسبة، فاكتسب المريض حيوية وقوة، الأمر الذى جعله يتحرر مما اعتراه من أعراض وهذاءات، وتم له الشفاء التام..!!

تكشف معالجة هذه الحالة عن أن ابن سينا قد شخصها تشخيصاً سليماً بأنها حالة ملنخوليا بأعراضها المعروفة، كما أدرك معنى مصطلح الهذاء أو الضلالة أحد الأعراض المعروفة والمميزة للذهان العقلى أو المرض العقلى المرادف للجنون قبل أن تذكر فى

مراجع الطب النفسى الحديث بألف عام كما جاء فى كتاب جيمس كولمان أحد أكبر علماء النفس الأمريكيين المعاصرين "حالات الطب النفسى غير المعتادة والحياة الحديثة".
(د.خالد حربى ـ أصالة الطب النفسى العربى ـ مجلة العربى ـ نوفمبر ٢٠٠٤).

ورغم أن ابن سينا اكتشف أعراض المالنخوليا قبل ألف عام (توفى ١٠٣٦ م) وقبل أن يكتشفها علم النفس الحديث، وهو المرض المعروف بحالة الهذيان والتوهم التى تصيب المريض وإضفائه على نفسه صفات غير موجودة فيه، ورغم أنه وضع لها فى ذلك الوقت العلاج المناسب وشدد على ضرورة التحرر من تلك الأوهام التى نصنعها بأنفسنا، فأننا نكاد نزعم أن نفس هذه الضلالات رغم مرور كل هذا الوقت مازالت موجودة وتتحكم فى طريقة تفكيرنا حتى الآن، وتجرنا إلى الوراء والتخلف والضعف والهزال، ولم ينجح هذا المريض المزمن على مدار التاريخ فى إتباع الوصفة الطبية أو تنفيذ نصائح الطبيب، مما أدى إلى استمرار حالة الهزال والضعف والوهن كما هى، بل تفاقمت الحالة ووصلت إلى أسوأ حالتها!! وهو ما قد يدفع فى النهاية إلى ضرورة إعادة تطبيق الطريقة القديمة وهى التهديد بالذبح، وما أخشاه حقيقةً هو ألا تنجح أيضاً تلك الطريقة فى تحريك وتحفيز المريض على المضى قدماً فى طريق الشفاء بخطوات فعالة، وبدلاً من أن تصبح طريقة التهديد بالذبح وسيلة للتحفيز وإشعال الهمم وإيقاظ النائمين، قد يفاجئنا المريض بأنه مازال مستلقياً على جانبه، مقيداً يداه وأرجله مستسلماً ومنتظراً للذبح الحقيقى هذه المرة..!!

وكما فطن ابن سينا لأهمية الغذاء الصحيح فى علاج الوهن والضعف اللذين أصابا الأمير فقد نصح ابن سينا المريض بتناول أطعمة جيدة ومناسبة ليكتسب حيوية وقوة تمكنه من التحرر مما اعتراه من أعراض وهذيان، فقد فطن أيضًا إلى أهمية الجهد الذاتى الذى يجب أن يبذله المريض ليمضى قدمًا فى طريق الشفاء، وهو التوجه الحديث فى علم طب النفس الذى يعتمد على قدرة المريض الذاتية فى المقاومة والتفرقة بين الأمراض الوظيفية فى مقابل الامراض العضوية. والأمراض الوظيفية هى أمراض نفسية الأسباب والنشأة وتصيب وظيفة العضو وليس العضو ذاته كالتفكير بالنسبة للدماغ. ومنها

الأزمات والكوارث والصدمات النفسية وخبرات الفشل والإحباط والحرمان والقسوة والخضوع لحالات من الضغط النفسي والاجتماعي.

فالشفاء لا يتحقق بمجرد وصف الدواء ولكنه قبل كل شيء يتحقق بوجود رغبة قوية في الشفاء وعزيمة وإصرار على تحقيقه..! وما الدواء إلا وسيلة للمساعدة وليس هدفاً في حد ذاته وهناك مقولة شهيرة في الطب وهي "أن الطب يساعد الطبيعة على أداء وظيفتها ولا يغيرها " فقد خلق الله جسم الإنسان وهو يحوي النظم الدفاعية الخاصة به، فهناك الأجسام المضادة والتي تعمل على مقاومة إفرازات وسموم البكتريا، وهناك نظام مناعة صارم ضد أي عدوان خارجي، وهناك الجلد والشعر وما يوفره من حماية للجسم، والعظام وما توفره من حماية للأعضاء الداخلية وهكذا.. وعلى ذلك فإن الدواء في حالتنا هذه والطعام الجيد اللازم لنا لنتحرر من أوهامنا وضلالتنا هو العلم، وبدون أن يكون للعلم وجودا قوياً وفعالاً في طريقة تفكيرنا، يضبط توجهاتنا ويتحكم في أفعالنا وردود أفعالنا، يغربل أوهامنا، ويقنن أعمالنا وينمي طموحاتنا، فالأغلب أن تستمر حالة الهذيان تلك التي كنا وما زلنا نعاني منها..

وبدون الرغبة الحقيقية من جانبنا في تخطي حالة الوهن والضعف التي تعترينا، والتخلص من الضلالات التي تعشش في رؤوسنا، والأوهام التي تسيطر علينا، وبدون ترجمة هذه الرغبة إلى طرق ووسائل منظمة وفعالة يكون العلم أحد أهم دعائمها فسنكون مثل الذبيحة الراقدة في استسلام تنتظر ذابحيها..!!

ضلالة حتمية التخلف..!!

من المؤكد أن مقولة حتمية التخلف التي تم زرعها في نفوس الشرقيين عامة تمثل أحد أهم الضلالات التي جرى ترويجها من الغرب، وجرى تفصيل الأسباب ليعلق الغرب عليها تفسيره لتخلف الشرق وتقدم الغرب، وعلى الرغم من سذاجة هذه الأسباب، وانعدام المنطق في أغلبها، ومخالفتها للحقائق التاريخية، بل للفطرة السليمة أيضاً، إلا أن العقل الشرقي والعربي بالذات، بلع الطعم، وصدق هذه الادعاءات والفرضيات المبنية

على توجهات استعمارية فى الأساس تبرر الاستعمار والاحتلال والاستغلال والهيمنة، وتمادى فى تصديقها حتى بات يتصرف فى حياته وكأن هناك حتمية معينة تفرض عليه الوضع القائم وتمنعه من محاولة تغيير هذا الواقع..

لقد وصل الأمر إلى حد أن هناك نفر من الباحثين الغربيين اعتبروا أن النموذج الغربى هو المثال الكامل والمتكامل للتقدم، وأن ما غيره هو التخلف والتأخر، وكتابات منظرى البنتاجون والمحافظين الأمريكيين الجدد مثل فرانسيس فوكوياما عن نهاية التاريخ والانتصار العالمى للنموذج الغربى المعاصر، والحفاظ على الوضع العالمى على ما هو عليه (عام ١٩٨٩) وصامويل هيجنتون (١٩٩٢) الذى نشر مقالة فى مجلة "الشئون الخارجية" عن صراع الحضارات، تحولت فيما بعد إلى كتاب يحمل اسم "صراع الحضارات وإعادة النظام العالمى" والذى أراد فيه تكريس التاريخ فى مواجهة أبدية بين الدين والأيدولوجيا، بين حضارة يهودية مسيحية وبين تحالف إسلامى كونفوشى، توضح إلى أى مدى وصل العقل الغربى فى غيه وضلاله وتحويره للواقع والتاريخ والعلم من أجل تحقيق أهدافه المعلنة وغير المعلنة.. حتى أن أكاديمياً مثل هيجنتون نصح الرئيس الأمريكى جونسون فى عام ١٩٦٨ حينما كان يعمل مستشاراً له بضرورة قصف جنوب فيتنام قصفاً شديداً للقضاء على المدنيين من الفيت كونج قضاءً مبرمًا وترحيل البقية الباقية منهم من هذه المناطق..!

وقد أدت مقالة وكتاب صراع الحضارات إلى ردود أفعال عنيفة فى جميع الأوساط، حتى أن إدوارد سعيد رد عليه فى نفس المجلة واصفاً نظريته بأنها "صدام الجهل" معللاً ذلك بأن التقسيمات التى أوجدها هيجنتون ألغت ديناميكية الاعتماد على الذات ومحاولة الشعوب الخروج من الأطر الموضوعة لها، كما ألغت تفاعلات الحضارات الداخلية والخارجية، وقد أشار سعيد بأن ما كتبه هيجنتون يعتبر نموذجًا لخيال جغرافى ينظر فيه إلى العالم بما يحقق مكاسب وسياسات بعينها..!

بل وصل الأمر إلى أن بعض الكتاب عزا تخلف بعض الشعوب إلى عوامل بيئية أو جينية، وأحد الكتاب الأمريكيين وهو لورانس هاريسون الذى عمل مديراً لوكالة المعونة

الأمريكية فى المجتمعات النامية فى أمريكا اللاتينية وضع كتاباً بعنوان "من يزدهر؟ كيف تؤدى القيم الثقافية إلى النجاح الاقتصادى والسياسى " مشيراً إلى بعض القيم التى تحقق التقدم مثل حب العمل أو الكسل، وطبقًا لهذا التقسيم فهناك مجتمعات محبة للعمل (عاملة) أو محبة للكسل (متكاسلة)، وقيم الثواب والعقاب ودرجة تشجيعها للابتكار وروح المبادرة. وطبقاً لها تنقسم المجتمعات إلى راغبة فى الابتكار أو نافرة منه. وقيمة حب المال والادخار والربحية. وطبقاً لهذا التقسيم تنقسم المجُتمعات إلى مجتمعات جاذبة للمال وأخرى طاردة له. وفى هذا الصدد يذكر الكاتب أن أغلب سكان المناطق الحارة يقل لديهم تأثير قيمة حب العمل ويسود الكسل نتيجة رغبة الأفراد فى الهروب من الشمس الحارقة سعياً للاسترخاء فى المناطق الظليلة، وهم بدافع بيولوجى يساهم المناخ فيه ويؤدى إلى اتساع الشعيرات الدموية للأفراد، بما يجعلهم عرضة للإجهاد والإرهاق من أقل مجهود يبذلونه وهو ما يتحول تدريجياً إلى ثقافة اجتماعية، تفضل العمل داخل المكاتب المكيفة مثلاً على العمل اليدوى فى العراء.

ويذكر هاريسون المثال النقيض لذلك لدى سكان المناطق الباردة فذلك يجد تفسيره البيولوجى فى أن الكسل وعدم الحركة يؤديان إلى شعور الأفراد بمزيد من البرودة مما يدفعهم للعمل رغبة فى الشعور بالدفء، وبذلك يتساوى الهروب البيولوجى من البرد ليصبح قيمة اجتماعية تحض على العمل لما فيها من فوائد للفرد.

وهنا تظهر المغالطة الواضحة ومحاولة لى الحقيقة التى تكشف عن تحيزات هاريسون غير الموضوعية، فمنطقة شرق آسيا حارة ورطبة ومع ذلك قيم العمل فيها منجزة، بل تفوق مثيلتها فى بعض الدول باردة الطقس. كما أن شعوباً كثيرة على مدى التاريخ كانت تعيش فى أجواء حارة، ورغم ذلك قدمت للبشرية إنجازات مازالت باقية حتى الآن..! ونشعر من تفسيرات هذا الكاتب تحيزاته الثقافية والعرقية ضد الشعوب النامية، وهو يفعل ذلك متصوراً أن النموذج الغربى للتحديث هو النموذج الوحيد المتاح، وأنه النموذج الذى يجب أن يحتذى، ولا يستطيع الكاتب أن يخفى رؤيته المتجمدة من أن الأوضاع السائدة فى الدول النامية هى أوضاع أبدية، ولا سبيل لتغييرها. وكأنه يقول

بحتمية التخلف لشعوب بعينها، وكأنه ألغى حقيقة أن هناك حراك اجتماعى دائم فى أى نشاط إنسانى، يتوالد فيه القديم من الجديد بشكل مستمر لا يتوقف، وفى الثقافة التى هى الوقود الأساسى لأى حراك اجتماعى، يكون التغيير والتجديد أحد أهم طبائع هذا الحراك..

أما النظريات التى تقول بتفوق بعض الأجناس على بعضها استناداً لاختلافها فى العناصر الوراثية والجينية، مثلما حدث فى ألمانيا فى عهد هتلر من القول بتفوق الجنس الآرى الأبيض على ماعداه من الأجناس الأخرى، ويمكن طبقًا لتلك النظريات أيضًا صياغة نظريات عن حتمية تدنى الزنوج والملونين استنادًا لأى متغير جينى مميز لديهم. ولم تكن تلك النظرية إلا لتبرر إبادة الهنود الحمر على يد الأمريكيين الأوائل، والحروب الغاشمة التى خاضتها ألمانيا ضد جيرانها وضد البشرية كلها، ولتبرر الاستغلال والهيمنة التى حاولت بعض الشعوب المتقدمة فرضه على الشعوب النامية..

وقد لخص ستيفن روز فى كتابه (ليس فى حياتنا) الحجج الست الواهية فى تفسير نظرية الحتمية كما يلى:

١ ـ هناك فروق واختلافات طبيعية بين الشعوب والفئات.

٢ ـ يمكن قياس هذه الفروق باستخدام مؤشرات التنمية والتخلف.

٣ ـ هذه الفروق هى نتاج فروق فى العوامل الجينية والثقافية.

٤ ـ تدوم الفروق فى العوامل الثقافية تبعًا لفرضية الحتمية الثقافية.

٥ ـ لا يمكن تغيير هذه العوامل الجينية والثقافية حيث يتم نقلها وتوريثها للأجيال المتعاقبة فى كل فئة أو أمة.

٦ ـ الدفاع عن التنمية الثقافية والجينية أكثر منطقية من محاولة كسرها وتغييرها (د.سليمان إبراهيم العسكرى ـ رأس المال الثقافى مفهوم جديد وتناقضات عابرة ـ العربى ـ مارس ٢٠٠٥).

والقارىء الفطن يستطيع بمجرد مطالعة هذه النقاط الست أن يتبين مدى المغالطات التى أوردها الكاتب، فبينما أصبح معيار التخلف والتقدم فى نظر الكاتب هو المعيار الغربى فقط رغم أن هناك معايير أخرى، ورغم أن مقياس التخلف والتقدم نفسه يعتبر مقياساً نسبياً، وما ينظر إليه فى بعض المناطق على أنه تخلف قد يعامل فى مناطق أخرى على أنه نوعًا من أنواع التقدم..! وكلمة المتقدم والمتخلف كانت تطلق على شعوب مختلفة فى عصور مختلفة، فليست الشعوب التى أصبحت متقدمة اليوم هى التى كانت متقدمة سابقًا ولا الشعوب التى هى متخلفة اليوم هى التى كانت متخلفة طوال العصور، وهناك دورة معروفة للحضارة تتضمن بداية وبزوغ الحضارة ويتجه فيها المنحنى إلى الصعود لفترة، ثم الاستمرار فى النهضة والحفاظ على معدل الإنجاز لفترة يكون فيها المنحنى مستوياً، تليها فترة اضمحلال وضعف يكون فيها المنحنى فى اتجاه هبوط، وقد استمرت هذه الدورة على هذا النظام منذ بدء الخليقة، حضارات تصعد وأخرى تهبط، ولم يقدر لحضارة ما أن تظل فى حالة صعود فقط أو تظل فى حالة هبوط فقط، أو حتى فى حالة استمرار دائمة، وقد تقصر أو تطول الفترة اللازمة لإحداث التغيير فى مراحل منحنى الحضارة المختلفة، ولكنه حدث ومازال يحدث وسوف يحدث ما دام هناك بشر، وما دام هناك عقل لهؤلاء البشر يأبى الجمود والتقوقع على الذات ويسعى لحياة أفضل..!!

وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن التقدم والتخلف يقومان على مقاييس حضارية تتعلق بالعصر الذى تستخدم فيه والعلاقات بينها، أكثر مما تتعلق بالشعوب التى تطلق عليها، وليس أدل على ذلك من أن هناك شعوباً أخرى غير الشعوب الغربية نجحت فى كسر حالة التخلف التى كانت تعانى منها، وانطلقت فى طريق التنمية مثلما حدث فى الهند التى رغم أنها مازالت تعتبر من دول العالم النامى إلا إنها استطاعت فى غضون أعوامًا قليلة أن تتبوأ مكانة مرموقة على سلم التقدم العالمى فى بعض القطاعات مثل الاستخدامات النووية أو صناعة برمجيات الكمبيوتر.

كما يتضح أيضا كم الخلط بين القياسات العلمية والفرضيات غير المنطقية التى تحكمها توجهات شخصية وسطحية فى تفسير عجلة التقدم والتأخر.

إن أبرز خصائص الإنسان أنه أشد المخلوقات قابلية للتعلم، وأعظمها مرونة وقابلية للتشكل الثقافي، كما شدد أستاذ الأنثروبولوجى الشهير آشلى مونتاجيو فى كتابته. فكل ما يعرفه الإنسان ـ ككائن بشرى ـ كان عليه أن يتعلمه من غيره من البشر. وتشير الدلائل التى تمكن العلماء من كشفها حتى اليوم إلى أن الشخص العادى فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية فى إمكانه أن يتعلم قدراً مساوياً تماماً لما يمكن لشخص عادى فى مجتمع آخر أن يتعلمه.

وفيما يختص بالسلوك نجد أن التطور لم يعمل على تمييز المجموعات الإنسانية إلى متخصصين يمكنهم مواجهة متطلبات بيئة خاصة واحدة دون غيرها، بل أننا نجد على العكس من ذلك أن تطور الإنسان قد سار فى سبيل أدى به إلى أن يصبح قادراً على التكيف لكل أنواع البيئات.

وأننا إذا درسنا البشر فى كل المجتمعات لوجدنا أن الصفة الوحيدة التى تفضل جميع الصفات الأخرى فى المجتمع الإنسانى هى القدرة على التكيف أى المرونة أو القدرة على التفاهم والتعايش مع الآخرين، أو التكيف للظروف السريعة التغيير، ولا تتركز الأهمية فى مقدرة معينة يختص بها الإنسان، وإنما هى تتركز فيما له من قدرة عامة على التكيف، أى المرونة والقابلية للتشكل. ويمكننا أن نكون على يقين من أن هذه الصفة كانت كذلك أهم صفات الإنسان منذ ظهوره على هذه الأرض. وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن هذا دليل قوى يثبت الوحدة الذهنية للجنس البشرى على أساس تطورى، وهو أيضاً دليل يثبت التمايز الثقافى للإنسانية مستنداً إلى نفس الأساس، فالبشر فى أى جزء من أجزاء العالم يستطيعون أن يتعلموا القيام بكل ما قام به بشر آخرون وغيرهم، فى أى جزء آخر من المعمورة. (المليون سنة الأولى من عمر الأرض ـ أشلى مونتاجيو ـ ترجمة د. رمسيس لطفى ـ ١٩٦٥).

وإذا كانت هناك أى دروس مستفادة من الدراسات التى تعنى بتطور الإنسان،فإن أهمها جميعاً هو أن وراء كل ما يبديه البشر من اختلافات فى العادات وفى شكل الجسم يوجد بينهم تشابه جوهرى ، وأن هذا التشابه يفوق كل الاختلافات.

وإذا كانت بعض المجموعات البشرية أكثر تقدمًا من غيرها فى بعض الجوانب الثقافية، بالمفهوم الحديث للتقدم، فإن هذا يرجع إلى أن فرصهم كانت أفضل ولا يرجع إلى أى تفوق جينى أو بيئى قد يدعى وجوده. وليست هناك مجموعة من البشر أقل قيمة فى المقياس الإنسانى من أى مجموعة أخرى أو لا تملك فرصاً متساوية من أى مجموعة أخرى، إذ أن كل المجموعات البشرية تملك إمكانات للتقدم تمكنها فى ظل البيئة الفكرية والعقلية المناسبة من الإسهام بدرجة قصوى فيما تحرزه الإنسانية من جلائل الأعمال..!.

ضلالة دورة حياة الحضارة الثابتة

أشرنا قبلاً إلى منحنى دورة حياة الحضارة من صعود وثبات وهبوط، وهى فى ذلك تختلف عن دورة حياة النزعة الجديدة التى تنتهى باندماجها فى التيار السائد وتصبح جزءاً منه (انظر فصل صناعة المستقبل البديل)، أما فى دورة حياة الحضارة فهى تنتهى بفترة من الضعف والوهن، يخبو فيها بريقها وتقل إنجازاتها وتسودها الفوضى وتسرى فيها عوامل التآكل وتنخر فى عظامها سلوكيات التخلف، وتختل البوصلة التى توجهها، وتفقد قدرتها على اختيار المسار السليم، وهى فى وضعها ذلك مثل سفينة تعطلت أجهزة التوجيه فيها، فظلت تبحر فى البحر تتقاذفها الأمواج، وتتحكم بها التيارات البحرية المتلاطمة، تقذفها تارة يميناً وتارة أخرى يساراً، تجذبها إلى الخلف أو قد تلقى بها فى خلجان ضحلة أو مستنقعات آسنة أو تحطمها على أطراف صخور جامدة وأحجار خشنة..!

وتظل الدائرة الخبيثة تضيق على السفينة ومن فيها مثلها مثل دوامة كبيرة حلقاتها تظل تضيق وتضيق حتى تبتلع كل شىء!! والذين على السفينة لا يعرفون ماذا يفعلون!

هل يركنون إلى مصـيرهم الغامض والمحتوم؟ أم يحاولون تغيير هذا الواقع ويخرجون من تلك الـدوامة الـتى تحوطـهم من كل جانب وتجـذبهم إلى الـغرق ثم إلـى القاع فى النهاية؟

ولـكن البحـارة المتمـرسين يـعرفون أن أهم شىء هـو مواصلـة الحركة والمـقاومة، ويعرفـون أيضاً أن أى سـكون أو توقف معـناه الـنهاية المحتـومة..! ويعـرفون بحكم خبراتهم أنهم لكى يخـرجوا من تلك المحنة عليـهم أن يلفوا فى دوائر مع الدوامة، ومع كل لفة تدورها السفـينة يمكن أن تغير الدفة قلـيلاً إلى الخارج، حتى يصبح فى النهاية من الممكن تخطى حدود الدوامة، والخروج إلى البحر المفتوح مرة أخرى..!!

لقـد أثبتت تجارب التاريخ على مدى العصـور المختلفة أن الذين ارتكنوا إلى الماضى فقط وتهاونوا فى اسـتعمال ما حباهم به الله من عقل، وناموا فى العسل قريرى الأعين، مطمئنين إلى غدهم الـذين لا يعرفون عنه شيئاً، وتقـاعسوا عن استخدام ما يملكون من أدوات، كـانوا هم أول الذين تم سحقهم فى مطحنة الزمن، وإخراجهم من ساحة السباق، وتهميشـهم من عجلة الحياة نفسـها..!!

وقد أكد كل الباحثين المنصـفين على الدور الذى يمكن أن تلعبه الثقافات المختلفة فى تشكيل ثقافة وحضارة صاعدة.. فـمن المعروف أن الحضارة الإغريقية بما لها من بريق وإنجازات مازالت تزدهر بها الحضارة الإنـسانية، ورثت الحضارات المصرية والسورية والبابـلية والآشورية والفيـنيقية، ولا يمكن أن تـكون المدنية الإغريقـية قد نشأت فجأة، وبمـعزل عن الحضـارات والمدنيـات الأخرى التى سـبقتـها فى التـاريخ، بالرغم من أن الحكمة الإغريقية تقول " لا شـىء يخلق من العدم " فإن الفكرة الشائعة لدى الغرب عن المعجزة الإغـريقية تعـنى أن الإغريق هم صانعـو كل شىء من لا شـىء، أى لم يسبقهم أحد إلى ما توصلـوا إليه. هم مبدعو الـفنون والآداب والعلـوم، وأنكر بعض الأوروبيين إسهام الحضـارة المصرية الـقديمة فى تشكـيل الحضارة الإغريـقية والرومانـية (أثينة السوداء. الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية ـ مارتن برنال ـ ١٩٨٧).

فقد كانت بين الإغريق والمصريين القدماء صلات وتجارب وحروب، وقد ترك المصريون من الآثار والبرديات ما يدل على تفوقهم فى كثير من العلوم والفنون من هندسة وطب وتحنيط وتعدين وفلك، كذلك ترك البابليون من الآثار والقوالب ما يدل على إلمامهم بكثير من المعارف فى الرياضيات والفلك ونظرية الأعداد والمعادلات الجبرية والهندسية، ومع أن تاريخ العلم عند البابليين ناقص لتفتت القوالب وضياع كثير منها فضلاً عن أن الذين درسوه أغلبهم من الغربيين، ولا تخلو كتابتهم من تحيز ضد الحضارات السامية. ومنهم من أغفل الحضارتين البابلية والمصرية القديمة إغفالاً تاماً. وقد أنصف "هيرودوتس" الملقب بأبى التاريخ هذه الحضارات عندما قال أن معظم فلاسفة الإغريق القدامى، أمضوا جانباً من حياتهم فى مصر وبلاد النهرين.

وبموت الإسكندر، وموت أرسطو المعلم الأول للإنسانية بعده بعام واحد عام٣٢٢ق.م تفرق خلفاء الإسكندر فى أرجاء إمبراطوريتهم، ولعب الاضطهاد السياسى دوره فى تفرق العلماء الإغريق وهجرتهم، وانتقل منهم عدد كبير إلى الإسكندرية، وكانت مصر من نصيب البطالمة، وكان هؤلاء يحبون العلم ويرعون العلماء، وأنشئت جامعة الإسكندرية القديمة وازدهرت الإسكندرية بعدد من العلماء نذكر منهم بطليموس واقليدس وأرشميدس وجالينوس وهيرون، وكان لهم فى العلم شأن وردد العلماء العرب أسماءهم كثيراً وحققوا كتبهم ونقدوها، وشرحوها بعد أن ترجمت إلى العربية.

وظلت الإسكندرية منارة للعلم عدة قرون يشع منها نور العلم وبقيت جامعتها ومكتبتها كعبة القصاد وطلاب العلم من كل حدب وصوب إلى أن لعب الاضطهاد دوره مرة أخرى وكان هذه المرة اضطهاداً دينياً وقع بين المسيحيين والوثنيين، فهاجر العلماء مرة أخرى ... ولكنهم اتجهوا هذه المرة نحو الشرق وكان الإسلام قد ظهر وسطع، وسيطرت الحضارة الإسلامية، مع اتساع رقعتها، وكانت بغداد حاضرتها، ومنها امتد نور العلم نحو الحواضر العربية فى دمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة.. وعن طريق الأندلس بعلمائها الأفذاذ وجامعاتها ومكتباتها انتقل العلم إلى أوربا التى كانت تعيش فى غياهب الظلمات والعصور الوسطى.. وظلت دورة الحضارة العربية الإسلامية فى حالتى

الصعود والاستمرار منذ القرن الثامن ميلادياً حتى انهارت بسقوط الأندلس فى القرن الرابع عشر فى عصر حروب الموحدين والمرابطين التى أدت إلى انحسار الإسلام فى أسبانيا.

وقد بلغ التخلف الذى كانت تعيش فيه أوربا فى هذا الوقت مبلغاً يصعب على المرء تصوره، فقد ظلت الحياة المتسمة بالتزمت ذات النظرة المتخلفة الغارقة فى الطقوس الدينية هى المسيطرة على نمط الحياة فى هذه الفترة، وقد انعكس ذلك على جميع مناحى الحياة. فقد بنيت مثلاً المنازل فى ذلك الوقت على شوارع ضيقة. وكان السكان يلقون بكل مخلفاتهم فى مجار وسط الشوارع الضيقة. ومن المؤكد أن الرائحة الكريهة لتلك المخلفات كانت تزكم المكان، رغم ما كان يبدو على السكان من عدم الاكتراث، واستخدموا عيدان البوص والقش القذر المزوج بالروث والبول لتغطية أرضيات الحجرات القذرة. ولتخفيف حدة تلك الرائحة الكريهة كانوا يقومون بتغيير ذلك المزيج بعد بضعة أيام بعد خلطها ببعض الزهور ذات الرائحة الجميلة..! بينما فى المقابل فى قرطبة عاصمة الأندلس بلغ عدد السكان نصف مليون نسمة يقطنون ١١٣٠٠٠ منزلاً، وقد شيد الخليفة الحاكم،ثانى خلفاء الدولة الأموية المعروف باستنارته وثقافته، شيد المسجد الكبير. كما تم بناء ٧٠٠ مسجد آخر، وانتشرت فى قرطبة وضواحيها البالغ عددها إحدى وعشرون ضاحية، ثلاثمائة حمام شعبى، وكانت المنازل تحتوى على حمامات ونظام لصرف المخلفات. وتم رصف الطرق وإضائتها. وامتلأت قرطبة بمحلات بيع الكتب، وأكثر من سبعين مكتبة عامة..!(عندما تغير العالم ـ جيمس بيرك ـ ١٩٩٤).

ويعترف المنصفون من المستشرقين بأن الرومان لم يحسنوا القيام على التراث الإغريقى، وأن العرب كانوا على خلاف ذلك، فقد حفظوه وأتقنوه، ولم يقفوا عند هذا الحد بل تعدوه إلى ترقية ما أخذوه وتطبيقه باذلين الجهد فى إنمائه حتى سلموه إلى العصر الحديث. ويقول بعضهم "لا نبالغ إذا قلنا أن أوربا مدينة للعرب، بخدمتهم العلمية، تلك الخدمة التى كانت العامل الأكبر فى النهضة العلمية الأوربية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لقد كانت الحضارة العلمية الإسلامية بمثابة حلقة الاتصال

بين الحضارة الإغريقية والحضارة الحديثة، ونحن لا نستطيع أن نلم فى هذا الحديث بالإنجازات الهائلة التى حققها العلماء العرب فى كافة العلوم" (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ـ د.عبد الحليم منتصر ـ ١٩٦٦).

وحركة الإحياء الأوربية نفسها، فى القرن الخامس عشر جاءت على إثر يقظات فى الفكر والمشاعر، وتخلص من ربقة الغيبيات، والتزمت فى العقائد، وتنبه إلى آثار الحضارات الكلاسيكية، من عمارة وتماثيل وصور، وعلم وأدب وفلسفة. وعندما لم تعثر على بعض الآثار الفكرية فى أصولها القديمة، التجأت إلى علماء العرب وفلاسفتهم، ممن تغذوا بتلك الحضارة، وترجموا لها، ودرسوها وعلقوا عليها، لم يصدها عن ذلك تعصب صليبى، ولا ذكريات فتوح الأندلس، وصقلية، وغزو جنوب إيطاليا وفرنسا.

وتحولت تلك الحركة فى بعض البلاد الأوربية من انصياع أعمى للجالس على كرسى بطرس الرسول، إلى شعوب تستقل ذكرًا وعقيدة عن روما، بل كانت تحررًا للفكر الإنسانى فى صميم البلاد الكاثوليكية، وانطلق الناس هنا وهناك يناقشون الظواهر الطبيعية، ويفحصونها ويفسرونها، دون التزام لما جاء فى كتبهم المقدسة، أو حتى فى كتب أرسطاطاليس. بل على أساس من الملاحظة المباشرة، يساعدها الإدراك والتدوين، والمقارنة والمقابلة، والقدرة على الانتقال من التفاصيل إلى العموميات. هكذا خرج الأوربيون من عصورهم الوسطى!! (سندباد مصرى ـ د. حسين فوزى ـ ١٩٦١).

ولم يقتصر الأمر على علوم الإغريق فقط، فقد عرفت الحضارة الإسلامية ـ كما أشرنا سابقاً ـ كيف تتمثل أفضل ما فى اليهودية والعلوم البيزنطية، لقد حملت التقاليد الهندوسية العظمى، والبرهان الفارسى، واستعارت الكثير من الصين الغامضة، وحورته وطورته فى سياق من تقاليد المعرفة الإسلامية الراسخة التى أرستها ونقلتها إلى العالم أجمع، بل أن بعض الكتاب الغربيين مثل أناتول فرانس اعتبر أن أسوأ يوم فى تاريخ فرنسا عندما سقطت الأندلس وحين تراجع العلم والفن فى الحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة..!! (كيف نصنع المستقبل ـ روجيه جارودى ـ ٢٠٠٢).

وتقول المستشرقة الدكتورة "سيجريد هونكة" فى كتابها "فضل العرب على أوربا" أو " شمس الله على الغرب" "إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية. وأن الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرًا جداً، وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا، وترك عليها غشاوة حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة، فلا نجد إشارة إلى فضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا هذه الإشارة العابرة إلى أن دور العرب، لا يتعدى دور ساعى البريد، الذى نقل إليهم التراث اليونانى..!" وتضيف " من المستحيل أن نتصور أن تنقل أمة علم أمة أخرى دون أن تكون بلغت من التقدم الحضارى ما يؤهلها لاساغة هذا العلم الذى تنقله. ولا نعرف أمة فى التاريخ قد عنيت بالعلم كما عنيت الأمة العربية بالعلم فى عصورها الإسلامية الزاهية، حتى كان العلم والحركة العلمية جزءاً من حياتها بل من كيانها..".

ولا تستطيع حضارة ما أن تدعى أنها نبتت من تلقاء نفسها وتنكر فضل الحضارات الأخرى عليها، فقد حدث على مدار التاريخ نوع من تلاقح الحضارات وتبادل المعرفة البناء، فقد كانت قرطبة هى المركز الثقافى الذى أيقظ أوربا من سباتها الفكرى الطويل، وذلك حين أمدتها بكل هذا التراث الثرى للصين والهند وإيران الذى نقلته من حضارة بغداد، بل بتراثها هى الموجود عند اليونان. فمن خلال شروح ابن رشد ، ومحاوراته لأرسطو استطاع ألبير الأكبر وتوما الأكوينى أن يطورا مذهبيهما،وان تنمو الرشدية اللاتينية(فقد استقبلت أفكار ابن رشد فى الغرب منذ عام ١٢١٠ م استقبالاً حسنا واعتنقها بعض المفكرين المسيحيين فى تمردهم على القساوسة ورجال الدين المسيحى وعرفوا بالرشديين اللاتينيين.فتحركت السلطات الدينية ضدهم ووجهت إليهم ضربة قوية بإدانتهم عام ١٢٧٠ م، وبدا لحين أنه قضى على الرشدية اللاتينية، لكنها تشبثت بالبقاء وظهرت من جديد بعد ذلك واستمرت حتى عصر النهضة) فيما بعد فى جامعة باريس على يد سيجر دى بارينت، وفى جامعة أكسفورد، ثم فى جامعة إيطاليا على يد بياه دى لاميراندول فى القرن الخامس عشر(المرجع السابق).

وفى مجال آخر يؤكد تلاقح الحضارات والثقافات، وأن الحضارة التى فى حالة صعود تأخذ الجوانب الإيجابية وتترك الجوانب السلبية فى الحضارات السابقة فقد نقل العرب نظام الترقيم عند الهند فقد وجدوا أنه أيسر من حساب الجمل الذى كانوا يستعملونه، اختاروا سلسلتين عرفت إحداها باسم الأرقام الهندية (١،٢،٣) وهى المستعملة فى معظم البلاد العربية، وعرفت الأخرى باسم الأرقام الغبارية وهى التى انتشرت فى بلاد المغرب كالأندلس ومنها دخلت أوربا حيث تعرف باسم الأرقام العربية (1.2.3) وما زالت هى المستعملة فى المغرب العربى حتى الآن..

وكان الخوارزمى أول من استعمل الأرقام الهندية فى مؤلفاته. وكتابه فى الحساب الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة، وقد نقل إلى اللاتينية وظل زمناً طويلاً مرجع العلماء، وبقى الحساب معروفاً عدة قرون باسم "الغوريشى" نسبة إلى الخوارزمى.. وكذلك كان الخوارزمى أول من ألف فى علم الجبر، حيث يمكن أن يقال أن الخوارزمى هو واضع علمى الحساب والجبر، ومازال اللفظ الذى استعمله العرب للدلالة على هذا العلم مستعملاً حتى الآن وقد استطاع العرب حل معادلات من الدرجة الثانية بل من قوى أعلى. واستعملوا الرموز فى المعادلات ووضعوا أسس الهندسة التحليلية، ومهدوا لاكتشاف اللوغاريتمات والتفاضل والتكامل، وعرفوا المتواليات العددية والهندسية ولهم بحوث فى النسبة العددية والهندسية والتأليفية (تراث العرب العلمى ـ قدرى طوقان). وتتجلى عبقرية الخوارزمى كما يراها الدكتور مشرفة فى أنه خلق علمًا من معلومات مشتتة وغير متماسكة كما خلق نيوتن علم الديناميكا من معلومات مشتتة عرفت قبله. لقد كان ينبغى أن ينتقل حساب الهنود، وهندسة الإغريق إلى عبقرى كالخوارزمى الذى وضع علم الجبر وعلمه للناس أجمعين(تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه د.عبد الحليم منتصر ـ ١٩٦٦).

ونخلص من هذا العرض الموجز، إننا كعرب نملك المرتكزات الثقافية اللازمة للانطلاق قدماً، أو على الأقل للإفلات مما نحن فيه من ضعف وتراجع، وأنه لا حتمية للتخلف تلتصق بنا، فلا شك أننا نملك من بديهيات رأس المال الثقافى عناصر إيجابية واضحة

من تراثنا الروحى والقيمى والأخلاقى مستوحاة من الدين تحض على العمل والإتقان والصدق والأمانة، وتدفع الإنسان إلى التقدم، وتطمح إلى التناسق مع مكونات الحياة جميعاً باعتبارها أمانات علينا أن نؤديها بإخلاص وهذه المفردات الواضحة ضمن محتويات أى رأسمال ثقافى كفيلة لو حرصنا على تحقيقها - بدفعنا إلى الأمام - بل إن حرصنا على استعادة هذه العناصر الغائبة أو الضائعة منا، سيجعلنا نراها لدى غيرنا ممن أحسنوا فى الدنيا عملاً ودأباً. ونتعامل معها بمنطق أنها بضاعتنا ردت إلينا، لنزيدها وننميها ونضيف إليها، والحضارة لا حدود ولا وطن لها، وهى نتاج تلاقح مستمر بين الثقافات المختلفة على مدار الأزمنة المختلفة، من أجل ولادة الأفضل، والانتخاب الطبيعى لأحسن الصفات التى تضمن البقاء للأصلح، والسعى وراء الحكمة والمعرفة أينما كانت يصبح فرض عين علينا جميعاً، فالعلم ليس شرقيًا أو غربيًا، أو إسلامياً أو مسيحياً أو يهودياً، ولكنه ملك للإنسانية جمعاء، وتراث للبشرية كلها، وهو السبيل الوحيد لكى نصبح أمة تتحضر بدلاً من أمة تحتضر..!!.

ضلالة أن الزمن الجميل قد ولى ولن يعود

وهى إحدى الضلالات التى تعشش فى العقل العربى وتسيطر على أدبيات التفكير المعاصر، وتعتقله فى مقولة أن الزمن الجميل قد ولى، وأن السلف خير من الخلف، بل تجره فى أغلب الأحيان إلى الاعتقاد بأن التقدم لن يتحقق إلا بإتباع الطرق والوسائل التى اتبعها السابقون، وتدفع إلى التقليد والمحاكاة التى تقيد العقل وتكبله فى فكرة أن القديم هو الصالح وأن كل جديد طالح. وقد وصل الأمر أن استشرافنا للمستقبل يحصرنا فيما حدث منذ خمسة عشر قرناً، وكأننا أعيتنا الحيلة فنتصور أن حل مشاكلنا المعاصرة لن يتأت إلا بإتباع نموذج ما جرى منذ تلك السنين البعيدة، ناسين أن لكل وقت طريقة ووسيلة تختلف عما سبقه وتتناسب مع ما يحيط به من متغيرات ودوافع وطموح..!

والتاريخ يعطينا أمثلة كثيرة على ذلك، فتاريخ أى حضارة يشتمل على جوانب سلبية وأخرى إيجابية، ومنحنى الحضارة العربية نفسه مر بثلاث مراحل مختلفة، فمرحلة

الصعود فى المنحنى هى المرحلة التى وفق أحمد أمين فى تسميتها "فجر الإسلام" (فجر الإسلام ـ أحمد أمين) وهى الفترة التى تبدأ بإعلان الدعوة الإسلامية، سنة ٦٠٨م وتنتهى بسقوط الدولة الأموية، سنة ١٣٢ هـ /٧٤٩ م. (حوالى مائة وأربعين عامًا) أما مرحلة الاستمرار أو الثبات فى المنحنى فاستمرت منذ منتصف القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر عندما بدأ المنحنى فى الهبوط إلى أن سقطت الأندلس..

ما هى الأسباب التى أدت إلى هذه النهضة؟ إن التحرى الدقيق يضعنا أمام ثلاثة عوامل:

١ ـ هزات عنيفة أيقظت العربى من حياته الساذجة الضيقة الرتيبة.

٢ ـ مشاكل حيوية ملحة حالت دون ارتداده إلى حياة الدعة والخمول.

٣ ـ ظروف مواتية سهلت له سبل الارتقاء والتمدن.

١ ـ الهزات العنيفة: وأولها ظهور الإسلام كدين سماوى جديد على يد نبى الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والذى حظى بحب وتقدير وإجلال وطاعة المسلمين الأوائل، وامتد بعد ذلك على مدى العصور. والإسلام منذ بداياته كان يتحدى العقول ويستفز المشاعر بكل أساليب التنبيه وإثارة الوعى، ويخاطب الفطرة السليمة فى الإنسان، ويعمل على بث الوعى الجديد فى سكان الجزيرة العربية وسكان المناطق الأخرى التى وصل إليها الإسلام فيما بعد. وثانيها كتاب القرآن بمضمونه العقائدى الجديد، وقيمه السامية التى نازلت بكل شجاعة وجرأة، كل القيم الوثنية الجاهلية، فالقرآن، بدعوته إلى إعمال العقل وإلى النظر المتفحص المتأمل فى ظواهر الكون مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ﴾ «سورة آل عمران ٢٣ آية ١٩٠». والقرآن بلغته العذبة الموسيقية، ومنطقه الذى يخاطب العقل والوجدان، مما دعا العرب إلى اعتباره معجزة الإسلام الكبرى. وثالثها دعوة الإسلام العرب إلى منازلة القوتين العسكريتين المسيطرتين على الشرق، الفرس والروم، والأعجب من هذا، انتصارهم عليهما جميعاً فى آن واحد، رغم جيوشهم الجرارة

المدربة وأسلحتهم الجبارة، ونظمهم الإدارية الدقيقة، فزالت دولة الفرس، وولت دولة بيزنطة الأدبار تاركة للعرب مصر والشام..

ورابعها هذه العوالم الجديدة ذات المدنية الراقية التى بهرت عيون العرب البدو، فى بلاد فارس وفى مصر والشام، بكل ما فيها، لأن كل شىء فيها كان عجيباً ومذهلاً:النظم، والإدارة، الثقافة، المدن بدورها وقصورها وفنونها وترفها..

هذه بلا شك هزات بل صدمات، كانت خليقة بأن تفتق القرائح وتستفز المواهب الراقدة وتؤجج جذوة الذكاء الخابية. وفكرة الهزات أو الصدمات القوية التى صاحبت صعود وهبوط الحضارات حدثت تقريبا فى كل الحضارات، وقد تكون هذه الهزة فى صورة ظهور دين جديد مثلما حدث مع ظهور الإسلام أو فى اختراع جديد مكن العالم من إحراز تطور جذرى مثل اختراع الطباعة الذى هيأ للثقافة أن تنتقل إلى جميع الناس، أو اختراع البوصلة الذى سمح بالإبحار فى البحار العليا، وربط البشر فى جميع أنحاء العالم بعضهم ببعض، أو المحرك والآلات التى تعمل بالبخار، أو البارود الذى اخترعه الصينيون كما اخترعوا الورق والطباعة والبوصلة من قبل، أو اكتشاف أرض جديدة مثلما حدث فى اكتشاف الأمريكتين، أو حرب تنتصر فيها حضارة على حضارة أخرى، فإذا كانت الحضارة المنتصرة حضارة واعدة، كانت آثار إيجابية لكل من المنتصر والمهزوم مثلما حدث عندما أخرج الفاتحون المسلمون أوربا قسراً من أسوأ مراحلها الحضارية على الإطلاق بدخولهم لأسبانيا وبداية دولة الأندلس المزدهرة فى هذه المنطقة.. أما فى التجارب الأخرى والتى انتصرت فيها حضارة أدنى على شعوب ذات حضارة أرقى، كما حدث فى حالة اجتياح المغول لأراضى الإسلام وهو ما صحبه تدمير كبير وانهيار حضارى واضح فى هذه المناطق.. ونفس هذا الاجتياح المغولى والصدمة التى تسبب فيها قد يكون هو نفسه الذى أدى بعد ذلك إلى توحد الدولة تحت راية صلاح الدين الأيوبى، وولد القوة الدافعة اللازمة والانتفاضة الواجبة لصد هذا العدوان واستعادة الدولة لقوتها وازدهارها لفترة طويلة بعد ذلك..!!

٢ـ المشاكل الحيوية: أخذت تلاحق العرب وتطاردهم في كل شأن من شئون الحياة، منذ أن أخذوا يتطلعون إلى ما وراء حدود جزيرتهم، حينما غادروها فاتحين، فبدأت تواجههم مشاكل متعلقة بالجيوش وتعبئتها، وبالبلاد المفتوحة ومعاملة سكانها، وبالدين ونشره، وبالنظم الاجتماعية والإدارية المخالفة لتعاليم دينهم.. إلى غير ذلك من مشاكل داخلية متعلقة بالخلافة والأحزاب والمذاهب.. وكلها معضلات وتحديات جديدة لم تكن موجودة قبلاً، وتقف فى سبيل العمل عثرة، ما لم تعالج على وجه السرعة ببصيرة نافذة وعقل مرن ثاقب..! فالتحديات الجديدة استوجبت التفكير فى حلول جديدة..!

٣ـ الظروف المواتية: أحدها الثروة الطائلة التى درتها الحروب والفتوحات على العرب المنتصرين، فسعت إليهم، سواء أكان من باب الغنيمة والأعطية، إذا كانوا مقيدين فى ديوان الجند، أم من باب الرزق، إذا كانوا من عمال الدولة، أو كما نقول اليوم من الموظفين، أم من قبيل الأجر والفريضة، إذا كانوا من أبناء المقاتلة، أم من قبيل الزكاة والصدقة، إذا كانوا من المعوزين ، أو من الفىء، إذا كانوا من أهله (الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب ـ سامى اليافى ـ ١٩٦٢).

ولا شك أن الإصلاح الذى أدخله الخليفة عمر بن الخطاب على توزيع أربعة أخماس الغنيمة، والرواتب الثابتة التى استطاعت الدولة أن تدفعها لموظفيها، ساهمت فى تكوين طبقة ثرية من العرب، جاء على رأسهم الصحابة وأهل العقد والحل من المهاجرين والأنصار، فمكنهم من العكوف على بحث شئون الدين، والتفرغ لتفسير القرآن وتحرى الحديث، والنهوض بأعباء القضاء والإفتاء، والتوسع فى الاجتهاد، ووضع أسس التشريع التى يبلورها أصحاب المذاهب الأربعة، وبذلك نمت حركة علمية دينية قوية، هى من أهم النواحى الفكرية فى هذا العصر (المرجع السابق).

ولأن الدولة الأموية قامت على القهر والحيلة، وكان لابد لها من عصبية تستند عليها، فقد قامت بإذكاء العصبية القبلية والتناحر بين القبائل المختلفة لتحقيق أغراضها فى تكريس السلطة والحكم، فرفعت رواتب الجند وراحت تغرف من بيت المال لتبتاع الولاء ثم لتقطع ألسنة الشعراء المخالفين والنقاد، إلا إنها خصت بسخائها قريشاً

ووجوه عرب الحجاز، والمطالبين بالخلافة والسلطان، لتصرفهم عن التطلع إلى السياسة والطمع فى الإمارة، فاندفعت هذه الطبقة، وهم أرستقراطية قريش المحرومة تسرى عن نفسها، تلهو وتطلب النسيان بالانغماس فى حياة الترف والمرح والطرب والشرب والمجون، وملئوا دورهم وقصورهم بالموالى والإماء، وبدأت الفتن والحروب والتقاتل بين المسلمين وبعضهم، وقد ظلت بغداد مثلاً ميداناً للتقاتل بين الشيعة والسنة والحنابلة وغيرهم من أصحاب المذاهب زمناً طويلاً، فهلكت أنفس وخرب عمران بل تتابعت الفتن ووقع الخراب، ومازالت الفتن والمحن متواترة إلى أن أحرقوا من الجانب الغربى ما لا يحصى من الدور والمساكن والحوانيت وقلت المعايش، وكثر الجور، وفترت الهمم عن طلب العلوم وغيرها، وبينما كانت بغداد فى القرن الثانى والثالث والرابع عاصمة العلم والفلسفة والأفكار، فأمست فى القرن الخامس والسادس والسابع بؤرة الجمود والانحطاط الفكرى..! وفى قرون الانحطاط أى القرون الثلاثة الأخيرة وصل الأمر إلى حد كان من خالف الجمهور ولو فى مسألة صغيرة عرضة للقتل، لأن القوم أصبحوا ونفوسهم لا تشفى ممن يخالفهم فى معتقد أو فكر إلا أن يضرب عنقه، بل أصبح الحديثى ينظر إلى الفقهى، والشافعى إلى الحنفى والفروعى إلى الأصولى نظراً شزراً، وأصبحوا كلما نبت نابت من الرجال يقول بمقالة تخالف من بعض الوجوه مذاهب السياسة يقتل على مذهب مالك، فقد ذهب الإمام مالك ومن وافقه من أصحاب الشافعى إلى وجوب قتل الداعية إلى البدع، وكان الخليفة بغنى عن فتوى مالك عندما يحتاج إلى قتل أمثالهم لأن حكمه شريعة يجب تنفيذها فى نظره، فلما ضعف الملوك لم يجدوا أحسن من العمل برأى مالك فى قتل كل من خالف فى مسائل..! (الجمرة المطفأة ـ اضطهاد المفكرين عبر التاريخ ـ عماد مصطفى ـ ١٩٩٥).

وقد حاولت الأيديولوجيا الأموية توظيف النص الدينى توظيفاً سياسياً مكشوفاً لتجريد الإنسان من قدرته على الاختيار، وعلى التمييز العقلى بين القبح والحسن، وفرض الطاعة لأصحاب السلطان فقيل مثلاً" فالله عز وجل علم أنه لا قوام لشىء ولا إصلاح له إلا بالطاعة التى يحفظ الله بها حقه، ويمضى بها أمره، وينكل بها عن

معاصيه"..! ولم يقتصر هذا الفكر الجبرى على أصحاب السلطة، بل جند له خطباء المساجد، والشعراء، والقصاص، وبلغ الأمر إلى وضع أحاديث ونسبتها إلى أساطين رواة الحديث أمثال أبى هريرة وعائشة، وابن عمر لفرض الطاعة، وإعفاء الخلفاء من العقاب يوم القيامة، فقد جاء فى إحدى الروايات أن جبريل أتى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال" يا محمد أقرئ معاوية السلام، واستوص به خيراً فإنه أمين الله على كتابه ووصيه، ونعم الأمين" وجاء فى نص آخر أن النبى قال:" الأمناء ثلاثة جبريل وأنا ومعاوية"..! كما روجوا أحاديث تعفى الخلفاء من العقاب يوم الحساب مثل "إن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات، ولم يكتب له السيئات" ويقول نص آخر "إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار"..!(قيمة الحرية فى الفكر العربى ـ د. الحبيب الجنحانى ـ العربى ـ سبتمبر ٢٠٠٤).

ولو أمعنا النظر قليلاً فى أحوالنا الحالية لوجدنا ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه أحوالنا فى الماضى بأحوالنا الآن.! فمازال الحاكم تضاف عليه هالات القداسة الكاذبة والتبجيل المغرض، ومازال كل كلامه وأفعاله مرجعية يشار إليها بالبنان، ولا يمكن مناقشتها، أعفى من الحساب، وأصبح نقد النظام يوجب المساءلة، والكلام فى نزاهة الحكومة جريمة تستوجب العقاب، والتهليل للحزب الواحد فريضة من لا يقيمها يهمش وينحى جانباً،ورجال الدين يسيرون فى درب الحكم وورائه وليس أمامه، والفساد يتم حمايته والتغطية عليه وتبريره..! كنت فى زيارة لمتحف آية صوفيا فى مدينة أستانبول فى تركيا والذى كان قصراً للسلاطين الاتراك قبل عدة قرون وطالعتنى على المدخل الرئيسى لوحة كبيرة مكتوبة بالذهب تقول "السلطان ظل الله فى الأرض"..! واللوحة الصدمة تلخص ذلك الوضع المهين الذى آل إليه الحال فى أوطاننا،وهو مهين فى جميع الأحوال.! فإذا كان الذى وضعها هو السلطان نفسه فكيف قبلها الناس وفيها جوار على مبدأ الوحدانية الذى يعتبر أهم ما يميز الإسلام، ونحن نعلم مدى غيرة المسلمين على دينهم.! وإذا كان الذى وضعها من هيأ لهم عقلهم المريض أن صبغ صفة الإله على الحاكم يطيل عمرهم وعمر الحاكم الذى يخدموه، فلينظروا خلال التاريخ إذا كان ذلك

قد أطال عمر حاكم أو ثبت أقدامه فى الحكم..! وعلى الرغم من تلك الحقيقة الساطعة فقد مارس الحكام والملوك ذلك التوجه فى إضفاء صفة القداسة على حكمهم طوال التاريخ باستمرار وإصرار وغباء يحسدون عليه..! وأغفلوا حقيقة أن تطور عقل الإنسان وتطور الحياة نفسها يجعل ما مارسه الملوك والحكام القدماء قبل ذلك العصر بآلاف السنين لا يمكن قبوله بأى حال فى عصرنا الحالى..!

والذين نصبوا أنفسهم أولياء على الدين بدون سند شرعى من النص الدينى هم الذين حكموا بتكفير ابن سينا والفارابى والكندى، وكل من قال بقولهم فى زمانهم، وامتد هذا التسلط إلى العصر الحاضر، فهم نفسهم الذين كفروا على عبد الرازق لكتابه "الإسلام وأصول الحكم" وطه حسين فى "الشعر الجاهلى" ونصر أبو زيد فى "نقد الخطاب الدينى"، وهم أيضاً الذين أصدروا الأوامر بمصادرة الكتب أو تقديمها للمحاكمة مثلما حدث مع لويس عوض فى" مقدمة فى فقه اللغة العربية" أو حسن حنفى فى "التراث والتجديد" و"أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ، وهى مجرد أمثلة من ممارسات مدعى ملاك الحقيقة، لا يكفى المجال هنا لحصرها لأنها ـ كما أوضحنا سابقًا ـ كانت موجودة فى كل عصر وستظل تظهر حينًا وتخبو حينًا أخر تبعا لحالة العقل المسلم، فحينما تخبو شمعته التى تضىء له الطريق، تخرج طيور الظلام الجارحة من كهوفها لتهاجمه وتنهش فيه، لأنها لا تعيش إلا على الأجسام الضعيفة أو الميتة..!

والأدب والفن حينما يكتسبا طابع التحجر، ويزداد انغماس الدين فى المسائل الشكلية، والخلافات الوهمية، والعصبية المقيتة والتطرف المدمر، والتعلق بالخرافة، ويخبو توهج العقل، يبدأ تدهور العلم فيصبح متسماً بالتكرار وفقدان الجدة وفقر الدم، ويدخل فى الدائرة الخبيثة من تدهور إلى تدهور أكثر وهكذا..!

وقد تعمدنا بهذا العرض السريع لتبيان فكرة أن حصر فكرة التقدم فى المضى قدمًا على طريق السلف، وتقليد طرقهم وأساليبهم فى معالجة مشاكل عصرية جديدة تولدت من رحم الحضارة الحديثة بما تمثله من تحديات جديدة لم تكن موجودة فى الماضى، وما تمثله العودة للسلف، ومن الاستغناء عن ضرورة التفكير فى حلول مبتكرة للمشاكل

الجديدة، يمثل نـوعاً من الطفولـة العقلية، والـعبث الفكرى، فـالحضارة عملـية تراكمية توضع فيها لبنة فوق لـبنة كل يوم، ويضاف دائماً إلى البناء أدوار مستحدثة، وكل يوم تكتسب إنجازاً جديداً، وهى ملك لكل الإنسانية، وهى نتاج عمل البشر أجمعين على مدى العصور، وحق لـلبشر كلـهم فى جميع الأزمنـة والعصور، لا يسـتطيع عاقل أن يدعى باحتكارها، ولا يقبل حر أن يمنعها أحد عنه، فالحقوق تؤخذ ولا تمنح..!

ولا توجد إمكانية للرجـوع إلى الخلف، فلا يمكن مثلاً أن نلتفت لدعوى حمل السيف والخنجر فى زمن القنـابل الذكية والقنابل الموجـهة بالأشعة تحت الحمراء، ولا يمكن أن يكـون استعمال الناقة بديلاً عن استعمـال السيارة والطائرة، ولا يمكن لدعاوى الانعزال والتقوقع أن تلغى ثورة الاتـصالات والعوالم المفتوحـة، ولا يمكن للحمام الزاجل من أن يلغى الإنترنت والألياف الزجاجية والبلوتوث..!!

ومن المهم فى هذا المجال التأكيد على أن الحضارة ليست فقط فى الأدوات والأشياء والمظـاهر المادية التى تستخدمها والتى تفرزها تـلك الحضارة، ولكنها فى طريقة التفكير والفعل التى أخرجت تلك الأشياء، فالحضارة الإسلامية، كما أوضحنا اعتمدت على القوة الدافعة التى وفرها الدين الجـديد، فى تقديم روح جديدة وفلسفة للفعل والعمل، وليست فلسفة للخمول والتـواكل، وهذا ما سمح بتجدد كل العلوم، وازدهارها، وسمح للإنسان بالمشاركة فى فعل الخلق لعالم فى حالة تولد دائم وتغير دائم. وحينما بعد المسلمون عن الروح الخلاقة المميزة للإسلام، وقعوا فى براثن الانغلاق وعبودية التقليد، وطغى عليهم التحجر والجمود، واعتقلوا أنفسـهم فى سجن الخرافات والضلالات والمحرمات..! حينئذ فقط بدأ منحنى الحضـارة الإسلامية فى الهبوط، إلى أن وصلـنا إلى عصور الانحطاط الحالية..!.

ونكاد نجزم أن النظرية الإسـلامية للمعرفة (كما أشرنا فى فصل سابق) والتى تنطلق من الفـعل الخلاق، وهى النظرية التى استعارتـها بعد عدة قرون الفلسـفة الغربية لتبنى عليها دعائم نهضتها الحديثة، ووضعت أسس المنهج التجريبى الحديث، والتفكير العلمى السلـيم، بل استطاعت أن تتفوق عـلى الفلسفة الغـربية وتتميز عـنها بما تملك من قدرة

هائلة على ربط العلم والحكمة والإيمان ربطاً عضوياً ـ مازالت ـ تمتلك نفس القوة الدافعة وقادرة على دفع وتحفيز المسلمين الجدد بنفس القوة وقوة الدفع مثلما حدث مع المسلمين الأوائل..!

ولكن المهم الآن أن نأخذ من دروس التاريخ عظة، ونستوعب الحكمة فى أسباب صعود وهبوط الحضارات المختلفة، ونعى أن لكل عصر حسناته وسيئاته، فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة متعددة الجوانب، حققت الكثير من الإنجازات، وحفلت بالعديد من السلبيات، شأن كل حضارات البشر، ولكنها فى النهاية كانت حضارة إنسانية فتحت ذراعيها لكل الأجناس والديانات فأفادت منهم وأفادتهم، وربما يكون هذا هو السبب فى أن هذه الحضارة هى الأطول عمراً بين حضارات البشر، والأوسع فى مداها الجغرافى، كما أن مراكز الثقل فيها تنقلت بين كل الأقاليم الحضارية فى العالم.

وفى المقابل لقد كانت الحفاوة الكبرى التى تلقى بها الناس كتبًا مثل كتاب "اضمحلال الغرب" لشبنجلر(١٩١٨/ ١٩٢٢) وكتاب "دراسة التاريخ" لآرنولد توينبى (١٩٣٤/ ١٩٥٤) آية على رغبة المجتمع الغربى فى فهم الحاضر على ضوء الماضى، وتعبيراً عن الفزع الذى أصاب الإنسان من التفكير فى المستقبل..! لقد كان شبنجلر يرى أن الحضارة لا تبلغ مرحلة النضوج إلا حين تكف عن النمو، وأن الحضارة الغربية قد تجاوزت بالفعل أوج النجاح، وأخذت تنحدر نحو الانحلال. ويقول توينبى أن الحضارات الست والعشرين التى سبقت حضارة العصر الحاضر قد فقدت دفعتها القوية بعد فترة من النشاط والإنجازات. وأنه لا يرى ما يمنع أن يكون هذا مصير الحضارة الغربية أيضًا، وإن لم ينكر نظريًا إمكان إعادة الشباب إليها عن طريق حركة بعث دينية..! أما ولتربرسكوت (الحد الكبير ١٩٥٢) فقد حاول أن يثبت أن الظروف التى أوجدت الحضارة الغربية وحافظت عليها منذ رحلات الاستكشاف الكبرى الثروات البكر لحوالى ٢٠ مليونًا من الأميال المربعة من أرض خرافية فى ثرائها هذه الظروف لم تعد موجودة، وأن الحضارة الغربية قد أخذت فى الانهيار نتيجة لذلك (تاريخ البشرية التطور العلمى والثقافى ـ إعداد اللجنة الدولية لليونسكو ـ ١٩٧١).

وإذا نظرنا إلى أسباب النهضة كما أوردناها سابقاً، سنجد أن المعطيات الأساسية لتلك النهضة مازالت موجودة ونملكها تحت أيدينا أكثر من غيرنا من الأمم، وهذه المعطيات والركائز لم تتغير ولم تتأثر بالتغيرات السريعة التى حدثت فى القرن العشرين، مثلما تغيرت وتأثرت وأدت إلى تزعزع الإيمان فى الفكر الغربى الحديث، فالإسلام مازال قائماً، وهو الدين الوحيد الذى نجا من التحريف والتغيير على مدى العصور، فقد حافظ المسلمون عليه كما أنزل من الله، كما أن هناك أكثر من مليار من البشر يؤمنون به، وتعاليم الإسلام الداعية إلى تحسين نوعية الحياة للإنسانية كلها مازالت تقدم القوة الدافعة اللازمة لأى تقدم، وعبقرية الإسلام الكبرى تتمثل فى أنه دين لكل العصور ولكل البشر، وهو دين صالح لمجابهة كافة التحديات والمستجدات التى تواجه الإنسان.

فقد فاجأ الإسلام الناس بأصل لم يكونوا يحلموا به، ولا يتوقعوا أن يسمعوه فى عهد من عهودهم، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له" وكانت سنة قادة الأديان قبل ذلك فى مشارق الأرض ومغاربها كما قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر" أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى"..! ثم عزز الإسلام هذا الأصل بأصل ثان ليس بأقل من الأول دعوة إلى الثورة فى الدين، وهو الثورة على التقاليد والموروثات وعلى المقلدين للآباء والأجداد، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فقال تعالى :﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون ﴾ . (الإسلام دين عامر خالد ـ محمد فريد وجدى ـ ١٩٣٢).

والدين الذى يدعو للعلم ـ أى علم ـ بكل ما يحتمله لفظه ومعناه، وبكل ما يؤدى إليه فى الحياة. والدين الذى يفرض على ذويه النظر فى السموات والأرض﴿ قُل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى:﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾، وقوله: ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ والذى يقول أنه يضرب للناس الأمثال وما يعقلها إلا

العالمون(بكسر اللام)، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم فى حقه، والذى يقول رسوله: "فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد ويقول: "فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة"، ويقول أيضاً النبى ﷺ : «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت» أى لو خرجت من فم آثم أو كافر، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شىء. إن الدين الذى يفعل ذلك يدفع أهله دفعاً إلى طلب العلم، وطلبه يؤهلهم لطلب الترقى فى مناطق لم تخطر ببالهم ولم تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها.! وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى كان يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً، ليغلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر، يصبح بعد مئة وخمسين سنة فقط يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين آن ذاك.! بل وصل إلى الحد الذى فيه وضع فرضياته الخاصة بهذا العلم ليتعلم منه بنو البشر الآخرون ويصبح الحافظ لميراث الإنسانية العقلى من ناحية، والواسطة فى إحيائه، وتسهيل سبل الانتفاع به من ناحية أخرى..!!.

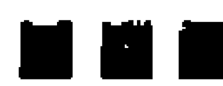
والإسلام كان ومازال دين يسع كل ما يجد من الآراء العلمية ولم يحدث أى اصطدام بين العلم والدين، فعندما أطلق الإسلام العقل من عقاله وأعطاه كامل سلطاته، كان يعلم أن هناك مذاهب وآراء سوف تصطدم بظاهر ألفاظ الكتاب، فاحتاط العارفون بأسرار هذا الدين فوضعوا قاعدة كلية فى كتبهم الأصولية وهى:أنه إذا خالف حكم العقل، تأويل ظاهر نص الكتاب والسنة، وجب التعويل على حكم العقل، وتأويل ظاهر النص. ومثل هذه القاعدة لم تتح الاصطدام بين الدين والعلم، ولا بالمذاهب الفلسفية فى العهد الذهبى للمسلمين، فكان فى هذه القاعدة مخرج للعلماء فى الأخذ بالآراء أيا كانت، فى الجرى بالعلم والفلسفة إلى أقصى حدودها غير متحجرين ولا متأثمين..!

هذه القاعدة الأصولية من أعظم ما أوجده الإسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم، والموطدة لدولة العقل، وهى فى نفس الوقت من أدعى القواعد للإعجاب بسمو هذا الدين، وللتعجب من سبقه للعالم كله بنحو عشرة قرون لتقرير الدستور العلمى، ولإطلاق حرية النظر والتفكير بغير اعتداد بشىء غير مصلحة العلم خالصين من كل وصاية ورقابة. ومن أعجب العجب أن المفسرين الأوائل جروا على سنة العلم نفسه، فقرروا كزوية الأرض

وسواها من المسائل التى تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب، صائرين إلى تأويلها لتوافق مذهب العلم، مستفيدين من تلك القاعدة الأصولية العظيمة، فكانوا بذلك ممهدين لأقوم السبل لمن يأتى بعدهم، وكشف للناس مالا يخطر على بال..! (المرجع السابق).

أما الظروف المواتية فهى كثيرة ومتعددة حتى ليصعب حصرها، فالعالم الإسلامى اليوم أصبح يشمل منطقة جغرافية مترامية الأطراف، تنصهر فى بوتقتها عدة حضارات قديمة وحديثة، وتضرب بجذورها فى التكوين الثقافى لهذه المجتمعات، كما تتمتع بالثروات الطبيعية من نفط ومعادن وأرضٍ خصبة وأنهار وبحار ومحيطات، وبعض المجتمعات فى المنطقة تمتلك التكنولوجيات الحديثة، ولكن الأهم من ذلك هو امتلاك العرب للثروة البشرية التى لو أحسن إعدادها وتعليمها لهيأت لهذه المنطقة كسر قيود التخلف، والانطلاق قدمًا إلى الأمام..! كما أن مواجهة التحديات الكثيرة التى باتت تهدد مجتمعنا من كل صوب وحدب، أصبحت ضرورة ملحة للبقاء فى عالم لا مكان فيه للضعفاء أو المتخاذلين أو السفهاء وفاقدى الأهلية وذوى الغفلة..!.

تلك كانت بعض الضلالات التاريخية والأوهام العصرية التى تعيق قراءتنا الواعية لأسباب الحضارة، وأول خطوة فى هذا المجال ـ مجال اللحاق بركب التقدم ـ أن نتخلص من تلك الضلالات التى تعشش فى عقولنا على مدى التاريخ، وتسيطر علينا، وتجرنا إلى الخلف دائماً، ونملك القدرة والشجاعة الكافية على أخذ أحسن ما فينا وترك السيء وراءنا، فمن لا يملك القدرة على الاستفادة من الماضى لا يستطيع استشراف المستقبل، ومن يعيش فى الماضى فقط، لا يمكنه اللحاق بقطار المستقبل، وبدون حرية يموت العلم وتفسد ثمرات الادراك، وكل من أبطلوا أو أبطأوا حركة البحث وشلوا قدرات التفكير باءوا بسبة الدهر..!.





تابيولا رازا..
أو اللــوح الخالــى..!!

□□

تابيولا رازا Tabula Rasa كلمة شائعة فى الفكر الفلسفى والنفسى الحديث، ورغم أنها تستعمل بكثرة الآن إلا أنها قديمة جداً وأول من ذكرها كان أرسطو، وهى كلمة لاتينية مكونة من كلمتين وتعنى بالإنجليزية clean slate أو «اللوح الخالى» أو «الكبسولة النظيفة»، وهى تعنى أن العقل الإنسانى عندما يولد لا يوجد بداخله أى محتويات عقلية.. وأن جميع مصادر المعرفة يتم تكوينها بعد ذلك من الخبرات المتراكمة وقدرة النفس على استقبال المحسوسات من العالم الخارجى..

وتستخدم كلمة تابيولا رازا أو الشريحة الخالية فى عدة تخصصات، ففى علوم الكمبيوتر الحديثة تستخدم لتفيد وجود مكان فى الشريحة لاستيعاب المعلومات ولكنه فى حالة الكمبيوتر فهو مبرمج مسبقاً لاستقبال تلك المعلومات، أما فى عالم الهندسة المعمارية فيستخدم نفس التعبير للدلالة على المخططات التى تشمل إزالة مناطق وأحياء قديمة كاملة من أجل إعادة تخطيطها وبنائها بطريقة حديثة..!

وقد ذكرها أرسطو فى كتابه «مع الروح» قائلاً:«ما يعتقده العقل يكون مثل حروف مبعثرة داخل حبة.. ولكنها لا تعنى أى كتابة معينة.. وهو ما يحدث بعد ذلك فى تكون العقل..»

ولم يلتفت إلى كتابات أرسطو فى هذا المجال إلا بعد ١٨٠٠ عام وفى القرن الثالث عشر عندما أعاد الأسقف توماس الأكوينى ذكرها فى معرض حديثه عن التفكير الحديث.. وقد عبر جون لوك Locke عن نفس الفكرة فى القرن السابع عشر.. وهى فى

فلسفة لوك أن العقل الإنسانى يكون عند الولادة مثل الشريحة أو اللوح الخالى..بدون أى قواعد للتعامل مع المعرفة.. وتتم إضافة هذه المعرفة وقواعد التعامل بها بالخبرات الحسية المكتسبة بعد ذلك، وهو ما أطلق عليه ـ الروح ـ!، وقد فطن لوك أيضاً إلى أن هناك حرية لكل شخص فى تكوين هذه الروح وتعريف محتويات ومكونات هذه الشخصية، ولكن تبقى طبيعته الأساسية كإنسان هى التى لا يمكن تغييرها..!

ومن هذا الفرض الذى يؤيد فكرة حرية وقدرة العقل الذاتية، مضافاً إليها طبيعة الإنسان، تكونت أفكار لوك عن كيفية تولد الحقوق الطبيعية للإنسان..

ورغم اقتناعه بفكرة حرية وقدرة العقل الذاتية إلا أن هذا لم يمنعه من محاولة تبرير ممارسات عصره فى الاستعمار والاستيطان، فقد سيطرت النزعة العنصرية وازدواج المعايير على تفكير جون لوك الذى كان عضواً فى حزب الهويجنز البريطانى وفيلسوفه والذى كان يؤيد فكرة الاستعمار وملكية العبيد وشاركه فى هذه الأفكار أكثر مفكرى القرن الثامن عشر المتحدثون بالإنجليزية مثل دافيد هيوم وبنيامين فرانكلين وغيرهم، الذين استخدموا فكرة تدنى القدرات العقلية لبعض الأجناس، لتبرير توجهات الاستعمار والاستيطان فى الأراضى الجديدة إلى الحد الذى اعتبروا فيه أن هجمات الأوربيين المسيحيين على الأفارقة والأمريكان على الهنود الحمر أنها «حرب عادلة» لأخذ أرض جرداء ليس للسكان الأصليين حق امتلاكها..! وقد عبروا بصراحة عن الآراء الشعبية المنتشرة فى ذلك الوقت بأن لون البشرة الداكن مقترن بالتدنى العقلى والروحى، وقد عم فى القرن السابع عشر رأى يقول أن الزنوج لا يرقون إلا بمقدار حلقة واحدة فوق القردة..! (أثينة السوداء ـ مارتن برنال ـ ١٩٨٧).

وهو نفس التوجه الذى تم من خلاله تمرير الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية وتبرير استعباد شعبها والتنكيل بهم..! والأمر اللافت للنظر فى هذه التوجهات هو مدى السذاجة والعنصرية الواضحة فى تكوين هذه التوجهات وعقول المدافعين عنها، والتناقض الواضح فى استعمال العقل حينما تحكمه مصالح سياسية واقتصادية وعرقية، والقدرة

الفائقة على ممارسة ازدواجية المعايير فى الحكم على الأفكار العامة، والهمجية فى عدوانها على أصحاب الثقافات الأخرى والتقليل من شأنها،بل والاعتداء على هذه الثقافات نفسها، ويتضح أكثر وأكثر ما أصبح يتسم به خطاب أصحاب الحضارة الغربية من هشاشة وترهل أقرب إلى إثارة الضحك والسخرية..!

وفى عالم السياسة لا يستطيع المرء أن يحدد ما إذا كانت نظرية «الشريحة الخالية» blank slate صحيحة أم لا بمجرد فحص الآثار السياسية والفلسفية التى تحتويها، ولنفس هذه الأسباب سوف نجد من هو مشدوداً ومؤيداً لها، بينما هناك آخرين رافضين لها..

فمن ناحية نجد أن نظرية «الشريحة الخالية» تجذب بعض الناس لأنها تفترض أن الفروق المبدئية بين البشر الطبيعيين غير موجودة ولا يمكن أن تكون موجودة، وعلى هذا فأى تفرقة بين البشر بناء على الجنس أو النوع تصبح غير منطقية وغير مقبولة، ولا يعنى هذا أيضاً أن هذه الأحكام المسبقة قد يكون لها معنى لو أن هناك فروقًا فعلاً..!

وقد اهتم بهذه النظرية،دعاة المدينة الفاضلة لأنها تؤيد فكرة القدرة على تغيير السلوك الإنسانى لتحقيق أهدافهم.. ورغم أن أغلب الأنظمة الشمولية التى اتبعت هذا التوجه قد انتهت نحو تفشى الاستبداد والديكتاتورية، وسقوط تلك الأنظمة فى النهاية، أو حقيقة أن لا وجود للمدينة الفاضلة من أصله ولا يمكن الوصول إليها..! وفى الجانب الآخر فإن نظرية أن تركيبة الإنسان الجينية تتحكم فى سلوكه مثلما أشرنا فى فصل سابقٍ فى توجهات منظرى العنصرية ـ قد تؤدى إلى اختلافات فى البناء الاجتماعى الطبيعى الذى يحوى جميع البشر فى المجتمع الواحد، فالتركيبة الاجتماعية لأى مجتمع تشمل الأذكياء كما تشمل الأغبياء، المفكرين والخاملين، المبدعين وذوى البلادة، العاملين والمتكاسلين، الفاعلين ومنتظرى رد الفعل، ومنحنى التوزيع الطبيعى الشهير (منحنى الجرس Bell curve) فى أى مجتمع يشير دائمًا إلى أن المجتمع يقسم عادة إلى ثلاثة أقسام.. القسم الأول يشمل العباقرة والأذكياء ولا يزيد فى أى مجتمع مهما وصلت

درجة تقدمه عن ١٠٪، وفى الجانب الآخر من المنحنى يوجد قسم الأغبياء ولا يزيد أيضاً عن ١٠٪ مهما بلغت درجة تخلف هذا المجتمع.! والجزء الأكبر من المجتمع وهو الناس العاديون ومتوسطو الذكاء يقع فى القسم الأوسط ويشمل ٨٠٪ من العدد الكلى للسكان..! ومنحنى الجرس يمكن تطبيقه فى أى مجتمع وعلى اى عينة من البشر، فمن الممكن مثلاً أن يطبق على شريحة من الطلبة لمعرفة عدد الطلبة المتفوقين والعاديين والمتعثرين، ويمكن تطبيقه أيضاً على معامل الذكاء Intelligence Quotient IQ وفى جميع الأحوال لن تتغير النسب فى منحنى التوزيع الطبيعى..!

وقد تؤدى مثل هذه التوجهات مثل أن جينات الإنسان تتحكم فى سلوكه - إلى اللجوء إلى ممارسات عنصرية - مثل اللجوء إلى اليوجينيا أو علم تحسين النسل بهدف تغيير الصفات السلوكية الذى جرى العرف على النظر إليها على أنها متدنية، أو التصفيات العرقية والاثنية، أو الاحتلال والاستعمار والاستيطان..!

ومن ناحية أخرى نجد أن البعض الآخر يجذبه فكرة «الشريحة الخالية» لأنها تجنبهم الوقوع فى براثن الحكم عليهم تبعاً لاختلاف طبيعتهم الجينية عن الآخرين(بينما السؤال لماذا يعتبروا أن تحكم المجتمع بهم لأسباب أخرى قد يكون أفضل من ذلك يعد تساؤلاً تصعب الإجابة عليه..!).

وفى معنى آخر أن تلك النظرية تعنى أنه ليس هناك أنماط محددة سلفاً لما يمكن للمجتمع أن يصل إليه فى صياغة علم نفس الإنسان أو أن هناك نظام سياسى واحد أكثر ملائمة ويوافق طبيعة البشر أكثر من غيره..!

وفى كتاب حديث (٢٠٠٢) للكاتب الأمريكى الكندى المولد ستيفن بينكر Pinker بعنوان «الإنكار الحديث للطبيعة الإنسانية» Modern Denial of Human Nature أوضح أن هناك تحديات تواجه العلم الحديث تتمثل فى ثلاث عقائد جازمة تكون نزعة الرأى السائد عن طبيعة الإنسان فى حياته العقلية وهى:

١ - الشريحة الخالية : Blank Slate أن العقل ليس له معارف متضمنة فى طبيعته الأساسية.

٢ - النبيل المتوحش Nobel Savage: وهى تعنى أن الناس يولدون أخياراً ثم يفسدهم المجتمع. وهى مستمدة من ثقافة القرن الثامن عشر وظهرت فى أعمال أدبية كثيرة، وهى تمتدح الإنسان الذى لم يفسد بتأثير الحضارة المعاصرة، فهو أكثر براءة وعلى الفطرة السليمة، وقد اعتبر أكثر قيمة وأكثر نبلاً من هؤلاء الذين نشأوا فى ظل الحضارة الحديثة وتغيرت شخصياتهم بحكم تعليمهم وتدريبهم بطرق معينة..! ونلمح فى هذا السياق تشابهاً بين النبيل المتوحش وشخصية حى بن يقظان أو روبنسون كروزو كما أوردناها فى فصل سابق واللذين استطاعا بفضل فطرتهما السليمة الوصول إلى قيمة الحق والخير، وهى تظهر بوضوح أكثر فى رسالة حى بن يقظان خاصة بعدما حاول الانتقال إلى جزيرة أبسال، واصطدم بالطبيعة المادية لساكنى تلك الجزيرة وتهافتهم على جمع المال، مما حدا به فى النهاية للعودة إلى جزيرته مرة أخرى..!

٣ - أشباح فى الماكينات Ghost in the Machine: وهى تعني أن البشر ليسوا مثل الأشباح داخل ماكينات، بل أن كل من هؤلاء البشر له روح، وله القدرة على الاختيار بدون تدخل من طبيعة التكوين البيولوجى لهذا الإنسان. وكان أول من استعملها رينيه ديكارت وعاد ليؤكدها جيلبرت رايلى Ryle فى كتابه « توجهات العقل» فى عام ١٩٤٩، وقد وضعت الكلمة لتأكيد أن النشاط العقلى يكون فى درجة مختلفة عن النشاط الجسدى.. وطريقة التفاعل بينهما غير معروفة.. وقد نما هذا التوجه خاصة فى وقت ظهور هذا الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية واتجاه العالم نحو التدمير الذاتى حينما أقدم على استخدام القنبلة الذرية..!

وقد أوضح بينكر أن هناك عدة مخاوف تسيطر على فكر الإنسان فى العصر الحديث وهى:

١ - الخوف من انعدام العدالة.

٢ - الخوف من عدم اكتمال مقومات الحياة Imperfectability.

٣ - الخوف من الحتمية أو الجبرية Determinism وهى تعنى خوف الإنسان من عدم قدرته فى التحكم فى مستقبله أو أن تفرض عليه أنماطاً معينة من الحياة.

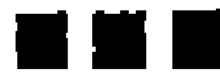
٤ ـ الخوف من أن يصبح الإنسان عديم القيمة Nihilism وهى مدرسة فى التفكير ترى أن العالم الحالى والسابق كان يحيا بدون هدف أو معنى.. أو حقيقة مفهومة..أو قيمة هامة وضرورية..

وقد ناقش الكاتب فكرة أن «الشريحة الخالية» قد تسبب تهديداً شديداً لو كانت حقيقية.! فعلى سبل المثال لا تتطلب العدالة السياسية أن يكون كل البشر متساويين، ولكن أن تعامل السياسات كل الناس كأشخاص متفردين لهم حقوق، وأن التطور الأخلاقى لا يتطلب أن يكون الفعل الإنسانى خالياً من الدوافع، وأن الأنانية ودوافع أخرى قد تؤدى إلى تعادل فى هذه الدوافع، وان هذه المسؤولية لا تتطلب أن يكون السلوك غير مسبب، يستجيب فقط للوم والمديح، وأن معنى الحياة لا يتطلب أن تكون العملية التى شكلت العقل لها غرض معين وإنما العقل فقط هو الذى له غرض..!

وقد شدد الكاتب أيضاً على أن محاولة التقليل من قيمة القيم الأخلاقية فى تأييدنا لفكرة«الشريحة الخالية» قد يفتح الباب لتخطى هذه القيم إذا تم الوصول إلى اختراعات مستقبلية جديدة للتحكم فى محتويات تلك الشريحة.. وقد يؤدى أيضاً مثل هذا الإيمان بنظرية «الشريحة الخالية» إلى تشجيع النزعات التدميرية للمجتمع مثل الهجوم على صناعات ناجحة لمجرد أنها تنهج منهجاً مختلفاً..!

وأغفلت تلك النظريات وجود إرادة حرة لكل إنسان، ومدى قابلية هذه الإرادة لتشكيل حياة وعقل هذا الإنسان..! فصحيح أن الإنسان يخلقه ربه بعقل أشبه باللوح الخالى، ولكنه زوده أيضاً فى نفس الوقت بالفطرة السليمة،التى تمكنه من أن يرتقى بنفسه من المحسوس إلى المعقول،والتى تمكنه من معرفة مواطن الحق وطرق تحقيقه، فهناك من الناس من يلتمسون الحق ويأخذون بأسبابه، وآخرين قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم غشاوة، وخيم على عقلهم حجباً، فلم يستطيعوا أن يتبينوا طريقهم، والتزموا بالظاهر، والتسليم للبدع والأهواء، وأعماهم إقبالهم على الدنيا من إعمال عقلهم والتفكر فى الأمور من حولهم.

وفى نظرية المعرفة الإسلامية أن الله قد خلق لكل عمل رجالاً وكل ميسر لما خلق له(سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)، وأن الله تعالى خلق عقل الإنسان فى أحسن تكوين (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)، وزوده بالفطرة السليمة، وأطلق عقاله ليجوب فى الأرض ويتبين حكمة الله فى خلقه (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)، وأباح أن تجول فى كل مجال، وأن تجوس خلال كل مجهول، وقد فرض على الناس العلم، ودفع بهم إلى مباحثه دفعاً (ويخلق ما لا تعلمون)، وقرر أن البشر جميعاً كلهم متساوون فى الحقوق والواجبات ولا فروق بينهم إلا بمقدار علمهم (لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى)، وجعل العلم يؤدى إلى الترقى لا محالة، بل هو طريق الإنسان الوحيد لإنجاز أى فروق بين البشر..!





ثمن التقدم..
وإرادة القـــــوة..!!



"إن كان الفكر قدرك، فأجل هذا القدر إجلالك لله، وضح من أجله بأفضل شيء لديك، وأحب شيء إلى نفسك "

الذى قال هذا الكلام واحـداً من الذين لا يستطيع أحد أن ينكر دوره الكبير فى تطور التفكير الحديث، فهو بمفرده يمثل بدايـة مرحلة أو بالأحرى نهاية مرحلة فى تاريخ هذا التفكـير، مئات الكـتب توضع عنه حتى لـيوشك عددها أن يزيـد على ثلاثة آلاف كتاب، وأثـار جدلاً واسعاً حول فـلسفته وشعره ومـأساة حياته، ومازال الجـدل مستمراً حوله فمئات البحوث والمحاضرات تلقى عنه فى مختلف الجامعات والمحافل الدولية كل يوم.. هذا هو نيتشه الفيلسوف والشاعر الألمانى الكبير (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠).

وقد نبغ نـيتشه نبـوغاً مبكـراً حتى أنه فى سن الرابـعة والعشـرين وقبل أن ينهى رسالة الـدكتوراه عين أستـاذاً لأصول اللغة واللـغات القديمة فى جـامعة بازل، وأبعدت عاطفة الفكر المتحمسة بينه وبـين الحياة الاجتماعية المطمئنة، ودفعت به شيئاً فشيئاً إلى مواضـع الخطر والعداوة والتهديد، فراح فى سبيل هذا القدر يضحـى بالمستقبل الجامعى المشرق، وبالأصـدقاء والمال والـسمعـة الطيبـة، ويغوص بـالتدريج فى هـاوية الوحدة والانفراد، حتى أصيب بمرض عقلى أدى إلى وفاته وعمره لم يتعد السادسة والخمسين عاماً..

نيتشه يقصد شيئـًا أكبر منه حين يتحدث عن " قدر الفكر " وعن التضحية بأفضل شىء لدى الإنـسان وأحب شـىء إلى نفسه. أنه يقـول فى الكـتاب الخامـس " العلم

المرح" تحت عنوان " نحن الذين لا نخاف" هذه العبارة "هناك فرق شاسع بين أن يقف المفكر بشخصه وراء مشكلاته بحيث يجد فيها قدره ومحنته وكذلك أسمى سعادته، وبين أن يقف منها موقفاً "غير شخصى": أعنى كيف يلمسها ويمسك بها بقرون استشعار الفكرة الباردة المتطفلة. فى الحالة الأخيرة لا يخرج الإنسان بشىء ، على كثرة ما يمنى به نفسه : ذلك لأن المشكلات العظيمة ـ إذا فرض أنها تسمح لأحد بأن يفهمها ـ لا تدع للضفادع ولا المتخاذلين فرصة الاقتراب منها ، أن هذا هو طبعها منذ الأزل ، وهو بالمناسبة طبع تشارك فيه كل الفاتنات..!". (مدرسة الحكمة ـ د.عبدالغفار مكاوى ـ١٩٦٧).

ونيتشه حينما يتحدث عن انغماس المفكر بشخصه فى الفكرة التى تؤرقه، وضرورة إضفاء جزء من شخصيته المتفردة فى حل المشكلات التى تقابله، وأن يطبعها بطابعه هو، ويضيف لها ما يمثل خصوصيته الدينية والثقافية والاجتماعية، يكون قد وضع يده على اللبنة الأولى فى علاج أى مشكلة فبدون أن يكون الحل نابعاً من داخل الشخص نفسه وبناء على رؤيته هو لاحتياجاته ورغباته وطموحاته، وبناء على تقييم واقعى لقدراته وإمكاناته، وبدون أن تنصهر موروثاته مع قدراته وأحلامه، فلن يستطيع الاقتراب من الفكرة، وأن يلمسها ويغوص فى أعماقها، ويسبر أغوارها مهما امتلك من قرون الاستشعار ومهما امتلك من الحلول الجاهزة، فمثل تلك الحلول سابقة التجهيز حينما تتعرض لمشكلات الإنسان لا تف بهذا الغرض، فهى كما وصفها نيتشة باردة لا تحمل دفء الخصوصية ولا تحتوى على ما يفيد تفردها وصلاحيتها لهؤلاء البشر بالذات، وفى هذه الحقبة الزمنية تحديداً..! مثلها فى ذلك مثل الأكلات الجاهزة سابقة التجهيز التى أصبحت من معالم حياتنا المعاصرة، كلها متشابهة فى الطعم والشكل والمكونات، إذا أكلتها اليوم ستكون بنفس الطعم والشكل والمكونات التى أكلتها به منذ عشر سنوات، ونفس الطعم والشكل والمكونات بعد عشر سنوات أخرى..! وما يصلح من عشر سنوات قد لا يصلح الآن أو قد لا يصلح بعد عدة سنوات، ونفس الوجبة تحتوى على نفس نسبة الدهون ونسبة الدهون التى تحتويها هذه الوجبة الجاهزة ثابتة لا تتغير قد لا

يظهر أثرها على شاب يبلغ من العمر عشرين عاماً، ولكنها بالتأكيد ستظهر على رجل عمره أربعين عاماً، ومن المؤكد أنها ستدمر رجل فى الستين من عمره..!! فسر الطبخة فى رأى نيتشه هو خصوصية هذه الطبخة وتفردها، وقدرتها على احتواء معطياتها الثقافية والتاريخية، وهو ما ينطبق على المقولة الشعبية عند المصريين من أن ما يميز طبخة عن طبخة أخرى هو " نفس" ست البيت.! أى أن المقولة الشعبية المصرية وضعت يدها على السر وهو الروح الخاصة والشخصية المتفردة التى يجب أن نضفيها على أى عمل نقوم به سواء كان صغيراً أم كبيراً، على المستوى الشخصى أو العام، وسواء كان ذلك العمل هو السعى لعمل طبخة جيدة فى مطبخ صغير، أو وضع خارطة الطريق لتقدم أمة فى عالم كبير..!!.

ومن المؤكد أيضا أن نيتشه وضع يده على عنصر هام فى انطلاق الفكرة، ألا وهو الإرادة الشخصية والعزيمة القوية اللازمة للقبض على مفاتيح الفكرة وفهم جميع جوانبها، وقد شبه الفكرة الجديدة بالفاتنة التى لا يعجبها الجبناء المتخاذلين والضعفاء وغير الفاعلين ومنتظرى رد الفعل، فلا تعيرهم اهتماماً، ولا تسمح لهم بالاقتراب منها، بينما ما يثير إعجابها حقاً الإقدام والشجاعة والسعى الحثيث لها أينما كانت، وكعادة الفاتنات دائماً لا يثير انتباههم الشخص العادى النمطى المكرر البارد، ولكن يؤجج شعورهن من يملك التفرد والشخصية المستقلة، والدفء والحيوية..!

فى أحد المقاطع من كتابه الشهير «هكذا قال زرادشت..!» يقول نيتشه: «حقاً، أن ما رأيته لم تبصرعيناى مثله من قبل، رأيت راعياً شاباً يتلوى ويختنق وينتفض مقشعر الوجه، وقد برزت من فمه حية سوداء ثقيلة، هل حدث لى أن رأيت كل هذا القرف والفزع الشاحب على وجه إنسان؟ أتراه قد استسلم للنوم فتسللت الحية إلى فمه، وراحت تعضه وتعضه؟ راحت يدى تشد الحية وتشدها بلا جدوى! فلم تستطع أن تنتزع الحية من فم الراعى. فانطلقت منى صيحة: عض! عض! افصل الرأس! عض! كل فزعى، حقدى، قرفى، إشفاقى، كل ما فىَّ من خير وشر صاح معى صيحة واحدة..».

لقد شبه نيتشه فكرة الحدوث المتكرر الأبدى أو «العود الأبدى» Eternal Reoccurrence بحية تزحف إلى جوف الإنسان. أنها فكرة خائفة تلك التى تهمس له



لوحة الرسام الاسبانى الشهير فرانشيسكو دى جويا

«نوم العقل يخرج الوحوش»

«Sleeping of Reason produces Monsters»

تخطيط بالقلم الفحم ١٧٩٩

عندما ينام الفنان (وهو يرمز للعقل فى هذه اللوحة) فى حالة حمى وإجهاد

من كثرة التفكير تتقدم نحوه الوحوش والضوارى والخفافيش وطيور الظلام

تتربص به لتنهشه..!!

أى عندما يغفو العقل والتعقل ويختفى فانه يسمح لقوى الشر بالظهور والسيطرة والتجنى..!

بأن كل شيء سيعود، وإذا كان كل شيء سيعود، فكل طموح للإنسان عقيم، والطريق الوعر الذى يؤدى إلى الإنسان الأعلى حمق وغباء، إذ لا بد وأن يعود الإنسان التافه الصغير من جديد. وإذا كان الزمن سيعيد كل شيء كما كان فكل مغامرة للإنسان عبث، وكل تعبه هباء. إن فكرة العود الأبدى تبدو الآن وكأنها تناقض إرادة القوة وتفوق الحياة على نفسها.. ولكن هذا هو ما يبدو فى الظاهر فحسب. فزرادشت يصيح بالراعى أن يعض الحية ويفصل رأسها عن جسدها..! وحينما يفعل الراعى ذلك يتحرر من الحية الخبيثة التى زحفت إلى جوفه أثناء استغراقه فى النوم، ولم يعد راعيًا، لم يعد بشراً ـ بل متحولاً، متجلياً، يضحك! ابدًا لم يضحك من قبل إنسان على هذه الأرض كما ضحك فقد استطاع أن يتخلص من الحية بنفسه، بمجهوده هو، بدون مساعدة من الخارج فلم تفلح محاولة شد الحية من الخارج، ولكن الحل جاء من الراعى نفسه عندما قرر أن يعض رأس الحية بكل قوته ويفصلها عن الجسد..!

لقد أدرك الراعى فى تلك اللحظة الفارقة بين الحياة والموت، بين أن يمضى فى طريقه أو أن يعود إلى حيث بدأ. لقد أدرك أن للخلاص ثمن، وأن للتقدم ثمن، وأن حل مشكلته يستوجب، أن يكون مستعداً لدفع هذا الثمن، ورغم عضات الحية المؤلمة، والجراح العميقة التى سببتها له، والآلام المبرحة التى عانها، فقد تعلم أن الجرح الذى لا يميت يزيد الإنسان قوة..! وكما أن الأفكار الجيدة لا تذهب إلا لمن يذهب إليها بشجاعة ودأب، فكذلك بدون أن نعى أن لكل شيء ثمن محدد ـ قد يزيد أو يقل ـ فلن نحصل على أى شيء أبداً..!! لقد أدرك نيتشه أن فرصة الفعل مازالت باقية أمامنا، وأن فى وسعنا أن نحسم أمرنا دائمًا من جديد مثلما نحسمه فى هذه اللحظة، فكل لحظة نعيشها لها دلالة تتجاوز حياتنا الفردية، وكل لحظة لا تحدد المستقبل المعروف فحسب، بل تحدد كذلك كل مستقبل يتكرر فيما بعد..!

والتقدم يحتاج إلى عدة فضائل فى الإنسان لكى يتحقق أمله ويبلغ مبتغاه، وهذه الفضائل موجودة فى الإنسان وهى قديمة قدم الإنسان نفسه، وتجيء على رأس تلك الفضائل الذكاء والشجاعة.. أما الذكاء فلا صلة له بما نفهمه اليوم تحت هذه الكلمة من معانى "الشطارة" و"الدهاء " و"الفهلوة"، فليست هذه إلا حيلاً يحتال بها الجبناء

لتفادى الخطر وتحقيق أكبر قدر من المنفعة. لا.. بل أن الذكاء بهذا المعنى أقرب ما يكون إلى الغباء والأنانية. أما الذكاء الذى نقصده ونجعله شرطاً لا غنى عنه للشجاعة فهو تلك الحكمة التى تجعل الإنسان يفهم كل شىء على حقيقته، وينظم سلوكه ومعرفته على أساس هذا الفهم الموضوعى للواقع.

فالذكاء يعكس حقيقة الأشياء الموجودة من ناحية، كما يعكس "الخير" من ناحية أخرى، أو لعل من الأفضل أن نقول أنه يترجم المعرفة الحقيقية إلى السلوك الطيب الخٌير فى الحياة.

وهو يعد بهذا المعنى أب الفضائل جميعاً، أو هو صورتها الباطنة، كما تكون النفس هى الصورة الباطنة للجسد، والشجاع مطالب بأن يكون ذكياً، اى أن تكون لديه المعرفة بحقيقة الأشياء، وبالسلوك الخير الذى يطابق هذه المعرفة. فالذكاء هو الذى "يخبر" الشجاعة أو ينقل المعرفة إليها. وإذا كان يبصرنا بالخير فى الواقع والسلوك. وكانت العدالة تسهر على تحقيق هذا الخير، فإن الشجاعة هى التى تحميه أو تمهد الطريق لتحقيقه.. إن الشجاعة الحقة تفرض نوعاً من المعرفة والبصيرة والتقدير الصحيح للشىء الذى نضحى به وللشىء الذى نريد أن نصونه ونبقى عليه بهذه التضحية..

والشجاع الذى يحارب الشر يضحى بنفسه لكى يبنى عالماً جميلاً، أو مدينة فاضلة وعادلة على هذه الأرض. إذن فلا بد للشجاعة التى لا يهديها الذكاء ولا تجند نفسها لخدمة قضية عادلة من أن تكون شجاعة فاسدة، فليست الجراح هى التى تصنع الشجعان بل القضية التى يناضلون من أجلها ومدى عدالتها..

وإذا كنا اليوم نحاول أن نقضى على ظلم القرون والأجيال الماضية، ونسعى لبناء مجتمع جديد، ونتطلع للتقدم، فإن من ألزم واجباتنا أن نسأل أنفسنا كل يوم، بل كل لحظة، عن معنى الشجاعة ونجاهد ـ على الرغم من كل شىء ـ أن نحيا حياة الشجعان، وأن نكون مستعدين لدفع ثمن التقدم، فلم يعد هناك شىء بدون ثمن، ولم تعد هناك حماية للضعفاء والمتخاذلين أو وجبات مجانية توزع على المنتظرين..! على كل منا فى مجال عمله

أن يسأل نفسه: هل قلت كلمة الحق؟ هل وجدت فى نفسى الشجاعة الكافية لأصرخ فى وجه الظلم والجهل والتبجح والغباء والفساد والجمود بأعلى صوتى قائلاً "لا"؟ أم أذلنى الحرص وكسرنى الخوف وقهرنى الجهل، هذا الحرص والخوف والجهل الذين يذلوا أعناق الرجال ويحولهم إلى مجرد عدد فى قطيع من الحملان، أكثر ما يميزه هو صمت الحملان المعروف، حتى تأكلهم الذئاب المجتمعة حولهم بدون ضجيج..!!.

إذن هناك قبل التقدم إلى الأمام "إرادة للقوة" كما سماها نيتشه وهو عنوان آخر كتاب وضعه الفيلسوف الألمانى الشهير قبل وفاته ولم يتمه، وقد اختلف فيه نيتشه مع أستاذه شوبنهاور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠ م) فيما أسماها "إرادة فى الحياة" والذى كان يرى فيها شوبنهاور أن الدوافع الحقيقية لأى من الأحياء هى القدرة على التحمل وتحسين حياتهم، وقد رأى نيتشه أن الأحياء ليست مدفوعة فقط برغبتها فى البقاء، ـ ولكنها ـ مدفوعة أيضا باحتياج أكبر للسعى للقوة لتنمو وتوسع من قوتها، ولتجمع إرادات أخرى فى هذه العملية ـ وعلى ذلك ـ اعتبر نيتشه أن "إرادة الحياة" تأتى فى المرتبة الثانية بعد "إرادة القوة"، وقد عارض نيتشه أيضا "الداروينية" مشككاً فى مصداقية مفهوم "التكيف" والذى اعتبره إرادة ضعيفة ونظرة ضيقة للحياة!!.

وهناك نقطة أخرى تميز "إرادة القوة" عن "إرادة الحياة" فى أنها تؤهل وتحفز لإخراج الطاقة الخلاقة داخل الإنسان، والتى شدد نيتشه على أنها أكثر الحقائق الأساسية فى "القوة الداخلية للطبيعة"، والمعنى ببساطة أنه بدون أن يملك الإنسان إرادة فى اتجاه الحصول على القوة، فإن هناك شكوكاً حول قدرته على الاستمرار فى الحياة نفسها..!! والحصول على القوة يعنى أن الإنسان يمتلك ويفهم "لماذا؟"، وإذا امتلك الإنسان "لماذا؟" فإنه يستطيع أن يتحمل أى "كيف" تأتى بعد ذلك..!!

وبدون أن يمتلك الإنسان بجانب الذكاء والشجاعة الإرادة القوية التى تدفعه قدماً إلى الأمام فسيبقى فى مكانه أو يجنح للتقاعس عند أول سقطة أو عثرة تقابله فى طريقه، فهى التى تجدد عزيمته كلما وهنت قواه، وهى المشعل الذى ينير طريقه، والعامل المحفز الذى يضمن للتفاعل أن يبدأ ويستمر..!

إن إرادة القوة لا تعنى القوة المادية فحسب بل تتعدى ذلك إلى منظور أكثر رحابة لتشمل طريقة التفكير وأسلوب الحياة ووسائل تولد الأفكار، وهى تشمل أيضاً تطهير النفس من الضلالات التى تحيط بها، والابتعاد بها عن غبار التواجد فى وسط الزحام، والسير ضمن القطيع، أن تستطيع أن تغزو القوة الكامنة فى النفس غزواً جديداً وأن تسيطر على هذه القوة، أن يعيد الإنسان اكتشاف نفسه، أن يستعيد صحته النفسية فى أمور الروح والحس، أن يكون قادراً على أن يدرس بعمق كل الأمور من حوله، ويبتعد عن السطحية والاستسهال، أن يبتغى الكمال فى أخلاقه وفكره وعمله، أن يستوعب القديم والحديث مما عرفه الإنسان إلى اليوم، أن يشعر الإنسان بأن كل مكان فى العالم وطنه، وأن كل الناس أخوة، أن يصبح طريقه كله محاولة، وفكره كله أسئلة، ومنهجه إلحاح على التجربة، وسعى للمعرفة، ورغبة فى التميز والعلو والسبق، وقدرة على التمرد على كل القيود والحدود..! فلم يعد من المقبول أن نصف رجلاً مثلاً بأنه زاهد ـ وهو فى حقيقته بليد، أو نصفه بأنه قنوع ـ وهو فى حقيقته عاجز..

فالقناعة بالفتات الذى يلقى إليك، والطمأنينة إلى مستقبل مجهول، والرضا بالقليل، والخنوع والخضوع للآخر، هى أخلاق لا تصنع أمة قوية أو تدفعها للامام، بل تدفعها دفعاً إلى الخلف، وتقيدها وتزيد من عثراتها فى مضمار لا يسمح فيه بتواجد الجياد الضعيفة أو الهزيلة أو التى لم تستعد الاستعداد الكافى لخوض المنافسة..!!

وهناك قصة طريفة تروى فى هذا السياق عن فأرين وقعا معاً فى دلو ملىء بالقشدة الطرية فما كان من أحداهما أن استسلم لمصيره وغرق فى القشدة الطرية، بينما حاول الآخر الحركة بكل ما يملك من قوة ولم يستسلم وظل على حركته الدءوب حتى حول القشدة إلى زبد، وبذلك صنع لنفسه طريقاً على الزبد الصلب إلى الخارج..! والقصة على بساطتها توضح أن من يملك الإرادة، يملك فى أغلب الأحيان.. الحل..!

و يجب أن نعى جيداً حقيقة هامة جداً وهى أن ثمن التقدم الذى يجب أن ندفعه سوف يكون فى صورة تضحيات جسيمة، وتغيرات جذرية فى أسلوب حياتنا وطريقة تفكيرنا، وقد يستلزم قدح زناد فكرنا بطريقة جديدة غير نمطية، وغربلة العقل العربى من الشوائب الكثيرة التى شابته حتى أغلقت جميع فتحات الغربال أمام عينيه فلم يعد

يرى مـن خلاله إلا بقايا ظلال وخيالات وأوهام.! وكما لم يعد يرى فلم يعد أيضاً يسمع أو يفكر.! وبمقدار هذه التضحيات وقوة التـغيرات التى نستطيع أن نستوعبها ونطبقها، ومدى المساحـة التى سوف نهـيئها للأفكـار الجديدة المبـتكرة، وبمقدار الـشجاعة التى سوف نكون على استعداد لبـذلها فى تناول هذه التغيـرات ووضع الحلول غير النمطية لهـا، أى بدون أن نمـلك "إرادة للـقوة" وعـلى حسب مـقدار ما نمـلك من هذه الإرادة سيكون مقدار التقدم الذى يمـكن أن نحققه، هذه الإرادة مثل وقود السيارة كلما زاد ما تضـعه من الوقود فى السيارة، كلما زادت المسافـة التى يمكن أن تقطعها تلك السيارة..! وسواء كـانت هذه التضـحـيات والتغيـرات اقتصادية أو اجتـماعية أو سيـاسية، أو كلها مجـتمعة، فهى الطريق الوحيد لكسر الدائرة الخبيثة التى أصبحت تحوطنا من كل جانب وتضيق هذه الحـلقات كل يوم حتى قارينا على الاختـنـاق، ولم نعد نملك رفاهة الانتظار للفرج أو الحلول القـادمة من الخارج أو نتحجج بقلة المـوارد أو كثرة السكان، أو بتآمر القوى الأخرى علينا، فقد أصبح لزاماً علينا أن نبدأ باتخاذ الخطوات الصحيحة للبدء فى دفع ضريبة ثمن التقدم مـهما كان باهظاً، والعض بكل قوة على رأس الحية التى تسللت إلى داخلنا خلسة أثناء غفوتنا..! فقد حان وقت الاستيقاظ ولا وقت للنوم بعد الآن..!

فقد يـكون من الواجب مثلاً البدء فى تحريـر العقل العربى من الضلالات التى باتت تعـشش فيه وتنخـر فى عظامه وأصابته بـالوهن والضعف، قد يـكون تحرير الدين من القـيود التى فرضت عـليه واعتقـلته فى زنزانـة الجمود والانغلاق فـرض عين تفرضه جسامة الأزمة التى نـعيشها.! قد يكـون البدء فى إعمال العقل وبـذل الجهد فى التفكير الخلاق هو طوق النجاة الوحيد الباقى.!

قد يكون من الضرورى أيضاً أن نقتطع جزء من مواردنا لتحسين نوعية التعليم، أو لتحسين الخدمات الصحية فى مجتمعنا، أو نعمل معا لتضافر رؤوس الأموال للاستفادة بالموارد الزراعية والصناعية والتعدينية التى نملكها، وزيادة فرص العمل، وتطبيق حلول ذكية لمشكلة الإسكان، أو ما يتطـلبه من مال وجهد ووقت إعداد العقول اللازمة للدخول إلى عصر المعلوماتية والنانوتكنولوجى والطاقة النووية..!!

والكثير من دول العالم المتقدم حققت انطلاقتها الراهنة في غضون سنوات قليلة، وليس في خلال قرن أو نصف قرن، ودول كثيرة وعت الدرس وعرفت أنها يجب أن تدفع ثمن ما مما تملك لتتقدم!! فنجد أن التجربة الماليزية في تحسين الاقتصاد وتقليل الأمية ورفع مستوى التعليم بقيادة مهاتير محمد هي نتاج حوالي عشر سنوات فقط. كما أن التجربة الصينية نفسها لا يزيد عمر تألقها وامتيازها على العشرين عاماً. وكوريا الجنوبية صعدت من التخلف إلى صدارة الصناعات في آسيا وإلى موقع بارز في العالم في غضون سنوات، وليست شركة سامسونج إلا نموذجاً لذلك الصعود القوي والسريع إلى حد المفاجأة، واليوم يعمل معهد كوريا للعلم والتكنولوجيا "كاسيت" في تطوير صناعة الإنسان الآلي ليسبق العالم. وكانت هي أول من اخترع وأنتج أجهزة MP3 الصوتية المتناهية الصغر والكبيرة الذاكرة ومثلها كوريا الشمالية التي أجرت أول تفجيراتها النووية في سبتمبر ٢٠٠٦ ودخلت عالم الكبار رغماً عنهم، ورغم معارضتهم العنيفة لذلك، وتهديداتهم بالعقوبات السياسية والاقتصادية..!!.

وفي الهند يندهش المرء من القلاع الصناعية العملاقة التي تنتج "السوفت وير" في بنجالور. وفي سنغافورة التي تخطو إلى أفق غير منظور. وفي سؤال من الدكتور زويل لأحد الوزراء هناك قال: إلى أين انتم ذاهبون؟ وكان الرد: عندنا الآن الأسواق العالمية للإلكترونيات الدقيقة. وقد خصصنا ٤٠ مليار دولار أمريكي للتركيز على "البيوتكنولوجي" في السنوات العشر المقبلة، وتحاول سنغافورة عقد اتفاقية مع مراكز البحث العلمي المتقدم في "كالتك" و"أم أي تي" في الولايات المتحدة الأمريكية لأجل هذه الأغراض (عصر العلم د.أحمد زويل ـ ٢٠٠٥).

إن نقص القاعدة العلمية والتكنولوجية في أي دولة ليس دائماً ناتجاً عن فقر المصادر أو الثروة البشرية. ولكنها أحياناً تنبع من غياب الإرادة في تقدير الدور الحيوي،الذي تلعبه العلوم والتكنولوجيا في التنمية،فضلاً عن عدم وجود سياسة واضحة للتعرف على الاحتياجات القومية الحقيقية. وبعض البلدان تعتبر التقدم العلمي مجرد رفاهية مقارنة بالاهتمامات الأخرى، والبعض الآخر يعتقد أن القاعدة العلمية يمكن أن تتوفر عن

طريق شراء تكنولوجيا جاهزة من الدول المتقدمة، مثل هذه المعتقدات تتحول وتترجم إلى تخلف أو على الأقل إلى تقدم ضعيف وبطيء..!

ويرى الدكتور زويل كما يرى كثير من العلماء المحدثين أن الوضع العلمى للعالم العربى لم يعد وضعًا مقبولاً. فقد بات العالم العربى فى أدنى درجات السلم الدولى للعلوم، ولا تقارن اسهاماته بأى اسهام لمنطقة أخرى فاعلة فى العالم. فنسبة الأمية تزيد على ٥٠٪ وتزيد فى النساء إلى أكثر من ٦٠٪ فى بعض البلدان وهى من أعلى النسب فى العالم. كما أن ٩٥٪ من العلم الحديث فى العالم الآن موجود فى مجتمعات تشكل ٢٠٪ من سكانه. وهى مجتمعات يمكننا أن نتصور بديهياً أن عالمنا العربى يقع خارجها بهذه النسبة المخيفة من الأمية..!

ووفقاً لمعهد المعلومات العلمية، بلغ مجموع الأوراق العلمية التى نشرت فى كل أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة ٣,٥ مليون ورقة،كان توزيعها بالنسب المئوية كما يلى: الإتحاد الأوربى ٣٧٪ والولايات المتحدة الأمريكية ٣٤٪ ودول آسيا والمحيط الهادى ٢١٪ والهند ٢,٢٪ وإسرائيل ١,٣٪. أما مساهمة العالم العربى الذى يبلغ مجموع سكانه ٢٨٠ مليون نسمة فهى تتراوح بين صفر٪ و٠,٣٪ وبمجموع ٠,٠٣٪ فى معظم البلدان، وإذا قورنت هذه الأرقام بغيرها من دول أخرى،نجد أن وضعنا فى مجال العلم والتكنولوجيا أصبح يماثل وضع انجولا ونيكارجوا والصومال..! فإذا كنا مجتمعين لا نحصل على أكثر من ثلاثة من مائة فى المائة فقط وهى نسبة مخجلة مقارنة بمن هم أدنى منا عدداً وعدة فهل نتوقع أن أى تغيير له أى فرصة..! (المرجع السابق).

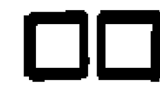
من العرض السابق يتضح أن دولاً صغيرة وفقيرة من التى امتلكت إرادة القوة ودفعت ثمن التقدم، استطاعت أن تقطع أشواطاً طويلة فى مشوار التقدم والرقى، فدولة مثل سنغافورة مستعدة لدفع ٤٠ مليار دولار لتطوير أبحاث فى مجال البيوتكنولوجى (وهو العلم الناشىء الوليد الذى مازالت جامعات كثيرة فى العالم لا تحوى أقساماً لتدريسه ولا يعرفه معظم الناس فى عالمنا العربى)، ـ ببساطة ـ لأنها أدركت أنه المستقبل، وبدونه ستبقى خارج نطاق التقدم، وهى لم تتحجج مثلاً بقلة الإمكانات المادية

أو البشرية ولكنها حددت الغايات بدقـة، ورتبت الأولويات واقتطعت الميزانيات الضخمة من أجل تحـقـيق أهـدافهـا، ووعت أن الحديث عن ضلالـة نـقص المـوارد ضـرباً من الاسترخاء الـعقلى لم يـعد مقبـولاً وسط عالم يعمـل فيه كل الناس والـدول بكل طاقة ممـكنة من أجل الاسـتمرار فى هذا الـعالم، وقد فـهمت تلك الدول إن لم تـقطع الخطوة الأولى مبكراً فـربما تتأخر كـثيراً، وقد يغـلق الباب دونها، ويـظل مستقبـلها هائماً فى العراء لا يعرف للتقدم سبيلاً..!.





ملك الخواتم وأكذوبة القوة التى لا تقهر!! (*)



استكمالاً لفكرة "إرادة القوة " التى وردت فى الفصل السابق، يصبح من الضرورى أن نوضح أن القوة ليست شيئاً مطلقاً، فكل قوة مهما كبرت لها دائماً قوة مضادة لها، قادرة على الوقوف فى وجهها ومناوئتها، وأن كل قوة وإن بدت صغيرة من الخارج فهى تملك شيئاً كبيراً فى داخلها، لو وعته لامتلكته وعرفت كيف تخرجه وتستفيد منه، ألا وهو إرادة القوة وليست القوة نفسها، حينئذ فقط ستعرف أنه لا توجد قوة فى الدنيا لا تقهر، ولا توجد مشكلة بدون حل، ولا عثرة بغير أمل فى النهوض مرة أخرى..!!

فقد شاهدت الجزء الأول من فيلم ملك الخواتم أو سيد الخواتم كما تعنيه ترجمة اسم الفيلم الحقيقية The Lord of The Rings وهذا الفيلم فى ثلاثة أجزاء طويلة وهو عمل سينمائى ضخم فاقت مدة عرضه فى دور السينما الأرقام القياسية لأى من الأفلام الأخرى فى تاريخ السينما وتعدت إيراداته المليار دولار بعد أحد عشر أسبوعًا فقط من عرضه.

تحدثنا الأسطورة فى فيلم ملك الخواتم عن مجموعة من الخواتم التى تعطى لمن يمتلكها قوة خارقة تمكنه من السيطرة على العالم من حوله ويتحكم فى هذه الخواتم خاتم أساسى هو ملك الخواتم يعطيها القوة المحركة لها والسيطرة عليه تعنى السيطرة على بقية الخواتم وامتلاك القوة اللانهائية وحلم السيطرة على الكون. وقد صنع الخاتم الأساسى فى فوهة بركان أسطورى على يد سورون سيد الظلام الشرير ولا يمكن

(*) نشرت فى صحيفة الأهرام بتاريخ ٢١/٣/٢٠٠٤.

تدمير الخاتم الأساسى إلا فى نفس فوهة هذا البركان. واسترجاع الخاتم يضمن لسورون السيطرة الكاملة على الأرض الوسطى وتدميرها. وقد تنازع البشر على اختلاف أنواعهم وأجناسهم وفصائلهم للحصول على ملك الخواتم هذا ضماناً للقوة والهيمنة التى يهبها هذا الخاتم المتحكم وانتقل الخاتم من جيل إلى جيل ومن جنس إلى جنس ومن مكان إلى آخر كل يحاول استغلاله فى السيطرة على الآخرين وبسط نفوذه وهيمنته على بقية جنس البشر. وقد ضعف الملوك والأمراء الذين تناوبوا على حيازة هذا الخاتم فلم يجرؤ أى منهم على اتخاذ القرار بتدمير هذا الخاتم طمعاً فى حلم السيطرة الذى ظل يراودهم والقوة التى لا تقهر التى يمنحها هذا الخاتم فمنهم من اعتبره حماية لشعبه وقوة ردع للمعتدين ومنهم من اعتبره وسيلته للهجوم وفرض السيطرة واحتلال أراضى الآخرين.

وتحكى لنا الأسطورة أن الخاتم الحاكم وقع فى أيدى جنس شرير وهم خدام الظلام فجهز ملكهم جيشًا من العمالقة غلاظ القلوب لا ترى وجوه لهم يلبسون السواد مدججين بالسلاح والعتاد ويحملون سيوفاً بتارة ودروعًا صدادة وقاد هذا الجيش الجرار ليهزم جيرانه ويحتل أراضيهم، فلم يسكت هؤلاء الجيران بل خرجوا تحت قيادة ملكهم أيزلدور للدفاع عن أنفسهم وأراضيهم وخرجوا فى جيش كبير ولكن لعدم التكافؤ فى القدرة بين الجيشين وخاصة أن ملك الأشرار يحمل الخاتم فى إصبعه مما أعطاهم قوة هائلة للتنكيل بجيش أيزلدور وإفنائه حتى أن أيزلدور نفسه كسر سيفه ووقع تحت أقدام الملك الشرير وفى اللحظة التي هم فيها هذا الملك الشرير بقتله وغرس سيفه فى أحشائه انتفض ايزلدور فى حركة لاإرادية مدافعا عن آخر رمق فى حياته وحياة شعبه وآخر أمل تبقى له فى هذه اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت ليقطع ببقايا سيفه المكسور إصبع الملك الشرير وفيه الخاتم الحاكم ليسقط. هذا الخاتم على الأرض ومجرد أن يلتقطه أيزلدور بيده ويضعه في إصبعه يسقط الملك الشرير صريعاً على الأرض ويتفتت إلى أشلاء صغيرة ويسقط معه كل جيشه وينهار فجأة كل شىء ويتبدل حال إلى حال آخر وتنتقل القوة ممثلة فى ملك الخواتم إلى أيزلدور نفسه.

ولأن النفس البشرية أمارة بالسوء فقد تربص الملوك الآخرون بأيزلدور وهجموا عليه وقتلوه هو الآخر فى محاولة للحصول على الخاتم الحاكم الذى سقط فى قاع النهر أثناء المعركة وظل قابعاً فيه إلى أنْ التقطه بالمصادفة شخص من قبيلة الباكينجز قصار القامة حفاة الأقدام هو بيلبو الذى أخفاه طوال عمره الذى وصل إلى مئة وأحد عشر عاماً دون أن يعرف أحد بوجوده معه ودون أن يستخدمه وبعد أن شعر بدنو أجله أعطاه إلى حفيده فرودو ليعيده إلى البركان الأسطورى ويدمره ويقى البشرية من عذاب تملك القوة والصراع الناتج عن السعى لامتلاك سيد الخواتم واهب القوة المطلقة اللانهائية. وفى سعى فرودو للوصول إلى البركان صاحبه فى رحلته مجموعة من الأصدقاء الأوفياء The Fellowship of the Ring اتفقوا فيما بينهم على أن الحل الأمثل يكمن فى تدمير الخاتم وسيلة الدمار الشامل بدلاً من أن تسقط فى يد سورمان صانع الخاتم الشرير ويقودهم جاندلف الشيخ الكبير الحكيم من جماعة آلف طوال القامة والذى كان يعرف كل شىء عن سيد الخواتم وتاريخه وقوته الجبارة ويعرف أيضاً أنه عند استخدامه فإن التسعة الأشرار خدام سيد الظلام لابسى السواد يشعرون بوجوده ويتوجهون فوراً إلى مكانه ويقتلون من يحوزه ويستعيدونه إلى سيدهم سورون ليستعيد بالتالى سيطرته على كل منطقة الأرض الوسطى.

والقصة مليئة بالأحداث والمغامرات والمطاردات بين لابسى السواد خدام الظلام وفرودو وجماعته فى مهمتهم الخطرة من أجل إنقاذ البشرية من الشر الكامن فيها والمتمثل فى وقوع هذه القوى الغاشمة فى أيدى قوى الشر فى جو أسطورى خيالى جامح يعلى من قيم الصداقة والوفاء والشجاعة والتضحية ويظهر أن الهدف الأسمى قد يدفع صاحبه إلى التضحية بكل شىء فهاهم جماعة فرودو يبذلون كل ما يملكون من قوة وعزيمة ويضحون بالحياة نفسها إذا لزم الأمر ومنهم ملوك وأمراء ضحوا بملكهم وبمجدهم أو بثرواتهم من أجل تحقيق هدفهم الأعلى وضمان الأمن والأمان لشعوبهم. كل هذه المعانى فى جو ملحمى مفعم بالمشاعر الجياشة المتدفقة وتصوير متميز حتى أن كل لقطة فى هذا الفيلم تمثل متعة وذكرى بصرية لا يمكن أن تنساها لسنوات طويلة

قادمة وساهمت المؤثرات الخاصة التى استخدمت بطريقة غير مسبوقة والديكورات العملاقة التى أزالت الفروق بين الحقيقة والخيال وموسيقى موحية دافقة فى تعميق الجو الملحمى للفيلم وهو ما دفع القائمون على جوائز الأوسكار لمنح هذا الفيلم فى جزئه الأول أربع جوائز وفى جزئه الثالث إحدى عشرة جائزة أوسكار هذا العام ليصبح العمل الثالث فى تاريخ الأوسكار الذى يحصد وحده كل هذا العدد من الجوائز.

وتلمح فى ثنايا الفيلم ما يخلط الحقيقة بالخيال والواقع الذى نعيشه الآن والأسطورة كما يحمل الفيلم أيضاً إسقاطات على أوضاع راهنة وفيه نقد مرير فى غير مباشرة وبلا وعظ لأوضاع صار معها جميع المثقفين وذوى الضمائر الحية فى جميع أنحاء العالم يشعرون بالخزى لتوجهات حكوماتهم وممارستها اليومية فى هذا الصدد. فليس من قبيل المصادفة مثلاً أن الارض المتنازع عليها هى منطقة الارض الوسطى Middle-earthوهى قريبة الشبه فى النطق والسمع بكلمة الشرق الأوسط Middle East وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن فرودو الذى يسعى للتخلص من الخاتم الحاكم ينتمى إلى شعب الباكجينز قصار القامة الحفاة الضعاف. كما أن الفيلم أظهر فى لقطات ذكية استعداد الأشرار للحرب واسترجاع سيد الخواتم من فرودو وأعوانه وأظهرهم فى ربط موحى وكأنهم فى مصنع لإنتاج الجنود والتى جاءت عبارة عن كائنات مسخ قبيحة كلها متشابهة ذوى عضلات نافرة وأسنان بارزة ودروع صلبة تغطى أجسامهم ومعدة ومدربة للقتل والتدمير تجتث الأشجار الباسقة من جذورها لتحرقها وتصنع بنارها دروع وسيوف وكأننى أرى فى هذه الكائنات القبيحة الجنود الإسرائيليين فى فلسطين أو الجنود الامريكيين فى العراق وهم يرتدون نفس السترات الواقية من الرصاص ومدججين بنفس أنواع الأسلحة (البندقية م١٤ هى السلاح الرئيسى للجيشين) بل ويضعون نفس النظارات الشمسية ومستعدين للقتل والتدمير فى أى مكان وسواء كان من يقتلون طفلاً ضعيفاً أو امرأة أو شيخاً طاعناً فى السن وأعزل من السلاح.

الكل فى هذا العالم وكما ظهروا فى الفيلم يسعى لامتلاك القوى الشاملة والكاملة وأسلحة الدمار الشامل وحرب الكواكب والنجوم التى تقنن لبعض الدول وتحاكم بعض

الدول الأخرى إذا امتلكتها كدول مارقة على النظام الدولى الجديد. هذا النظام الدولى الجديد الذى أصبح يكرس الاحتلال ويشجب المقاومة ويدعم الأغنياء ضد الفقراء ويشرع قهر الضعفاء والعبث بالبيئة والكل فى هذا العالم كما فى الفيلم يسعى للسيطرة والهيمنة على مقدرات الآخرين وبات من المقبول أن من معه القوة يمكن أن يملى شروطه على الآخرين بل أصبح من المتعين على هؤلاء المقهورين أن يظهروا ولاءهم التام وإذعانهم الكامل للقوى التى تصف نفسها بأنها لا تقهر ,وزاد القهر كلما تهاون هؤلاء البشر فى حقوقهم حتى اختلطت المعانى وماعت المعايير فقد أصبحت مقاومة الاحتلال نوعاً من الإرهاب ومقاومة المحتل عنفاً غير مبرر وحق التدخل هو المصطلح البديل للاستعمار والالتزام بالقيم والمبادئ الدينية والأخلاقية مبرراً للتدخل وتغيرها ولو حتى بالقوى العسكرية إن لزم الأمر. يظهر الفيلم أيضاً أن ما من قوة فى الأرض إلا ويمكن أن تقاوم خاصة إذا استندت هذه المقاومة على أسس من الحق والعدل والخير وان أى شعب مهما ظهر للعين ضعفه فأنه فى نفس الوقت يملك مخزوناً هائلاً من القوة فى داخله قد لا يعيه ولا يعرف قدراته إلا فى وقت الشدائد مثل بركان يغلى ويميد تحت السطح وينتظر الفرصة المناسبة للانفجار والخروج من فوهته الضيقة. وإن فكرة وجود قوة خارقة هى أكذوبة كبرى يروج لها دعاة الهزيمة وإن الهزيمة تكمن فى داخلنا قبل أن تكون فى إمكاناتنا، إن أسوأ الأمور أن تكون مهزوماً من داخلك لا تعى قدراتك ولا تعرف كيف تستحث وتستخرج القوى الحقيقية الكامنة فى داخلك. ويؤكد صناع الفيلم على فكرة أن لا مناص من أن تقاوم قوى الشر والطغيان حتى وإن بدت لك اكثر قوة ولا يمكن قهرها. كما يؤكدون أيضاً على فكرة أن لا أمل هناك بدون ألم ولا نصر بدون تضحية وأنه يكفيك شرف المحاولة بدلاً من مذلة الإذعان. فهاهو الملك أيزلدور يكافح حتى آخر لحظة فى حياته وينجح فى اللحظة التى أوشك فيها على الهلاك من قطع أيدى خادم الشر وبتر إصبعه الذى يحمل الخاتم الحاكم رمز القوة التى لا تقهر. وحينما يصارح الحكيم جاندلف صديقه الشيخ الأبيض سورون بأنهم وجدوا الخاتم الحاكم بعد فقده طوال هذه السنين يحادثه سورون بضرورة الحصول على الخاتم

وضرورة استخدامه وعندما يعرب جاندلف عن خشيته من سوء استخدامه يواجهه سورون بحقيقة أن خدام الظلام التسعة أقوى من فرودو وجماعته وأنه لا يمكن الوقوف فى وجههم وإنهم سوف يقتلونهم ويستولون على الخاتم على أية حال وأنه لمن الحكمة أن يتعاون جاندلف نفسه معهم الآن برغبته وإلا سيكون قد اختار طريق الألم. حينئذ فقط يكتشف جاندلف أن سورون خائنًا ويعمل مع سيد الظلام صانع الخاتم الحاكم ويدور بينهم صراع ينتهى بحبس جاندلف فى البرج العالى فى أيزن جارد. لقد اختار جاندلف طريق الألم مفضلاً إياه عن طريق الإذعان والخنوع والخيانة لمقدرات شعبه وآماله. إن عزيمة جاندلف وقوته وتصميمه على مقاومة قوى الطغيان والشر هى التى هيأت له القوة والقدرة على الفرار من محبسه والانضمام إلى جماعة فرودو الذين آلوا على أنفسهم إتمام مهمتهم المقدسة من أجل تدمير الخاتم الحاكم وإنقاذ البشرية من شروره.





كالى يوجا..
وثور الفضيلة المعوق..!!



كالى يـوجا كلمة هندوسية مكونة من كلمتين كالى ويوجا.. كالى تعنى الظلام ويوجا تـعنى عصــر أو زمن وعلى هذا فالـكلمـة تعنى عصــر الظلام أو العـصر المظلم..! وفى العقيدة الهندوسية أن الفضيلة موزعة على أربعة أزمنة وهى الساتيا يوجا والتريتا يوجا والدفابارا يوجا وآخرهم الكالى يوجا..

وجميع المعالجات القديمة والحديثة للديانة الهندوسية تشير إلى أن الأرض تحيا الآن فى الـعـصـر المـظـلم والـذى قـد يمـتـد لـيـصل إلى ٤٣٢٠٠٠ سـنـة حسـب إحدى المعالجات،ويؤمن الهندوس أيضاً بأن الحضارة الإنسانية تتحلل من الناحية الروحية لأن الناس الآن أبعد ما يكونون عن الله..!

ويعـتبر الهندوس أن الـفضيلة مـثل الثور الذى يعرف بـدهارما.. فى المرحلة الأولى لـتكون هـذا الثور يكـون له أربعة أرجل.. وفى كل عـصر تختـصر الفـضيلة والأخلاق بمقدار الـربع..أى يفـقد هذا الـثور رجلاً من أرجـله.! وفى عصر الـكالى يـوجا سوف تختصر الفضيلة إلى ربع ما كان موجوداً فى العصر الذهبى.. وسوف يصبح هذا الثور بساق واحدة.. أو ـ كمـا أطلقنا عليه ـ ثور الـفضيلة المعوق..! ولعل الـعقيدة الهندوسية اخـتـارت أن تشبه الـفضيلـة بالثـور الذى يفقـد أرجله، ليفـهم من ذلك أن هذا الثور لن يستـطيع أن يمشى فى طريقه بساق واحدة فـقط بدلاً من أربعة، وأنه بفقده ثلاثة أرجل سيصبح ثوراً معوقاً يعتمد وينتظر ما يستطيع أن يقدمه له الإنسان ليستعيد قدرته مرة ثانية على النهوض والقيام من عثرته واستكمال مسيرته..!

فى زمن الساتيا سيكون كل شىء خالياً من الخداع والطمع، وفى زمن التريتا سوف تأخذ الخطايا أحدى هذه الأرجل، أما فى زمن الدفابارا سوف تختلط الخطيئة والفضيلة بمقدار النصف وعلى هذا فيصبح للثور ساقان فقط، ثم يصبح بساق واحدة فقط فى زمن الكالى..!

ماذا سوف يحدث للناس فى عصر الكالى يوجا أو العصر المظلم..؟ما تؤكده العقيدة الهندوسية فى هذا السياق أن الفضيلة سوف تتدهور وتتقلص ومظاهر هذا التدهور متعددة فمثلاً سوف يسعى الناس وراء الغرائز الحسية.. وسوف يعتبر المجتمع أن المتع الجنسية شيئاً مقبولاً.. وسوف تراود الناس أفكاراً عن القتل كحل لمشاكلهم، وأحياناً القتل غير المبرر، ولن يجدوا أى غضاضة فى التفكير بذلك..! والناس سوف تلغى المنطق من عقولها وبدلاً من الالتجاء إلى إعمال الفكر فيما يتعرضون له، سنجدهم محكومين بمشاعرهم وليس عقولهم..! وسوف يقتل الابن أبيه أو يقتل الأب ابنه..! والناس سوف ترى فى الضعفاء وقليلى الحيلة فريسة سهلة يجب اقتلاع كل شىء مهم يمتلكونه..! سوف ينتشر الخداع بين الناس وبين الأقرباء والأصدقاء..! والمخادعين والمدلسين والجهلاء سوف يتبوأوا الصفوف الأولى، بل سيصبحون هم من يعلمون الناس الحقيقة بينما هم من يناقضونها ويخفون معالمها!وسوف تصعد الطبقات الدنيا من الرجال لمكانة الطبقة الأعلى منها بينما تنحدر الطبقة الوسطى إلى الطبقة الدنيا..! وسوف يعامل الصغار الكبار بمنتهى القسوة.! والجبناء سوف يوصفون بالشجاعة، بينما يوصف الشجعان بالجبن.! وسوف تنعدم الثقة بين الناس، ويكره الأزواج بعضهم البعض..! وسوف تكثر حالات الحمل بين المراهقين، والأغرب أن المجتمع سيتقبل ذلك، ويعلل ذلك بأن العلاقات الجنسية هى المطلب الأساسى للحياة..! وبينما تزداد الخطيئة وتعم، تقل القيم وتختفى تدريجياً..! وسوف يحنث الناس بوعودهم بسهولة..! وبينما ينتشر الموت والمجاعات فى كل مكان، وتسيطر الرغبات الجنسية على الرجال والنساء، سوف تدمر الناس بدون أسباب واضحة الأشجار والحدائق..! وتهزأ بحياة الحيوان.! وتدمن الناس شرب المشروبات السامة والضارة لأجسامهم.! وسوف يجد الناس أن

وظائفهم هى سبب تعرضهم للضغوط النفسية..! ويتعود الناس الهروب من أعمالهم وعدم الإتقان فيها..! وسوف يقل احترام التلاميذ لمعلميهم وإهانة علمهم..! وسوف تفقد الناس قدرتها على التعلم واكتساب المعرفة، ولن يتحلوا بأى حكمة، ويسيطر عليهم الطمع والنهم للمتع الحسية فقط..!

ألا نلمح من ثنايا عقيدة الكالى يوجا الهندوسية تشابهاً مع ما نحياه اليوم..! ألا نستطيع أن نرى ملامح ثور كبير بساق واحدة وقع على الأرض التى نعيش عليها الآن..! وقع من فرط ثقله، وقلة حيلته، هذا الثور الذى لم تعد ساق واحدة قادرة على حمله، والتى ما لم يتخذ الإنسان الخطوات الصحيحة فى اتجاه رفع هذا الثور ـ الذى سقط من عليائه ليتمرغ فى التراب، ويصبح عاجزاً حتى عن رفع نفسه ـ ما لم يتخذ الخطوات الصحيحة لتعويض ثلاثة أرجل فقدها هذا الثور على مر الزمن، حتى دخل بنا إلى النفق المظلم أو العصر المظلم..! وبعدما كانت الفضيلة تقود الإنسان إلى عصره الذهبى، أصبحت الفضيلة كومة منزوية فى قعر صندوق مظلم..! يلزم لتحريكها مرة أخرى جهد جبار من جميع أبناء هذا الوطن، وبتضافر جهوده المنظمة فقط يمكن أن تساند هذه الجهود الساق الباقية وتبنى لها أرجل جديدة تمكنها من إعادة رفع الثور الذى برك على الأرض منهكاً ومندهشاً فى نفس الوقت من عجز وضعف وتفريط بنى الإنسان من حوله..!

والسؤال الذى يجب أن نطرحه الآن هل الفضائل قيمة ثابتة أم متغيرة؟ هل تعكس حقائق مطلقة أم أنها تضع مطالبات نسبية من البشر تبعاً للظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية والشخصية التى تحكم هؤلاء البشر؟ هل يوجد معيار عام يؤهل البشر إلى فهم ماهية الطرح الأخلاقى؟هل تتغير الفضيلة بتغيير الثقافات المختلفة والعصور المختلفة؟ هل نرى الفضيلة كحقيقة أساسية فى الحياة أم كسلسلة من القيم التى تتأثر وتؤثر فى المحتوى الثقافى ككل؟

فى كتابه «أساسيات ما وراء طبيعة الأخلاق» Groundwork of metaphysics of morals الذى وضعه إيمانويل كانت فى عام ١٧٨٥ والذى أوضح فيه أن الإنسان يشغل مكاناً خاصاً

فى الخلق، وأن الفضائل كلها يمكن جمعها فى وصية واحدة من المنطق الذى لا يمكن تجنبه وتتحرك منه كل الواجبات والإلزمات المنوط بها البشر..وأوضح أن هناك ما لا يمكن تجنبه من الأطروحات فى الأخلاق أو الشىء فى ذاته categorical imperative ضاربا مثلا بالكذب..فبينما تنص القاعدة الذهبية على أن الكذب قد يكون مقبولاً فى بعض الظروف نجد أن قاعدة الشىء فى ذاته والذى لا يمكن تجنبه تشير إلى أن الكذب غير أخلاقى على العموم وبدون استثناء، ويصر «كانت» أيضاً على أن عيوب القاعدة الذهبية يمكن تصحيحها بالإصرار على أن الأفعال يجب أن تكون قابلة للتعميم لكى تكون «أخلاقية» والإصرار على أن الفضيلة لا يمكن أن تكون محل تفضيل أو ذوق شخصى..!

وقد نبذ «كانت» مذهب الشك الذى انتهت إليه الفلسفة عند «هيوم»، لأنها جعلت المعرفة الإنسانية معتمدة على الحس وحده، مع أنها تعتمد كذلك على مقولات ومبادىء عقلية تصبح بدورها هياكل فارغة المضمون بغير خبرة الحواس.

وقد شدد «كانت» على أن الأحكام الخلقية قائمة على إيمان بقانون أخلاقى ضرورى، وأن مفهومه للأخلاق يناهض الجبرية أو الحتمية التى تلغى الإرادة الحرة للإنسان، كما عارض الخداع بجميع أنواعه، والسرقة وأخذ ما هو للغير، والانتحار والنية المسبقة لعدم الوفاء بالعهد، والكسل وإهدار مواهب الإنسان، والتقاعس عن مساعدة الآخرين، وشجع على الرفق بالحيوان..!

والقاعدة الذهبية التى ذكرها «كانت» وغيره من الفلاسفة والتى لم يخلو منها دين أو عقيدة على مر الأزمنة المختلفة وتلخص القيمة المطلقة للفضيلة فى جملة واحدة تقول «تعامل مع الآخرين كما تحب أن يعاملوك» فقد جاء فى التوراة الإصحاح ١٩:١٨ «لا تحمل أى ضغينة ضد الأطفال الآخرين وعليك أن تحب جيرانك كما تحب نفسك» وجاء أيضاً فى الإصحاح ١٩: ٣٣ ـ ٣٤ «عندما يعيش غريب على أرضك لا تعامله بسوء..يجب أن يعامل الغريب مثل أبناء عشيرتك.. وحب هذا الغريب مثلما تحب نفسك.. لأنك نفسك ستكون غريباً فى مصر»، وجاء فى انجيل متى «أعمل للآخرين مثلما تحب أن يعملوا لك» وجاء فى الحديث النبوى «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»..

أما القاعدة الفضية فتقول: «ما تكره.. لا تفعله مع الآخرين» وهى فى المعنى العام لا تختلف كثيراً عن القاعدة الذهبية، وجاءت فى عقائد كثيرة ففى تعاليم كونفوشيوس ٥٥١ ـ ٤٧٩ قبل الميلاد تقول «ما لا تتمناه لنفسك لا تتمناه للآخرين» وفى التعاليم الهندوسية «لا تفعل للآخرين ما قد يسبب لك الألم لو فعلوه بك» مهابهارتا ٥: ١٥:١٧ ومثلها «لا يجب أن يكون سلوك الإنسان ناحية الآخرين بطريقة لا يقبلها هو على نفسه» و«لا تجرح الآخرين ولا تؤذيهم ولا تسبب الألم لأى من المخلوقات التى تعيش معنا».

ويشير جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) إلى أن هناك حزمة أساسية من الأخلاق الموجودة داخل كل إنسان وتتحكم فى تصرفاته، وأن رؤية الإنسان للأخلاق نسبية.! فما يراه شخص أو مجتمع ما فى زمن ما ويعتبره فضيلة قد يراه شخص آخر فى مجتمع آخر فى زمن آخر بطريقة مغايرة، وعلى الجانب الآخر فإن نظرية التنوع الأخلاقى تؤمن بتواجد أفكار وممارسات مختلفة ومتضادة وتؤمن بوجود حدود معينة للاختلاف. وبينما ترى نظرية نسبية الأخلاق أنه لا يوجد حل «واحد» و«صحيح» لكل المشكلات التى تواجه الإنسان، فإن هذا بالضرورة لا يعنى أن نسبية الأخلاق تعنى وجود مساحة من «التكيف» فيها، وأن نظرية «الأخلاق المطلقة» لا تحتوى على أى قدر من التكيف..!.

ومسألة نسبية الأخلاق كانت ومازالت فكرة معقدة جداً وخصوصاً فى ظل التطورات العلمية الحديثة التى وضعت العقل الإنسانى فى حرج، فلم تعد المشكلة الأخلاقية تنحصر فى أفكار واضحة مثل هل الكذب خطأ أم يمكن أن يكون صواباً فى بعض الأحيان.؟، بل زاد الأمر وتعداه إلى مشاكل أكثر تعقيداً وتنوعاً وحداثة نتيجة التطورات الحديثة فى العلم والاجتماع والاقتصاد والثقافة التى تداهمنا كل يوم..! فقد فاقت سرعة هذه التطورات سرعة التكيف الأخلاقى اللازم لهضمها وإدخالها داخل ملف السلوك الإنسانى المعاصر..! فقضايا مثل مدى أخلاقية التخلص من الجنين المريض (والذى لولا تقدم تكنولوجيا فحص الحامض النووى للجنين داخل بطن أمه ما أمكن

التنبؤ بطبيعة الأمراض التى سيولد بها هذا الجنين)، وكذلك إنهاء حياة المريض الميت إكلينيكيًا (مثل حالات الغيبوبة الممتدة والتى وصلت فى بعض الحالات لأكثر من عشر سنوات)، والاستنساخ الحيوانى والإنسانى، واستخدام رحم أم بديلة لمن يعانون من عدم الإنجاب، والتبرع بأعضاء من الموتى، وبنوك القرنية، والحفاظ على خصوصية الإنسان وحقوقه وتفرده وتميزه، ومدى مشروعية مراقبة الحسابات السرية أو الاتصالات، وغيرها من القضايا التى تستلزم سرعة التحرك فى اتجاه التفكير فى ماهية التكييف الأخلاقى والقانونى والإنسانى لمثل هذه التحديات المستحدثة التى تواجه الإنسان كل يوم وضرورة الاشتباك معها ووضع التصورات والحلول المناسبة لكيفية التعامل معها..!





نحن
والمدينة السيئة..!



فى قصة موحية أثرت كثيرًا فى الحياة الاجتماعية فى بداية القرن العشرين وامتد أثرها على الكتابة الأدبية الحديثة حتى الآن، وتأثر بها كثير من أدباء القرن الذين كتبوا فى الخيال العلمى والمستقبليات مثل جورج أورويل فى قصته «١٩٨٤» وألدوس هكلسى فى روايته «عالم جديد شجاع» وغيرهم، وضع الكاتب الروسى يفجينى زامياتين Zamyatin روايته «نحن» فى عام ١٩٢١ فى زمن اختلفت فيه المشاعر واختلطت فيه التوجهات بعد الثورة الروسية والتى امتدت من ١٩٠٥ ـ ١٩١٧ وتمخضت عن ولادة الاتحاد السوفيتى فيما بعد، وفيها تخيل أن العالم فى المستقبل القريب سوف يتم تنظيمه بطريقة حسابية صارمة، وسوف يعطى للناس أرقاماً وتلغى الأسماء أو الصفات ويصبح كل البشر متشابهين. يعيشون طبقًا «للجدول»، الكل يستيقظ فى نفس الوقت وينام فى نفس الوقت، وأوقات وأنواع الغداء معروفة سلفًا فى «الجدول» والكل يأكل وينام ويتحرك بنفس الطريقة، وكل شخص يحدد له عدداً معيناً من الأشخاص لممارسة الجنس معهم بناء على «الجدول» أيضًا ويتم ذلك عن طريق كوبونات وردية اللون تمكنه من معرفة الأشخاص ـ أو الأرقام ـ المحددة له، كل ما عليه أن يملأ الكوبون بالرقم المطلوب، ولا يمكنه ممارسة الجنس إلا عن طريق هذه الكوبونات..!

وبطل قصتنا يحمل رقم D- 503 وهو عالم رياضيات، يعيش فى مدينة حديثة أسماها المؤلف «الدولة الواحدة» وهى مصنوعة من الزجاج بحيث يمكن رؤية جميع الأفراد فى جميع الأوقات، ويمكن مراقبة جميع تحركاتهم وأفعالهم طول الوقت..! وبينها وبين بقية المدن جدار أخضر عالى يمنع أى شخص من الدخول أو الخروج،

والنـاس فى «الدولة الواحدة» يعيشـون بالجدول والكوبونات، ويتحركون فى مجموعات، ويمشـون مشية عسكرية، ويلبسون ألبسة متشابهة بـحيث يصبح من الصعوبة بمكان التمييز بينهم..!

وكان D - 503 يـقضى معظم وقته مع R-13 و O-90 ويشـيرون إلى علاقتهم «بالمثلث» وقد وقع D-503 فى حب I-330 وعندها بدأت المشـاكل.! فقد بدأ يقتطع بعض الوقت من وقت العمل المحدد فى الجدول لكى يكتب يومياته، والتى وضع فيها شهادته وتصوره عن السعـادة التى اكتشفها فى إحدى البلدان الأخرى أثناء رحلاته فى المركبة الفضائية التى صممها بنفسه، والتى كان يأمل فى أن يقدمها لأبناء مدينته..!

وتتطور القصة ويتصاعد إعجابه الشديد بـ I- 330 وهى امرأة ثائرة من الثوار الذين أطلق عليهم المـؤلف «الميفى»، وأصبح حبها يسيطـر على حياته، حتى أنه بدأ يتشكك فى قـيمة ولائه وإخلاصه إلى نظام المدينة الفـاضلة ـ «الدولة الواحدة» ـ الذى تربى وعاش فيها ليصل فى النهاية إلى حقيقة أنها ليست فاضلة ولا تمت للفضيلة من قريب أو بعيد بأى صلة كما هيأ له، بل على العكس فهى إن صح التعبير «المدينة السيئة» Dystopia..!

وهـو فى اندماجه فى حبه الجـديد بكل جوارحه، بـدأت تقل قدرته على الـتفريق بين الحقائق والأحلام، وبدأ يتغيب عن العمل فى مرحلة ما ليتمكن من التغلب على مرضه ـ كـما وصفته الدولة الواحدة ـ وهو مرض «تـكون الروح» أو «السعى للحب»، ولكن هذه المحاولات لإقـصائه عما تـعلق به باءت بالـفشل، ولم تفـلح فى تغييـر الإحساس الذى تملكه..!

وفى نهاية القصة يكون قد وصل إلى حافة الجنون، فلم يعد يستطع أن يفرق بين ما يمكن أن يعطيه له الخـيال أو ما توفره له الحقائق الحسابية البا ردة، وتجتاحه تناقضاته الـداخلية بين إحساسه الجديد وبين المجـتمع الذى عاش فيه وكان ـ هو نفسه ـ له دور فعّال فى صياغـته وتشكيله وقام ببنـائه متصورًا أن ما قام ببنـائه هو المدينة الفاضلة، ليـصدمه الواقع المريـر بأن النظام الـذى وضعه وتصور أنه مثـاليًا أصبح واهنـاً مليئًا بالثقـوب التى لا يمكن رتقها مؤديًـا إلى اتجاه واحد وهو المدينـة السيئة..! فاجاه الحب

الذى وقع فيه بأن هناك مقومات أخرى ضرورية للحياة بعيدًا عن الغذاء والنوم والجنس والجدول والكربونات..!

تتطور القصة بعد ذلك وتبدأ أعداد كبيرة من سكان الدولة الواحدة فى الدخول فى زمرة الثوار والدعاء من أجل عودة الحب والحرية، وتعم مظاهر الفوضى، ويدمر الجدار الأخضر الذى يفصل هذا العالم عن العالم الخارجى، وتبدأ الطيور فى التناسل فى مدينة الزجاج.. ويبدأ الناس يمارسون الجنس بدون استخدام الكوبونات، مما حدا برئيس الدولة الواحدة والذى أطلق عليه المؤلف لقب «المحسن العظيم» لإقامة منطقة عازلة ليبقى ثوار الميفى وتابعيهم بعيدًا عن بقية سكان الدولة الواحدة..!

وفى النهاية يتم القبض على D-503 ويأخذ إلى حجرة العمليات الكبرى ليتم نزع شظية من مخه (الروح التى صنعها) ليصبح بعدها غير قادر على الحب، ويعود إلى حالته الأولى كما كان فى السابق..!

وقد حاول المجتمع احتواء هذا المرض الجديد ـ الحب ـ ولكن ظهر فى النهاية أن هذا المجتمع سوف يسقط، ولن يستطيع الجدار العازل حمايته، وسوف يظهر أنه ليس إلا حاجزًا وقتيًا لن يقف ضد ما لا يمكن تجنبه..!

واحتار معظم النقاد فى فهم نهاية رواية زامياتين وهل كان يقصد بنهاية روايته أن «الدولة الواحدة» قد انتصرت، أم أن الحب هو الذى انتصر فى النهاية على المحسن العظيم وأتباعه..!! لعل زامياتين أراد بهذه النهاية المفتوحة والتى توحى بعدة أسئلة أن يطرح فعلاً أسئلة، وأن تكون الإجابات من عقل القارئ نفسه وليس من كلمات الكاتب.. فالرواية التى ينساها القارئ بمجرد الفراغ من قراءتها لا تؤثر فى نفسه وإنما تسليها لبعض الوقت فقط، بينما الرواية التى تدفعه دفعًا للتفكير فيها عدة مرات وتظل تعاوده المرة وراء المرة.! وتناطحه وتشتبك معه كلما طافت بخياله، أو على الأقل كلما أعاد قراءتها تلقاها وفهمها بطريقة مختلفة فهى التى تؤثر فيه وتحظى بعنايته واهتمامه..!

أين «نحن» من «نحن» الذين عاشوا فى مدينة زامياتين الفاضلة ـ السيئة!؟ ألا نلمح فى ثنايا رواية زامياتين تشابهًا كبيرًا بينها وبين أوضاع كثيرة نحياها اليوم؟ من تقييد

للحريات وتمجيد لرأس الدولة وتحكم في مقادير البشر ألم نلحظ أن المحنة الحقيقية التي واجهها بطل القصة D-503 هي الإلغاء المتعمد للحب والروح من حياته؟ لقد أدرك في لحظة فارقة أن الحياة بدون حب لا تحيا..! لقد أدرك أن بداخله روح تتعطش إلى الحب، تتطلع لتنهل من مناهله، وتروى به ظمأها، ولقد أدرك أيضًا أنه لا يستطيع أن يستغني عن الحب والخيال والأحاسيس مثلما يحتاج إلى المعادلات الرياضية والحقائق الحسابية وإعمال العقل..!

ألم نلحظ في رواية زامياتين ما نراه اليوم؟ لقد أطلق الرجل صرخة مدوية.. من أجل الحب والحرية، ومن أجل العودة للحب مؤمنًا أن الحب وقود الروح الذي يدفعها دفعًا إلى الرقي والتقدم، ويدفعها لبذل كل ما هو غالي ونفيس من أجل ما تؤمن أنه الصواب. ويسمو بها في عالم أصبح لا يضع أي قيمة للفرد ولا يحترم تفرد الإنسان وشخصيته المتميزة، ويتجاهل مشاعره وأحساسيه، ويجنح به إلى التسطيح والتنميط، فالكل أصبح يتكلم بنفس الطريقة، ويأكل بنفس الطريقة، ويلبس بنفس الطريقة، بل وأكاد أجزم يفكر أيضًا بنفس الطريقة، وهي الطريقة القديمة التي اتبعتها كل الأنظمة الاستبدادية على مدى التاريخ للتحكم في الشعوب وتسهيل قيادتها مثل قطيع من البهائم التي لا تفكر وتسير إلى حيث يراد بها..! وتشدد مثل هذه المجتمعات على أن الإرادة الحرة للإنسان هي سبب تعاسته وشقائه، وأن حياة البشر يجب التحكم فيها بمعادلات حسابية دقيقة مثل الماكينات، وكأن الدولة الواحدة ـ في رواية «نحن» هي دولة المسخ المتشابهين الذين لا يفكرون ويعيشون ويأكلون وينامون ويمارسون الجنس بالجدول..! والمفجع في الموضوع أنهم يتصورون أنهم يعيشون في مدينة فاضلة.

لقد أطلق زامياتين على رأس الدولة لقب «المحسن العظيم» Great Benefactor وهو في اختياره لهذا الاسم قد أضفى ـ مثله مثلما تفعل جميع الأنظمة الحاكمة في العالم ـ صفات العظمة والقداسة الكاذبة على رأس الدولة بدون وجه حق، ولعله، قصد أيضًا أن يكون المعنى ـ المستفيد العظيم ـ أي أنه المستفيد من استمرار الوضع على ما هو عليه، فعندما كان D-503 أحد دعائم النظام لم يشعر به أو يحتك به أحد..! حتى أنه كان يفخر

بأنه فى أحد الأيام سيتم إلغاء أى وقت فراغ، وأن كل لحظة يجب أن تتم جدولتها والتحكم فيها..!، وكان يفتخر أيضًا أن عشرة أشخاص كانوا يقفون بجوار بعضهم أثناء تجربة للصاروخ قد احترقوا جميعًا ولم يعطل ذلك إتمام تجربة الصاروخ، ولكن عندما غمر D-503 الإحساس بالحب وتمرد على الأوضاع الراهنة، هنا ظهر المستفيد العظيم فى الصورة وقام النظام عن طريق التابعين الموالين لرأس النظام بالقبض عليه وبنزع الشظية المسئولة عن الروح من مخه، أى قام النظام بإخصائه عاطفيًا، وتحويله إلى أغا جديد، وإعادته كمسخ كما كان فى السابق! حيث يتم قمع التمرد الذى تولد داخله..! لقد أشار زامياتين فى روايته إلى أن هناك انتخابات تجرى كل عام لانتخاب المستفيد العظيم، ولكن النتيجة معروفة سلفًا، ألا وهى إعادة انتخاب المستفيد العظيم كل سنة..! واختياره للمدينة أن تكون بيوتها من زجاج يعنى أن أى شخص «يمكن مراقبته كل الوقت»..! لكن لو عاش زامياتين حتى وقتنا هذا لتبين له أن الأنظمة الحاكمة لم تعد فى حاجة لبناء البيوت من زجاج ليتسنى لها مراقبة الناس، فهى تستطيع مراقبتهم الآن حتى لو بنيت بيوتهم من الطوب والأسمنت، وأقيمت حولها الأسوار العالية، فالتصنت على المكالمات الهاتفية، والاطلاع على الخطابات الشخصية، وحتى تتبع الهواتف المحمولة، والدخول على رسائل الإنترنت، ومراقبة الحسابات البنكية الشخصية أصبحت من الممارسات اليومية التى تقوم بها أغلب الأنظمة الحاكمة فى عالمنا اليوم..!!

هل عرفنا الآن لماذا كانت رواية «نحن» لزامياتين أول رواية يتم منعها فى الاتحاد السوفيتى السابق بعد أشهر قليلة من بداياته، فقد منعت الرواية فى عام ١٩٢١ عن طريق مكتب التتبع السوفيتى..! وبسببها تم سجنه مرتين ثم نفيه لفرنسا..! ورغم أنها ظهرت فى طبعة باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٤ إلا أنها ظلت ممنوعة من الظهور فى الاتحاد السوفيتى ولم تظهر باللغة الروسية قط إلا فى عام ١٩٨٨ بعد حركة الجلاسنوست (المصارحة) التى بدأها جورباتشوف..!! هل أحسسنا بقدرة الفكر والأدب والفن على قيادة الشعوب،واستشعرنا قدرة الفكر الفائقة على استشراف المستقبل، هل وعينا كيف يمكن للفن من أن يمتلك رؤية واضحة، وأن ينظر إلى الأمام بشجاعة

وبصيرة واستنـارة..! هل فهمنا لماذا خاف النظام من مـثل تلك الرواية!؟ فسجن مؤلفها ونفاه..! ألم نشعر بقدرة الفن ووظيفته على فضح النظم الجائرة وملاحقتها!؟ ألم يسقط الاتحاد السوفيتى بـكل جمهورياته وقوته ومنظـريه بعد أقل من ستـين سنة فقط من ظهور تلك الـرواية!؟ ألم يحدث كل ما تنبأت بـه الرواية من تجريد الإنسان الحديث من إنسانيته وتحويله إلى مجرد رقم أو ماكينة فى ترس كبير فى عالم لا يهتم إلا بتكريس نظام الحـكم ورضا المسـتفيد الأول..!، ألا يـفجعنـا ما تم فعلاً فى الـعصر الحديث من القـضاء على تـفرد الإنسان وتـميزه!؟ ألا نسـتشعـر مدى صلاحية الـرواية لكل زمان ومكان!؟ ألا تصدمنا محنة الإنـسان أينما كان!؟ ألا تدفعنـا مثل تلك الرواية إلى التفكير فى كيفية الـفهم أو محاولة الفهم!؟ ألا تدفـعنا مثل تلك الأفكار لفـهم ماهية التقدم التى أشرنا إليـها فى الفصل الأول، والتأكـيد على أن التقدم يـكمن أساسًا فى قدرة الإنسان على استعمال الـعقل الذى حباه الله وتغيير طريـقة تفكيره وقدرته على أن يعرف نفسه بنـفسه، وأن يكتشف قدراته ومشاعره وأحاسيسه ويعـبر عنها كيفما شاء..!.. هل وعينا قيمة الحب والحرية فى محاولة صنع التقدم..!!.



2

الفعـــل

ثمن التقدم

العقل
الإرادة
الفعل



هـل نلعـب الشطرنـج
أم الطاولة..!!



الاختـيار بين لعب الشطرنج ولعب الطاولة، ببساطة يعنى أن تختار بين «تشغيل المخ» أو انتظـار ضربة حظ تأتى لـك من رمى الزهر! ومهـما حاول بعض لاعـبى الطاولة أن يقنعوا الآخرين أو أنـفسهم بأنهم محترفـون فى اللعب، ويفهمون أصـول اللعبة ومهما حاولوا «قرص الزهر» فستظل فى النهاية لعبة حظ وليست لعبة ذكاء!

فى المقابل فإن لعبة الـشطرنج ليست لعبة بالمعنى المعروف ولكنها تشتمل على جميع عـناصـر إدارة الصـراع، من وضع الاستـراتيجـيات والـوسائل اللازمـة لتـنفـيذ هذه الاستراتيجيات (Tactics)، من تخطيط وتحضير، وتنفـيذ الخطة الموضوعة على مراحل وبالدقة المطلوبة، والقدرة على ممارسة المرونة اللازمة واللجوء إلى خطط بديلة فى حال تغيرت الخـطة الأصلية بـناء على ظروف المبـاراة، وخطط وقدرات الخصم..!! إذن فهى تعتمد عـلى قدرة اللاعب على تغيير طريقة تفكـيره باستمرار وحسب مقتضيات المباراة، وما تقـتضيه إدارة الصراع أى صراع من ضرورة حـساب الأرباح والخسائر، وحساب المكاسب المتوقعة والتضحيات الواجبة من أجل الوصـول للهدف النهائى..!

والوسائل اللازمـة لتنفـيذ الاستـراتيجيـات فى الشطرنج لا تـختلف كـثيراً عن تلك الوســائل المستـخدمة فى الحياة الحقيقية، وكثـيراً منها هى الطرق المستخدمة فعلاً سـواء فى إدارة المعارك الحربية، أو فى إدارة الصـراع مع الأفكار الباليـة والعادات السيئة أو فى سبـيل احلال أفكار جديـدة غير نمطـية، أو فى مواجهـة المشاكل والصـعوبات التى تواجهنا كل يوم!

وتتعدد الطرق والخطط المعروفة فى لعبة الشطرنج من أجل الوصول إلى الهدف النهائى والمحدد سلفاً، فمنها مثلاً طريقة تعتمد على تثبيت قطع الخصم بمعنى وضعها فى وضع معين لو حاول الخصم منه لتتعرض لخسارة جسيمة، أو طريقة الشوكة والتى تسمح بمهاجمة قطعتين فى نفس الوقت، أو طريقة وضع القطعة المهمة خلف قطعة أخرى غير هامة، وهناك طرق عديدة أخرى مثل طريقة تغيير المسار Deflection أو استخدام طريقة الشراك الخداعية Decoy، أو طريقة التضحية بقطعة من أجل الوصول إلى قطعة أخرى أهم، أو طريقة الحركة الضاغطة على الخصم، أو الحركة الهادئة التى لا يظهر أثرها غير بعد حين، أو طريقة التهديد المكشوف والتى يمكن فيها من تحريك قطعة لتكشف خط الهجوم لقطعة أخرى..!! ويمكن للاعب المتمكن من أدواته أن يستخدم أحدى هذه الخطط، أو بعض منها، أو يدمج مجموعة خطط مجتمعة فى خطة واحدة شاملة..!

إذن فالسؤال الذى يطرحه عنوان هذا الفصل إذا أعدنا صياغته سيكون على النحو التالى: إذا كان الأمر بيدك فهل تفضل أن تمسك أنت بخيوط اللعب بين يديك أم تترك ذلك للصدفة أو ضربة حظ؟ هل تخطط للمستقبل أم تنتظر «دوش» أو «شيش بيش» قد يأتى بضربة زهر وغالباً قد لا يأتى؟!! هل تلعب أنت أم يلعب (بضم الياء) بك؟!! أو بعبارة أخرى هل تفضل أن تكون اللاعب أم الملعوب به؟ الفاعل أم المفعول به؟!!.

فى مسار الأمم لا يأتى شىء بضربة حظ، فهناك فرق بين المغامرين والمقامرين.! وبين الفاعلين ومنتظرى رد الفعل.! بين الشجعان والمتخاذلين، وبين الذين قدحوا زناد فكرهم والذين ارتكنوا للبلادة، وبين الأذكياء وقليلى الحيلة، بين الذين تقدموا اكتساباً وجهداً لا صدقة أو شحاذة.!

وقد وقف سقراط على أبواب المدينة التى أراد فتح أبوابها قائلاً تأكيداً لهذا المعنى: «إذا وجدت الفضيلة بدون أن تبحث عنها فذاك حظ سعيد، أما إذا كنت مديناً للفضيلة بعنايتك وجهدك وطول بحثك وبلائك، فهذه هى الفضيلة، وهذه هى السعادة..»..

ونحن ـ سواء نعرف أو نتظاهر بأننا لا نعرف ـ فى حالة لعب شطرنج طول الوقت، وفى حالة صراع طول الوقت، ومواجهة المشكلات التى تقابلنا يصبح بعد حين جزء من الممارسة اليومية، فحساب المخاطر فى أى عمل نقوم به، هو من أساسيات النجاح، ويستلزم التخطيط الناجح لأى عملية فى حياتنا أن نجرى عملية تفضيل لأحسن البدائل،وبدون أن نجرى عملية التفضيل هذه بين مخاطر الخسائر الأكبر مع أكثر الاحتمالات قابلية للحدوث، والتى يمكن التعامل معها أولاً، ثم تأتى بعد ذلك حساب مخاطر الخسائر الصغيرة، والاحتمالات قليلة الحدوث، لا نستطيع تقدير حجم الخسائر أو توقع حجم النجاح بطريقة صحيحة.!! فحدوث مخاطر فى أى عمل من الأعمال من الاحتمالات الواردة بقوة، ولا تكمن المشكلة فى تلك المخاطر فى حد ذاتها فحسب، ولكن فى مدى القدرة على إدارة هذه المخاطر Risk Management وحساب الأرباح والخسائر بطريقة سليمة..!

وفى عالم الأعمال دائما ما تلجأ الشركات الكبرى والحكومات المستنيرة لعمل دراسات مستفيضة لتقليل وإدارة المخاطر باستخدام إحدى الوسائل التالية:

١ ـ نقل مسؤولية المخاطر لطرف ثالث مثل شركات التأمين،

٢ ـ تجنب الدخول فى الأعمال التى يشوبها مخاطر محتملة، ولكن فى المقابل هناك قاعدة معروفة فى عالم الأعمال كما هى معروفة فى الحياة، وهى أن تجنب المخاطر يعنى فى النهاية خسارة المكسب..!

٣ ـ تقليل المخاطر بعمل دراسات مستفيضة وسيناريوهات محتملة لكافة جوانب المشكلة.

٤ ـ قبول جزء من المخاطر التى قد يصاحبها بعض الخسارة من أجل تحقيق هدف أكبر.

وعن طريق معادلة بسيطة يمكن لأى منا أن يحسب المخاطر وهى:

المخاطر المتوقعة = احتمال حدوث أى من الأحداث X الآثار المترتبة على هذا الحدث

وكما يعلمنا الشطرنج أسلوب التفكير الصحيح لحل مشكلة ما تقابلنا، فهو يمدنا

بالتدريب اللازم لعقولنا حتى يمكنها مجابهة المشاكل التى تواجهنا فى الحياة اليومية سواء كانت مشاكل صغيرة أو كبيرة..

وهناك علم الآن يسمى علم حل المشكلة Problem Solving وهو يمثل جزءاً هاماً من التفكير الإنسانى ويعتبر من أكثر العمليات العقلية تعقيداً ويمكن تعريفه على أنه درجة عالية من الإدراك والتى تتطلب قدراً عالياً من التقنين والتحكم فى المهارات الأساسية الروتينية عند الإنسان.. وهو يحدث عندما لا يعرف كائن حى أو حتى أى نظام ذكاء صناعى كيف ينتقل من حالة معينة إلى حالة أخرى يمكنه فيها من تحقيق الهدف المبتغى، وعادة ما يكون أسلوب حل المشكلة جزءاً من مشكلة أكبر تشمل كيفية العثور على وتحديد المشكلة وكذلك وضعها فى الشكل المناسب..

وهناك طرق كثيرة لدراسة «حل المشكلة» وتشمل هذه الطرق على الاستبطان Introspection أو فحص المرء لأفكاره ودوافعه ومشاعره، والمحاكاة Simulation لموقف أو مشكلة مشابهة، أو التجربة الفعلية، أو عمل نموذج للمشكلة بالكمبيوتر Computer Modeling، وباستخدام ما يسمى «ببرج هانوى Tower of Hanoi»، وعادة ما تصلح تلك الطرق للمشاكل الصغيرة، لأن لها حلول محددة، كما أنه يمكن حلها فى فترة زمنية قصيرة، كما أنها واقعية وتحتوى على الصفات الأساسية «لمشاكل العالم الحقيقى»..!

ولكن المشاكل الكبرى قد تحتوى على عدة أبعاد أخرى كما أوردها ديتريش دورنر Dietrich Dorner فى كتابه الشهير «منطق الفشل» Logic of Failure فى عام ١٩٩٦ وهى:

١ - عدم الشفافية (عدم وضوح الرؤية للموقف)

- قد يكون عدم وضوح الرؤية فى البداية بمعنى عدم وضوح الغايات والأهداف.
- عدم وضوح رؤية تظهر مع الاستمرار فى العمل.

٢ - تعدد الأهداف وتداخلها مع بعضها

- عدم القدرة عن التعبير عن الذات أو الأهداف
- وجود معارضة

- سرعة زوال الأفكار Transienceمثل فورات الأفكار السريعة وغير المدروسة التى تخرج بسرعة وتخفت بسرعة، لأنها لا تقف على أرض صلبة من الموضوعية والدراسات المسبقة.

٣ ـ تعقيدات نتيجة وجود عدد كبير من الموضوعات والعلاقات والقرارات المتداخلة فى المشكلة ، Innumerability التعددية، ويقصد بها

- علاقات متداخلة وتواصل غير كامل بين الأطراف المختلفة.
- اختلافات جوهرية وعدم التماثل فى التفكير بين القائمين على الفكرة.

٤ ـ عنصر الزمن

- معوقات وقتية..
- معوقات لها حساسية خاصة.
- تأثير المرحلة نفسها على معدل الأداء.
- حراك اجتماعى غير متوقع.

وقد شدد دورنر على أن حل المشكلات الكبرى يتطلب التعامل مع كل من هذه الصفات المكونة للعملية على حدة.

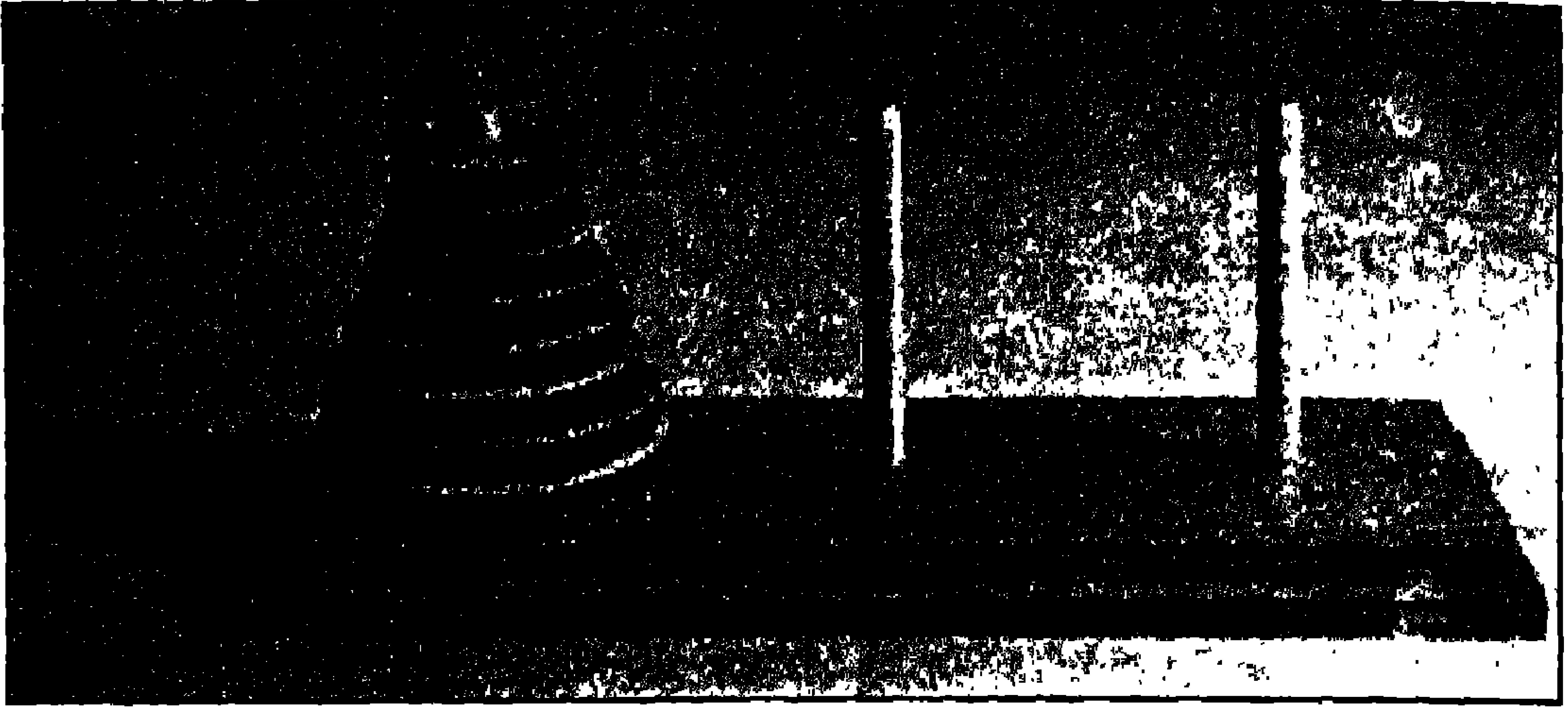
أما الطرق والوسائل Techniques التى تستخدم فى أسلوب «حل المشكلة» فهى عديدة نذكر بعضها مثل:

- التجربة والخطأ وهى أضعف الوسائل لحل المشاكل لما تتضمنه من احتمالات كبيرة للخسارة.
- عصف الأفكار Brain Storming ويقصد بها طرح وتبادل الأفكار المختلفة بغية الوصول إلى أحسن الحلول المقترحة.
- وضع المشكلة فى شكل محدد Morphological Box وهذه الطريقة تعنى بالمشاكل متعددة الأبعاد والتى عادة لا يمكن قياسها، وتحتاج لتقييم داخلى، وهذه الطريقة تسمح بتقليل حجم المشكلة، ليس بتقليل عدد المعايير

والقياسات المستخدمة، ولكن بتقليل عدد الحلول المحتملة لنفس المشكلة، بالتوازى مع إلغاء الحلول غير المنطقية.

- طريقة التركيز على بؤرة الأحداث.
- التفكير الجانبى
- دراسة عمل الآخرين فى حل مشاكل مشابهة.
- الفرض المقلوب وفيه يتم وضع فرضيات لحل المشكلة ثم يتم عكسها، لتبيان مواطن القوة والضعف فى هذه الفرضيات.
- حل المشكلة اعتماداً على مشكلة مشابهة سبق حلها.
- تهيئة الوقت الكافى لحل المشكلة، لأن العقل الإنسانى يميل فى بعض الأحيان حينما يتعرض لضغوط بشان الوقت المحدد لإنهاء العمل إلى الأخذ بحل معين دون أن يمعن التفكير فيه، أو التركيز على طرف واحد من أطراف المشكلة المطروحة، فيجيء الحل عادة ناقصاً ومبتوراً ولا يستطيع أن يتناول المشكلة من كافة جوانبها.
- طريقة حضانة الأفكار Incubation وفيها يتم وضع التفاصيل فى عقل الإنسان، والبعد بالتركيز عنها لفترة، وسوف يستمر العقل الباطن فى العمل عليها، إلى أن يخرج الحل فجأة، أثناء انشغال العقل بعمل آخر.
- إنشاء أو كتابة ملخص أو عدة ملخصات للمشكلة وحاول أن تثبت أنه لا يوجد حل للمشكلة، وعندما تجد نقطة الضعف فى برهانك على أنه لا حل، قد يكون ذلك هو نقطة البداية للوصول إلى الحل.





برج هانوى

بــرج هانــوى:

برج هانوى لعـبة رياضية ولغز يـتكون من ثلاث أعمدة وعدة أقراص بـأقطار مختلفة مفـرغة من المنتصف، والتى يمكن إدخالها فى الأعمدة. ويبدأ اللغز بأن تكون الأقراص ذات المحيط الأكـبر أسفل الأقـراص ذات المحيط الأقل، لتعط فى الـنهايـة الشكل المخروطى، والهدف من اللغز هو نقل كل الأقراص إلى عمود آخر مع مراعاة القواعد التالية:

- ينقل قرص واحد فقط كل مرة.
- لا يمكن وضع قرص كبير فوق قرص صغير.

وقـد وضـع هذه اللعبة أو اللغز عالم الرياضيات الفرنسى إدوارد لوكاس Lucas فى عام ١٨٨٣، وفى الغالب أن العـالم الفرنسى اقتـبس فكرة اللغز من الأسـطورة الهندية القـديمة عن معبـد هندى قديم يحـتوى على ثلاث أعمدة مـحاطة بأربعـة وستين قرصاً ذهبيـاً، وقام رهبان بـرهاما بأوامـر من الأنبياء الـقدامى بتحـريك هذه الأقراص بنفس قواعـد اللغز الـسابق ذكرهـا، وتبعًـا للأسطورة عـندما يتـم وضع آخر قرص من هذه الأقراص فى مكانه ستكون تلك هى نهاية العالم..!

ولـو صحت الأسطورة، ولـو كان الرهبـان قادرين على تحـريك الأقراص من عمود لآخر بمعدل نـقلة واحدة كل ثانية، وباستخـدام أقل عدد من الحركات، فسوف يستغرق

حتى الآن ١,٦٤ [٢١] ثانية أى ما يساوى ٥٨٥ بليون سنة، وعمر الأرض يقدر ب ٧,١٣ بليون سنة فقط حتى الآن..!!

وهناك عدة معالجات للأسطورة، فمثلاً يمكن أن يكون بناء المعبد قد تم فى بقاع عديدة من العالم مثل هانوى وفيتنام، وقد ترتبط بأى دين وليس دينًا محددًا، أو أنه قد تم بناؤه فى بداية العالم..!

وبرج هانوى ـ سواء ـ اللغز أو الأسطورة يظهر كمية التباديل والتوافيق (المكون الأساسى لعلم اللوغاريتمات المتكررة التى بنى عليها علم الجبر) التى يمكن للغز يبدو بسيطًا فى شكله مثل لغز برج هانوى فى أن يقدمها للاعب أو المتدرب، وهى الفكرة الأساسية فى عمل الكمبيوتر والتى تقوم على قدرة الربط بين عدد هائل من هذه العلاقات التبادلية والتوفيق بينها..!

ولا يخفى على القارئ أنه كلما زاد عدد الأقراص كلما زادت درجة الصعوبة فى حل اللغز، وقد رأينا أن الحل فى حالة وجود أربعة وستون قرصاً كما هو موجود فى الأسطورة الأصلية قد يأخذ بلايين من السنين..! أما فى الحالات الأخرى التى تحتوى على ثلاثة أو أربعة أقراص فقط، فقد تأخذ عملية فك اللغز وقتاً طويلاً جداً، وقد لا يصل اللاعب إلى الحل النهائى بسهولة، ولكنه تمرين عقلى مهم لتدريب العقل على كيفية ترتيب الأفكار من أجل حل المشكلة، حتى إنه أصبح يستخدم فى بعض القياسات العقلية لبعض المرضى النفسيين، وأصبح أيضًا من ضمن الطرق المتبعة فى تدريب العقل على «حل المشكلة» كما أشرنا سابقاً، ونتجت منه عدة تطبيقات أخرى أهمها «برج لندن» والذى يستخدم أيضًا فى قياس ردود أفعال مرضى العصاب النفسى وغيرها..

وقد دخلت فكرة برج هانوى إلى الأعمال الأدبية أيضاً، فقد استخدمها الروائى إريك رسل فى روايته الشهيرة فى مجال الخيال العلمى «الشهيق الآن» فى عام ١٩٥٩ وجاء فيها أنه تم وضع بطل القصة كسجين فى أحد السجون فى أحد الكواكب، التى جرت العادة فيه على أن يخير السجين باختيار لعبة ما ليلعبها قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه..! وكان يسمح له باختيار أى لعبة يلعبها طالما أنه يمكن لعبها فى حدود الزنزانة وبأدوات

بسيطـة وتبعاً لقواعد اللعبــة المعروفة.. ويتم تصوير ونقل المبــاراة تليفزيونياً إلى جميع أنحاء هذا الكوكب لتسلـية المشاهدين وهم يشاهدون السجين وهو يجاهد من أجل إطالة أمد اللعب لأكبر قدر ممكن حـتى يطيل عمره ويؤجل قدره المحتوم..! وكانت أطول مدة استطاع سجين أن يمد فيها زمن المباراة ستة عشر يوماً فقط..!

وقد عرف بطل القـصة أن هناك مركبة فضائية قادمة لإنقاذه، وأنها سوف تصل في خلال عام، فاختــار بدهائه وذكائه أن يـلعب لعبة بـرج هانوى باستــخدام أربعة وستين قـرصاً ليـطيل زمن المـباراة حتـى يتم إنقـاذه، ولم يكن حـراس السجن أو سـكان هذا الكـوكب يعرفون لعبــة برج هانوى، وأنها قد تـأخذ زمناً غير مـحدد، وقد استطاع بطل القصة بـهذه اللعــبة البسيـطة أن يغرر بهـم ويخدعهم حتى تم إنـقاذه، مما دعا حراس السجن لتغير قواعد اللعب للمساجين فى المستقبل..!!





إما أن ندخل أو نظل في العراء..!!



لقد أدت الدراسات التاريخية المتعمقة ودراسة تطور عقل الإنسان (كما أشرنا فى القسم الأول من هذا الكتاب) إلى تفتح العيون والعقول على المسيرة التى كان يجب على الإنسان أن يسلكها لكى يتحرك نحو الحضارة، والقراءة المتأنية للتاريخ ودورات صعود وهبوط الحضارات المختلفة غيرت من نظرة الإنسان فى الإنسانية ذاتها، فلم يعد الناس يخصون مجتمعات معينة بعنايتهم كلها، وينسبون إليها قيمًا فريدة، ويصبغون عليها قداسة زائفة، بل صارت دراستهم تشمل المنظور الكامل للتجربة البشرية، وزادت ثقتهم فى أنفسهم وفهمهم، عندما تغيرت نظرتهم إلى أنفسهم..استطاعوا فك شفرة التقدم..!

هذا البعد الجديد فى فهم الناس لأسباب الحضارة، قد اضيف له بعد جديد، هو محاولة الإنسان أن يسيطر على مقدراته، وقد أدى هذا إلى نتيجتين: الأولى أنه بعث فى الإنسان قدراً من التواضع، حين أدرك أن الحضارة التى يحياها قد يدركها الانحلال هى أيضاً فتموت، إذا لم يعرف كيف يحافظ عليها، كما حدث فى الماضى لعديد من الحضارات..! والنتيجة الثانية أنها بعثت فى الناس الأمل فى أن يعينهم تزايد علمهم بالماضى على رسم طريق للمستقبل على نحو يتيح التعديل المستمر فيه، دون أن يعرض البنيان كله للانهيار..!

لقد صار فى متناول الإنسان لأول مرة فى التاريخ أن يقضى على الفقر والجهل والمرض وغيره من الشرور التى كانت تصيب الإنسان خلال العصور الماضية. وأصبح من الممكن أن يتطلع إلى تغيير واقعه، بل أزعم أنه بات مقتنعاً أنه هدف واجب التحقيق، وأنه الاختيار الوحيد، وأن ليس هناك لختيارات أخرى، مؤمناً بأنه مادام يملك إرادة

التغيير، فلم يعد هناك داعياً لأن يكون راضياً بأن يكون التأخر هو قدره المحتوم له ولأبنائه وأحفاده من بعده..!

إن الخيار أمام الدول المتقدمة واضح، والخيار أمام الدول النامية واضح أيضاً، فبالنسبة للدول النامية، يجب أولاً ترتيب البيت الداخلى والعمل على حيازة مكان فى النظام العالمى، كما يجب بناء الثقة من أجل التحول إلى وضع الدول المتقدمة..!

والتغيير باتجاه التقدم الذى ننشده يستلزم بجانب امتلاك إرادة التغيير، القدرة على الفعل وتحقيق عدة تحولات فى طريقة تناولنا للمشاكل التى تحوطنا، وهذه التحولات تشمل:

- تحولات فى التعليم.
- تحولات فى الاقتصاد.
- تحولات فى فهم الدين.
- تحولات فى السياسة.

سيتم فى هذا الفصل طرح التحولات المطلوبة فى التعليم والاقتصاد والسياسة، بينما سنجد أن التحولات فى فهم الدين تم طرحها فى فصل سابق ضمن الضلالات والخرافات التى أصبحت تعشش فى عقولنا وتسيطر على أدبيات الخطاب الدينى المعاصر.

التغيير بواسطة تحولات فى التعليم:

كان لكل تيار من تيارات العصر، سواء أكان ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً أثره على التعليم، هذا ما تقضى به طبيعة التعليم، لأن النظام التعليمى لكل مجتمع يتضمن وينقل القيم والمواقف والمعايير السائدة فى المجتمع أى ينقل مجموعة من التقاليد والمعارف ويحاول أن يهيئ الجيل الجديد لما يمكن أن يواجهه فى المستقبل. والتعليم بوصفه أداة من أدوات المحافظة والتغيير على السواء يتأثر لا محالة بالتحولات التى تطرأ على البناء الاجتماعى وبالمعارف الجديدة، وبتغيير التكنولوجيا وتغير المواقف الاجتماعية والعقلية.

وقد تزايد الدور الذى يقوم به التعليم، خصوصاً فى الدول المتقدمة ـ فى ظل عالم تتتابه التغيرات على اختلاف أنواعها بسرعة مذهلة ـ من حيث هو أداة لتسهيل التغيير ومواكبته، ولم يستطع أن يجعل مهمته فقط تنحصر فى أن يكون نظاماً للمحافظة على الطرق القديمة واستمرارها..!

وسوف نعرض فى هذا الباب لبعض التحولات المطلوبة فى مجال التعليم، منها: تحديد جديد للغايات، ولأهداف التعليم فى الدول التى تسودها الأمية، وكيفية تحسين التعليم فى مؤسسات التعليم ذات الكثافة الطلابية العالية، وخلق مصادر تمويل موازية للتعليم، وأهمية الترجمة.

١ـ تحديد جديد للغايات:

من الملاحظ أن الإصلاحات المزعومة للتعليم منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين هى عبارة عن ترميمات أو عملية رتق مستمرة للثوب المتآكل والمليء بالثقوب، فما نلبث أن نسد ذلك الثقب إلا ويظهر ثقب آخر فى مكان آخر وهلم جرا..! حتى أن الخرق قد اتسع على الراتق!! والسؤال الرئيسى الذى لم يطرح البتة: ألا وهو الاستفهام عن غايات التعليم، فنحن مشغولون دائماً بالنظام حتى أصبحنا نعبد النظام، ونكرس له التعديلات والإضافات والتطويرات كل عام، مثل القرابين التى اعتاد الوثنيون تقديمها لآلهتهم التى صنعوها بأنفسهم..!! وما تعديل نظام القبول فى رياض الأطفال والسماح بالتجاوز بثلاثة أشهر أو ستة أشهر فى سن القبول للأطفال أو السنة الثالثة فى التعليم الأساسى، والسنة السادسة التى أخذت من اهتمام القائمين على التعليم عمر وصل إلى عشر سنوات بين الإلغاء والإبقاء، ونظام الثانوية العامة بين السنة الواحدة والسنتين والتحسين، وقانون الجامعات والساعات المعتمدة التى تصورنا أنها سوف تصلح التعليم الجامعى فى مصر لمجرد أنها مطبقة فى بعض الجامعات الغربية، لهى أمثلة بسيطة لاستغراقنا فى تفاصيل النظام بدون أن نعرف الغاية التى تم من أجلها وضع هذا النظام..!! وحين نضع أيدينا على الغايات يصبح من الممكن حينئذ أن نسمح بتشكيل المحتوى التعليمى وبقية عناصر العملية التعليمية.. بطريقة سليمة..

مازال الهدف الرئيسي للتعليم فى مصر سواء العام أو الجامعى هو تخريج المتعلمين بأعداد كبيرة، والمتعلمين فى هذا النظام هم الحاصلون على شهادة أعطيت لهم بناء على اجتيازهم امتحاناً. وهو بهذه الطريقة جعل من الحصول على الشهادة وبأى ثمن مهما كان هو الهدف الوحيد لجميع المنخرطين فى التعليم كما أصبح هو الهدف الرئيسى للقائمين على التعليم أيضا. ورغم أن عدد المتعلمين (الحاصلين على الشهادة) زاد بطريقة ملحوظة فى السنوات الأخيرة ، إلا أن المستوى العقلى والفكرى لهؤلاء المتعلمين لم يرق بنفس الدرجة! وبدلاً من أن يصبح الهدف من التعليم هو تنمية شخصية الفرد وتميزه وإمداده بمعرفة محددة ومعتقدات سوية والمهارات اللازمة لحل المشكلات الواقعية التى تواجهه فى الحياة، أصبح الهدف الأساسى هو الزيادة الرقمية، أى زيادة الكم، فقط والحصول على الشهادة.

و ما يسرى على التعليم العام يسرى على التعليم الفنى سواء صناعى أو زراعى أو تجارى، فمن من خريجى هذا التعليم يمكن الاعتماد عليه فى أداء عمل بسيط تعلمه فى المدرسة وحصل فيه على شهادة بعد اجتيازه امتحاناً، اعتقد أن الإجابة سوف تكون النفى التام، فهم حاصلون على الشهادة فقط، ولكنهم لا يفقهون شيئاً فيما حصلوا فيه على الشهادة وحتى فيما يواجههم منها فى حياتهم كل يوم..!!

والنتيجة الفعلية لهذه السياسات الواهنة التى فرضها النظام القائم، وحاول الدفاع عنها على مدى الخمسين عاما الماضية، أن أصبح المتعلم عندنا أشبه بالمسخ، فلا شكل ولا طعم ولا لون له، كلهم متشابهون، يتكلمون نفس اللغة، يتهتهون فى كلامهم بنفس الطريقة،يقعون فى نفس الأخطاء، ويستقون معارفهم ـ إذا كان عندهم معارف ـ من التليفزيون، لا يقرأون غير الملخصات المدرسية فقط، تحكمهم سياط درجات الامتحان التى تلهب ظهورهم، وللحصول على الدرجات اللعينة يصبح أى شىء ممكن ومباح، فالغش يمكن أن يقبله الطالب كما يقبله أهله، والدروس الخصوصية تعطى لتلاميذ فى رياض الأطفال، والتدريب على نماذج الأسئلة والأجوبة، والكل ينجح ويحرز أعلى الدرجات، ١٠٠٪ وفى بعض الأحيان ١١٠٪..!! وكل الناجحين يدخلون الجامعة، فمن اجتهد مثل من لم يجتهد، لا تفرد ولا تميز بين شخص وآخر، فكلهم سواء..

كما توجد دلائل عديدة على تناقص الكفاءة الداخلية للتعليم، وتتبدى فى ارتفاع نسب الرسوب، وإعادة الصفوف الدراسية، وتردى نوعية التعليم بحيث تغلب عليه ثلاث سمات اساسية هى تدنى التحصيل المعرفى (لو سألت الطلاب عما حصلوه من دراستهم بعد أداء امتحان آخر العام لوجدت أن نسبة ما يتذكروه من هذه الدراسة لا تتعدى ١٠٪ فقط..!) ,و ضعف القدرات التحليلية والابتكارية (معظم الطلاب كما أشرنا سابقاً يعرف كيف يجرى العمليات الحسابية ولكنه لا يستطيع أن يستنبط من الأرقام معنى معين أو توجه محدد)، واطراد التدهور فى هذه القدرات عاماً بعد عام.

ولعل النظام فطن إلى أن هذا النمط من التعليم الكمى هو أحسن وسيلة للسيطرة على هؤلاء الشباب.. فنجد الحكومة تتحدث دائمًا عن إنجازاتها فى بناء عدد من المدارس وتخريج عدد من الطلاب وقد أكد هذا التوجه تصريح حديث لوزير التعليم بأن خطة الوزارة هى زيادة عدد المتعلمين فى الشريحة العمرية من ١٨ ـ ٢٣ عاما من٣٠٪ إلى ٥٠٪ (أكتوبر ٢٠٠٦)، ولا تحدثنا هذه الخطة عن الكيفية التى يتخرج عليها هؤلاء الطلاب ومدى قدرتهم على أداء المهام البسيطة التى توكل إليهم حينما يبدأون الانخراط فى سوق العمل..!

فحينما تكون دوافع الشاب تافهة ومعرفته ضحلة ومعتقداته واهنة ومجال اهتماماته محدودة، حينئذ فقط تسهل قيادته وتوجيهه، ويصبح معرضاً لتصديق وتمرير ما يملى عليه، ويصبح مكرساً لخدمة النظام والدفاع عنه..!!

وأصبحنا مثل ما كانت عليه الأمور فى العصور الوسطى، فقد أصبح التعليم منهجاً لإعادة إنتاج النظام القائم وتثبيته وتكريسه، فالتعليم الدينى لإعداد المشايخ والوعاظ، والتعليم العسكرى لتزويد الجيش بما يحتاجه، والتعليم العام لتخريج موظفين ومهنيين فى الدولة، وهكذا.. الكل تروس فى آلة النظام الجبارة، الكل يلهث حتى يكون جزءاً من النظام، لا أحد يملك أن يخرج عن النموذج الموضوع سلفاً..

ولعل الاستمرار فى ضخ موجات من المتخرجين ضعاف التأهيل للانخراط فى نشاطات المجتمع، هو من أهم سلبيات العملية التعليمية فى الوقت الحالى، فهؤلاء لا يتوقف دورهم السلبى على أداءٍ متدنٍ فى المواقع التى يلتحقون للعمل بها، بل الأخطر

أنهم يشكلون بداية دائرة مدمرة عندما يتحولون بحكم مواقعهم إلى معلمين ومدربين لأجيال جديدة تليهم، سواء فى مؤسسات التعليم المختلفة أو مرافق الصناعة والزراعة والخدمات وغيرها، فالتعليم السيئ ينتج طلاباً أسوأ، والمهندس الضعيف يدرب فنيين أضعف، والطبيب غير المدرب تدريباً كافياً قد يضر أكثر مما ينفع تبعاً لتخصصه وملابسات عمله، وهذه البدايات الرديئة تظل تتفاعل حتى تدور الدوائر على المجتمع ككل، وتتفشى القيم السلبية فى العمل والسلوك، من عدم الإتقان إلى تزوير الجودة، ومن ثم الكذب وكل ما يلى الكذب من تشوهات بشرية، وعندما تنتشر التشوهات الفردية، تتبلور حالات التشوه العام الذى يقوض أعتى المجتمعات.

ومن هنا يأتى الطرح لغايات التعليم الأساسية، وفقاً لما نأمله ونبتغيه، وما يتفق مع احتياجتنا ومواردنا، وخصوصياتنا الثقافية والتاريخية..

والغايات الأساسية التى يجب أن تطرح الآن للتعليم هى:

١ ـ تعليم الأطفال تحمل المسؤولية، والتفكير والتجريب والمغامرة وهو تحدى كبير لأنه يتطلب فهم عميق للمبادئ الدينية، والقيم الأخلاقية والنظريات السياسية، والجمال والاقتصاد بالاضافة إلى فهم هؤلاء الأطفال لطبيعة تكوينهم وطبيعة المجتمع من حولهم.

٢ ـ التقدم فى كل المجالات العملية يعتمد على القدرات التى توفرها المدرسة والتعليم عامة. فالتعليم بهذا الشكل يصبح ليس فقط موجهاً لتنمية قدرات الفرد والمجتمع ، بل لتنمية البشرية وازدهارها. ولا يمكن التعويل على نجاح الدول قياساً على الجانب الاقتصادى وتحسين دخل الفرد فقط كمقياس للنجاح فى كل مظاهر التقدم بل يجب أن يشمل التقييم أيضا الجوانب الاجتماعية والخصوصية الثقافية لكل مجتمع.

٣ ـ تنمية الملكات الفردية والقدرة على تحقيق الذات، والتى تعتمد على التحضير اللازم فى فترة الطفولة. وعلى هذا فالتعليم يمكن أن يعطى

أرضية صلبة لتحقيق أى إنجاز والإرضاء الشخصى لطموح هؤلاء الأطفال عندما يكبرون.

٤ ـ الاهتمام باللغة العربية وكنوزها، والتراث العربى، وبدون أن نغوص فى أعماق ثقافتنا العربية لن نستطيع الولوج إلى المستقبل، والحفاظ على هويتنا المميزة.

٥ ـ القدرة على تذوق الفنون والآداب ووسائل الاتصال بالجماهير

والدول التى وعت ذلك عرفت أن التعليم هو الحل، ولذلك وضعت غايات للتعليم تستطيع أن تصل بها لتحقيق أهدافها الكبرى.

وتحديد الغايات هدف قديم لكل المفكرين والفلاسفة والمصلحين، فقد أدركوا جميعاً أن بداية الإصلاح ـ أى أصلاح ـ يجب أن تكون من التعليم وبدون تحديد للأهداف تضيع فائدة التعليم وتتبخر الجهود التى تبذل من أجله،وتصبح مثل الحرث فى الماء، وعلى سبيل المثال فقد أورد كونفوشيوس الحكيم الصينى القديم (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق م) مستعيناً بالتراث الصينى القديم (كتاب الشعر، وكتاب التاريخ، وكتاب المتغيرات، وكتاب الطقس)جملة من الأفكار الأساسية فى أهمية التعليم وتحديد غاياته وأهدافه منها:

١ ـ ضرورة الربط بين حسن التفكير وحسن التعلم، ويقول«التفكير دون تعلم خطر».
٢ ـ ضرورة ربط حسن التعلم والإدراك، ويقول «التعلم دون تفكير عدم».
٣ ـ ضرورة العودة إلى التراث ودراسة التاريخ، ويقول «كياننا فى التاريخ».
٤ ـ علينا أن نميز فى التاريخ بين ما هو أساسى وما هو ثانوى وما هو صالح وما هو طالح.
٥ ـ يجب أن نركز فى دراستنا للتاريخ على الدولة والمجتمع (وليس الحكام).
٦ ـ الطريق أو الدرب لتحقيق الازدهار هو التعلم.
٧ ـ التعلم لا يعنى الحفظ وإنما الفهم والتحقيق
٨ ـ الوسيلة الأساسية لتحقيق التعلم هو بناء مدرسة ونشر الكتاب.



٢ـ أهداف التعليم فى الدول التى تسودها الأمية:

معدلات الأمية فى دول جنوب آسيا والدول العربية والدول التى تقع جنوب الصحراء الأفريقية، ما زالت من أعلى المعدلات العالمية والتى تتراوح من ٤٠ ـ ٥٠٪ بينما تنخفض فى شرق آسيا وأمريكا اللاتينية إلى ١٠ ـ ١٥٪ .وتتحكم عدة عوامل فى معدل الأمية بين الدول المختلفة، بل تختلف بين منطقة وأخرى فى نفس الدولة، كما تختلف باختلاف الجنس فى نفس المنطقة.

والأمية هى المعضلة الحقيقية التى تواجه مشروع التحديث واستشراف المستقبل فى مصر، فعلى الرغم من أن مشكلة الأمية موجودة فى مصر منذ بدايات القرن الماضى إلا أنها تكاد تكون المشكلة الأكبر من حيث قلة الإنجاز الذى تم تحقيقه فيها، فبينما تحسن مستوى دخل الفرد، وزاد معدل طول العمر، وتحسنت معدلات الصحة، وزادت أعداد المتعلمين، إلا أن الأمية مازالت موجودة، وموجودة بكثرة، حتى نكاد نتأكد من أن كل مجهوداتنا على مدى الخمسين عاما الماضية ذهبت أدراج الرياح، ومعدل التحسن فى مستوى الأمية لم يرق إلى ما حدث فى معدلات التنمية الأخرى، كما لم يرق أيضاً إلى المعدلات فى دول أخرى تكاد تتفق معنا فى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية..

تختلف أهداف التعليم باختلاف درجة الأمية فى كل دولة، وما يصلح فى دولة قد لا يصلح فى دولة أخرى. فمن المعروف أن ارتفاع معدلات الأمية يزيد مشكلة التعليم تعقيداً خاصة فى الدول ذات الموارد المحدودة والتى تحاول استخدام هذه الموارد المحدودة لتحل فى وقت واحد مشكلة الأمية المتفشية بين العامة، وتدريب وتعليم متخصصين مؤهلين أعلى تأهيل..!

ويرى البعض أن الأمية تزيد من معدلات تخلف المجتمع، وأن إصلاح المجتمع يعتمد على جهود الأمة فى تقليل معدلات الأمية، ويضربون المثل بما حدث فى الهند..فبعدما تم تطبيق الإصلاحات الحديثة فى التعليم والتى بدأت فى عام ١٩٤٨ والتى بموجبها جرى التوسع فى تعليم الفتيات، نتج عنها قلة معدلات وفيات الأمهات والأطفال، بعدما تعلموا كيفية العناية بعائلاتهم وتربية أولادهم.

وتزداد المشكلة تعقيداً بوجود أنصاف المتعلمين وأشباه المؤهلين، ـ كما أشرنا سابقاً ـ وهم المتخرجون من الجامعة والحاصلون على شهادات ولا يستطيعوا أداء أبسط الأعمال التى توكل لهم ـ مما يؤدى إلى إحكام حلقات الدائرة الخبيثة المستمرة، لأن ضعاف التأهيل وأشباه المتعلمين هؤلاء لا يستجيبون بنفس الدرجة للأفكار الجديدة بل عادة ما يميلون إلى محاربة وتقويض أية أفكار جديدة غير نمطية، ويقفون سداً منيعاً أمام التغيير، ويكون شغلهم الشاغل المحافظة على الطرق القديمة وضمان استمرارها..

أن كل الدول ومن أكثرها تقدما فى كافة المجالات الآخذة بأسباب التقدم، بحاجة إلى أعداد كبيرة من الناس مزودة بالمعرفة والمهارات، والقدرة على تقبل المعارف والآراء الجديدة، وكلها بحاجة إلى إعداد متزايدة من الفنيين والخبراء والمهنيين من كل المستويات وفى كل مجالات النشاط البشرى، فليس الإلمام بالقراءة والكتابة للجميع، ولا التدريب التقليدى للصفوة، ولا أى مزيج من هذين، يستطيع أن يفى بحاجة الدولة إلى المهندسين والميكانيكيين والمرضات والمديرين وآلاف من الوظائف الأخرى التى ترتكز على المعرفة المتخصصة والمهارات، بل لا يستطيع أن يجعل البلاد تواكب التطورات العلمية فى هذا العصر. فالأنظمة التعليمية فى كل البلاد قد تعرضت لضغط رهيب لكى تقوم بتدريب واسع الاختلاف فى نوعه لعدد من الناس يتزايد باستمرار مما أدى إلى تدهور المستوى التعليمى على المستويين..!

ونتيجة للتوسع غير المدروس فى التعليم، والاتجاه إلى تعميمه فى مستويات أعلى فأعلى، ظهرت مشكلات تربوية تتمثل فى كيفية الجمع بين الكم والكيف، كيف تحتفظ بمستوى رفيع من التعليم المركز للجامعيين، وتظل توسع فى قاعدة الطلاب العاديين الذين يقلون عن هؤلاء فى الاهتمامات الأكاديمية، والطاقة الفعلية على التعلم والعمل، ويختلفون عنهم فى الاحتياجات التعليمية.. كيف تحقق هذا التوازن؟ مشكلة حقيقية لم تنج منها حتى أغنى البلاد ولكنها ظهرت بحدة وصلت إلى درجة الحرج فى الدول التى تتفشى فيها الأمية بدرجة عالية وحاجتها إلى إعداد جمهورًا كبيرًا يعرف القراءة والكتابة، وفى نفس الوقت عدداً من المتعلمين والمدربين يكفى لتقدم المجتمع..

وتمشياً مع احتياجات المجتمع الصناعية والزراعية والتعدينية والسياحية فى مصر فإن أهداف التعليم فى ظل الأمية المتفشية (٥٠٪ من عدد السكان) يجب أن تتغير من أجل أن تواكب الطبيعة الخاصة جداً لمصر، فإن جعل محتوى التعليم وطرقه أقرب إلى تجارب الحياة، وإعطاء النشاط المدرسى طابعاً أقرب إلى الروح العملية، والاهتمام بالمهارات التى توسع من مدارك الأطفال، وأن يمتد نشاط التعلم بما يجاوز تعليم الطفل فى الفصول، وبحيث يشمل نشاطات خارج المنهج الدراسى، يمارسها الطفل خلال أعوام تعليمه بالمدرسة وإلى ما يجاوز هذه الأعوام فى حياته المقبلة، وأن يمتد تعليم الكبار الذين لم ينالوا قسطاً من التعليم خارج نطاق تعليم القراءة والكتابة فقط إلى منظور أكثر رحابة يشمل المبادىء الحديثة للصحة السليمة والغذاء الطيب، والزراعات الجيدة،والحرف والحياة الأسرية، وتقنيات العمل وتحمل المسئولية، بما يعدل من نظرتهم وروحهم وصحتهم وكفاءتهم، ويساهم فى توجيه الحيوية المكتسبة فى صالح المجتمع، وهذه أمثلة لأفكار إن استطعنا تطبيقها فى تغيير أهداف التعليم فى المجتمعات التى تسودها الأمية، قد تشكل حلولاً بسيطة ولكنها فى نفس الوقت هامة وحيوية لمشكلة الأمية،وهبوط مستوى المتعلمين فى ظل هذا النظام.

وهناك تجارب فى دول أخرى مشابهة لمصر فى الظروف العامة من ناحية زيادة معدل الأمية، وقلة الموارد مع عدد سكان كبير. ودولة مثل المكسيك مثلاً ركزت برنامجها على إنشاء تعليم ريفى واقعى، كذلك عدلت فى نظام مدارسها بالمدن، لتجعله أقرب إلى الناحية العملية وأبعد عن الناحية النظرية، وأنشأت مدارس فنية ومهنية مختلفة فى كل المستويات، وكانت الإرساليات الثقافية فى الريف تتألف من أخصائيين فى الصحة العامة والزراعة والتشييد والحرف والصناعات والميكانيكا الريفية والموسيقى ووسائل الترفيه. وكان تركيز جهودها فى تحسين الحياة الريفية وكانت إرهاصاً لكثير من البرامج الريفية المشابهة التى أنشئت فى بلاد أخرى بعد ذلك بعشرين عاماً..! لقد استخدمت أولاً كمعاهد متنقلة للإحياء الثقافى وتدريب مدرسى الريف العمليين ثم أخذت الإرساليات بعد ذلك تصبح من وسائل تعليم المجتمع. وعن طريق هذه وغيرها من

الجهود التعليمية نجحت المكسيك فى تخفيض نسبة الأمية بها إلى ٢٣٪ فى منتصف القرن الماضى، وإن ظل نصف الأطفال بلا مدرسة..!

وفى عدد من الدول بذلت جهودًا خاصة لنشر تعليم القراءة والكتابة بين الكبار والصغار على السواء.والتجارب التى أجريت لتحقيق هذه الغاية، والتى اجتذبت اهتماما واسع النطاق، قد اتفقت نتائجها على أن محو الأمية لا يمكن أن يعتمد على عمل المدرسين الرسميين والجهات الحكومية وحدهم.بل يجب أن يستعان فيه أيضاً بتعاون أى شخص وكل شخص يعرف القراءة والكتابة. وفى الصين أنشأ (جينى ين) برنامجاً لمحو الأمية فى العشرينيات، استعان فيه بتلاميذ المدارس لتعليم مجموعات من الكبار بعد ساعات الدرس، مما استثار الحماسة الجماعية للكبار وشملت أنشطة أخرى مثل الغناء وغيرها. وثمة أحد المبشرين القدامى فى الفلبين، هو فرانك لاوباخ أثار الآمال فى أنه يمكن الاهتداء إلى طريق قصير لتعلم القراءة والكتابة، ولكن هذه الطريقة السريعة وبرنامج "واحد يعلم واحداً" ثبت أنها غير مثمرة فى وقتها.. ولكن الجهود الواسعة الانتشار لمحو الأمية بين الكبار قد جعلت من الواضح تماماً أن المهمة معقدة وصعبة، وأن النجاح فيها وثيق الصلة بالاستخدام المستمر للمهارة الجديدة وهى التعلم أما مجرد تعليم الناس على القراءة فلم يمح أميتهم على نحو فعال.. (تاريخ البشرية ـ التطور العلمى والثقافى ـ مطبوعات اليونسكو ـ ١٩٧١).

وفى دول كثيرة مثل ماليزيا نجحت فى تقليل معدل الأمية فى العشر سنوات الماضية ليصبح١١,٣٪ ويعطيها ترتيباً عالمياً هو ٩٠ على العالم، بينما فى مصر ورغم الجهود المتواصلة على مدى الخمسين عاماً الماضية فلم تفلح فى تخفيضه إلا إلى ٤٤,٤٪ ليصبح ترتيبها ١٥٣ على العالم..! (إحصاءات الأمم المتحدة ٢٠٠٥).

وقد اهتمت مصر فى منتصف القرن الماضى برعاية حركة محو الأمية لتمد الكبار بالتعليم الأساسى، وقام حينئذ ملاك الأراضى والمصانع والمراكز الاجتماعية وإتحادات العمال والتعاونيات والجمعيات الخيرية بتنظيم فصول لتعليم القراءة والكتابة والدين،

إلا أن الحادث الآن أن تلك الجهود انحسرت فى نهاية القرن ولم تعد تلك الجهات تقوم بدورها فى مساعدة الجهود الحكومية لتقليل الأمية (قد يكون ذلك لضعف التشريعات الاجتماعية والضرائبية التى تشجع مثل هذه الجهود)، ومازالت معدلات الأمية أعلى من دول كثيرة تتشابه مع مصر فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

والمصريون شعب ذو حضارة وتاريخ يضربان بجذورهما فى القدم، وجدود المصريين الذين عاشوا فى هذه المنطقة هم الذين علموا العالم فى زمانهم وقادوه إلى النور، والتعليم كان موجوداً فى مصر قدم الحضارة نفسها، فكيف يصبح أحفاد من علموا العالم أميين بنسبة النصف؟ كيف يصبح نصف المجتمع أمياً بعد كل هذه الجهود المبذولة لتقليل الأمية؟ كيف استطاع كل الناس فى جميع أنحاء العالم أن يقهروا الأمية وبعض الدول انتهت منها تماماً فى غضون سنوات قليلة؟ ونحن مازلنا نعانى من نفس المعضلة على مدى خمسين عاماً؟ (معدل تقليل الأمية فى مصر لم يتعد ١٥٪ فى أربعين سنة) بماذا نشعر عندما نتبين أن دولاً بدأت مشوار التحديث بعدنا بسنوات كثيرة قد سبقتنا فى مجال التقليل من حدة الأمية؟ إذا عرفنا أن معدل الأمية فى إندونيسيا (١٢,٣٪) وإيران (٢٣٪) وتونس (٢٦٪) وأوغندا (٣١,٣٪) والهند (٣٩٪) والسودان بكل مشاكله وفقره والحرب الأهلية الدائرة فيه (٤١٪)..!!

فى دول كثيرة تم صياغة نظام التعليم على نحو ملائم للظروف السائدة فى هذه البلاد، ففى الهند مثلاً كان الفقر المدقع سائداً والعمل اليدوى محتقراً من جانب الطبقات المتعلمة، أو كان مرتبطاً بالطبقات الدنيا فى المجتمع. ولقد قضى كل من طاغور وغاندى على الحد الفاصل بين التعليم والعمل، فحاولا أن يرفعا من كرامة العمل اليدوى، وأن يجعلاه أساساً لتدريب اليد والعقل ولإعادة الحياة إلى الشعب الهندى، وتحقيقاً لهذه الغاية اهتما أعظم الاهتمام بتعليم حرفة من الحرف(*).

(*) الحرف الخاصة التى اتخذها غاندى هى الغزل وفلاحة البساتين، واختيرت لأنها ترتبط بالحاجات الإنسانية الأساسية إلى الملبس والطعام وتحتاج إلى مهمات ومواد بأقل تكلفة ممكنة. وفضلاً عن ذلك فالغزل يرمز مباشرة إلى حملة غاندى لتحرير الهند من التبعية للصناعة البريطانية. ومع ذلك فإن مبادئه يمكن تطبيقها على أى حرفة تحقق النفع الاجتماعى.

وعند غاندى أن الحرفة اليدوية إذا درست بطريقة تستميل العقل وتثريه كما تنظم حركة اليد فأنها تكون وسيلة لتعليم مواد كثيرة مثل الرياضيات والجغرافيا، والعلوم العامة، واللغات، وهى فى نفس الوقت تمكن الطالب من أن يستثمر وقته فى عمل إنتاجى نافع، وعنده أن النشاط ليس كافياً فى ذاته، بل ينبغى أن يكون مفيداً. والحرفة يجب أن تعلم وتمارس بكفاية، وأن تخلق عادات الإتقان وتنمى الاعتماد على النفس واحترام الذات. وكان يعتقد زيادة على ذلك أن الطلبة إذ ينغمسون فى العمل، فقد يستطيعون تمكين المدرسة من تغطية جزء من نفقاتها على الأقل وهى فكرة جذابة فى مجتمع فقير ولا تسع موارده للإنفاق العام على التعليم العام لكل أطفاله..!

وفى النظام السوفيتى تم تطبيق نظام مشابه، وكان أهم مبدأ تربوى فى نظر بعض الباحثين مثل ديزرزيسكى (١٨٨٨ ـ ١٩٣٩) هو كيف نجمع بين أشد الواجبات المفروضة على التلميذ وأدقها وبين أقصى الاحترام لشخصيته، وقد رفض نظرية التربية "الحرة" على اعتبار أنها تؤدى إلى الرخاوة، وفقد زمام المبادرة، والعجز عن مواجهة الصعاب..! وكان يعتقد أن الإنسان يجب أن يكون أمامه شىء ممتع يعيش من أجله، وأن يتمتع بالتعليم ليستطيع تحقيق إنجاز فيه، وشدد على ضرورة أن يهدف التعليم إلى تنمية المتعلم بأكمله عن طريق التربية العقلية والخلقية والجسمية والجمالية، وعن طريق تعليم الصناعات المختلفة النافعة اجتماعيًا..!.

٣ـ تحسين مستوى التعليم فى ظل الأعداد الكثيفة للطلاب

كانت الضغوط من أجل مد نطاق التعليم بعد الثورة ليشمل أفراد الشعب ضغوطاً مركزة، وكذلك انتشار الاعتقاد بأن التعليم حق أساسى يجب أن تضمنه الدولة الحديثة لشعبها، وهو ما جعل تعميم التعليم أمراً لا مفر منه أمام الدولة الحديثة، ولكنه أتى معه بمشكلات تدور من حولها الرءوس، فإن كثرة ما هو موجود من الأميين وعجز غالبية الأطفال عن استكمال تعليمهم فى المدارس (فى عام ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ دخل ٨٧٪ من عدد الأطفال المدارس، بينما لم يستكمل تعليمه منهم غير ٥٠٪ فقط بعد السنة السادسة من التعليم الأساسى.!)، وتزايد عدد السكان بسرعة كبيرة كل عام، كل هذا فرض على

الدولة أن توسع خدماتها التعليمية بسرعة حتى يمكن على الأقل ألا يتدهور الموقف ويصير أسوأ مما هو عليه..

وقد ظل منحنى زيادة أعداد الطلاب فى مؤسسات التعليم فى مصر فى صعود مطرد، والذى واصل صعوده منذ أوائل القرن الماضى حتى الآن، ففى سنة ١٩٢٥ كان ٨٠٥٩ فتى و٤١ فتاة يتلقون العلم فى المدارس الثانوية الأميرية.وفى سنة ١٩٥٠ كان هناك ٨٠٩٥٧ فتى و١٢٨١٠ فتاة وزاد العدد بسرعة كبيرة لدرجة أنه بعد عام ١٩٤٩ ورغم أن شروط الالتحاق صارت أشد قسوة، وأصبح معيار دخول الجامعة هو درجات الطالب فى امتحان عام لجميع طلاب مصر (الثانوية العامة)، إلا أن هذا لم يمنع الزيادة الرهيبة فى عدد الطلاب حتى وصل فى ٢٠٠٦ إلى ١٠مليون تلميذ تضمهم ٢٠٠٠٠ مدرسة فى مراحل التعليم المختلفة وفى المستوى الجامعى كان نفس التوسع يجرى على نفس النمط، فقد أقيمت أول جامعة حديثة فى مصر وهى جامعة القاهرة سنة ١٩٢٥، وسنة ١٩٥٢ كان هناك ثلاث جامعات حديثة تخدم ٣٣ ألف طالب فى المجموع، بينما تزايد الرقم فى الخمسين سنة الأخيرة ليصبح عدد طلاب الجامعة فى ٢٠٠٦هو مليون و٤٥٣ ألف طالب موزعين على ١٣ جامعة حكومية، و٣٠ ألف طالب فى ١٢ جامعة خاصة..!!

وقد نتج عن هذه الزيادة المطردة فى عدد الطلاب الملتحقين بمؤسسات التعليم، مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على المجتمع فى مصر فى السنوات الأخيرة، إلى تغير فى نوعية الطلاب وبالتالى نوعية المتخرجين سواء من التعليم العام أو الجامعى. وأهم هذه التغيرات كانت فى شيوع سمات جديدة فى طريقة تفكير هؤلاء المتعلمين ودوافعهم لاستكمال تعليمهم، فلم يعد مهماً مثلاً كيف يمكن للتعليم إفادة المتعلم وتأهيله للانخراط فى سوق العمل، بل أصبح المهم هو حصوله على الشهادة فقط..!ولأن معايير العمل والترقى فى ظل الأعداد الكبيرة تغيرت هى الأخرى، وأصبحت تساوى بين المجتهد وغير المجتهد، بين المتفوق وغير المتفوق، بين المتميز والعادى، والخريج الذى يتخرج بامتياز مثل الذى يتخرج بمقبول، فالكل يعين فى نفس الوظيفة ويحصل على نفس الأجر، ويتم تدرجه فى وظيفته بناء على الأقدمية فقط، بدون أى

اعتبار لوجود مميزات أو مهارات أو قدرات خاصة فى كل إنسان، وشاعت ثقافة الاستسهال إلى الحد الذى جعل من الشهادة هدفاً فى حد ذاتها، ومن أجلها أصبح من الممكن عمل أى شيء سواء كان دروسًا خصوصية، أو غشًا فى الامتحان، أو فساد ورشوة للمسئولين إلى آخر هذه الممارسات التى أصبحنا نسمع عنها كل يوم..!

وكنتيجة لهذه الظروف مجتمعة وغيرها كثيراً، فقد كانت النتيجة الحتمية لذلك هى تدهور مستوى الخريجين إلى حد غير مسبوق، وأصبح السكوت أو التغاضى عن الأقدام لوضع حلول لهذا الوضع الشائن، يكاد يضع المثقفين والمفكرين فى مرتبة خيانة الأوطان والأمانات التى حملها لهم الوطن كطلائع فكر لهم دور واضح فى قيادة المجتمع وتوجيهه..!

ومشكلة التعليم فى ظل تلك الأعداد الكثيفة شائكة ومعقدة لسببين رئيسيين هما:

أولاً: أن هناك حلولاً قصيرة المدى وأخرى طويلة المدى وإن تقليل الأعداد فى التعليم الجامعى رغم أنه الحل الأمثل ـ لن يكون الحل المتاح على الأقل فى القريب العاجل، لأنه يحتاج إلى خطة متدرجة على مراحل زمنية محددة ومن خلال سلسلة من التغيرات فى منظومة التعليم ككل تسير كلها بتواز مع بعضها جنباً إلى جنب مع تغيرات مجتمعية ومؤسسية كثيرة وتغيرات أكثر فى طريقة التفكير، فمثلاً نظام الامتحان والتقييم فى المستوى قبل الجامعى والجامعى وبعد الجامعى يحتاج إلى عدة تغيرات جذرية، ونظام تمويل التعليم والتوظيف يحتاج كل منهما إلى أفكار جريئة وغير نمطية، وطبيعة التغيرات فى سوق العمل وما تتطلبه من عمالة على مستوى من المهارات والقدرات غير موجودة فى الخريجين الحاليين وهو ما يعنى فى النهاية زيادة البطالة بين المتخرجين والذى أدى إلى أن التعليم قد ساهم فى زيادة البطالة بدلاً من تقليلها، واحتياجات المجتمع من تخصصات معينة لا يوجد إقبال عليها فى مقابل الزيادة فى تخصصات أخرى، وخلق مسارات بديلة

للتعليم الزراعى والصناعى والفنى، والدخول فى المجالات الجديدة التى ظهرت على السطح فى السنوات الأخيرة مثل التكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا النانو، وتطبيقات أوراكل وغيرها وما يتبع ذلك من ضرورة إعداد كوادر مؤهلة فى هذه التخصصات الجديدة، وهذه أمثلة فقط لحجم الجهد والفكر والعمل الذى يلزم بذله من أجل البدء فى الخروج من المأزق المصرى الحالى والنفق المظلم الذى دخلناه ولا نعرف حتى الآن كيف نخرج منه..!!

ثانيا: أن الحلول على المدى القصير يجب أن تتضمن أفكارًا ثورية وغير نمطية، ويظهر أثرها سريعاً، وأن نكون مستعدين لدفع ثمن التقدم مهما كلفنا لأنه ببساطة لم يعد هناك اختيارات أخرى، فكما أشرنا سابقاً أما أن نتحضر أو نحتضر..!

والأفكار الجديدة وغير النمطية تعطى بعداً خلاقاً للتغيير وتدفع عجلة التغيير للدوران من جديد، وأفكار مثل:

ـ أن تقوم المصانع والمزارع الكبرى والشركات والهيئات والمؤسسات بإنشاء مدارسها الخاصة سواء لأبناء العاملين أو للعاملين أنفسهم لإعادة تأهيلهم وإكسابهم مهارات جديدة.

ـ التأهيل التحولى وهو يعنى إعادة تأهيل بعض التخصصات الزائدة لتقوم بأعمال فى مجالات أخرى، فعلى سبيل المثال يمكن تحويل الفائض الكبير من خريجى كليات التجارة الذى وصل إلى أرقام غير مسبوقة ويمثل حوالى ٩٠٪ من حجم البطالة بين خريجى الكليات المختلفة، إلى مدرسين بعد إعادة تأهيلهم للإسهام فى حل مشكلة نقص المدرسين (بلغ النقص فى عدد المدرسين فى عام ٢٠٠٥ حوالى ١٢٠٠٠٠ وظيفة) مع تدبير بدلات وحوافز وأجور مالية عالية تشجع هؤلاء على تغيير طبيعة عملهم.

ـ إزالة الفروق بين العمل البدنى والعقلى، والنظرة الاجتماعية المتدنية للعمل اليدوى فلم يعد من المقبول أن يسعى الشباب للحصول على وظيفة وليس على عمل..! فهناك

فرق بين أن تجلس على مكتب لا تعمل شيئاً وتتقاضى مرتب لا يفى باحتياجات الإنسان الأساسية، وأن تعمل وتنتج ما يكفيك وتساهم فى زيادة دخلك، كما تساهم فى زيادة الناتج القومى للوطن.

ـ أن يصبح التعليم مرتبطًا بالإنتاج ارتباطاً وثيقاً، ففى المصانع يقضى فيها عمالها جزءاً من ساعات العمل فى التعليم، ويصرف لهم جزء من المرتب نظير الساعات التى قضوها فى تعلم مهارات جديدة.

ـ ربط الطلاب بالمصانع والمزارع ليتلقوا تدريباً عملياً أثناء دراستهم، ويساهمون فى نفس الوقت بمجهودهم فى إنتاج هذه المصانع.

ـ مشكلة «انفلات الطلبة» وهى تحدث عندما تتناقض أهداف الطلبة مع دراستهم التى لا علاقة لها بتلك الأهداف، ويجدون مدرسيهم لا قدرة لديهم على التأثير وإطلاق الطاقات الكامنة فيهم، أو لعدم وجود فرق بين الاجتهاد والتقاعس أو بين التفوق والبلادة، وحينما يصبح الكل فى سلة واحدة..فيعبرون عن قلقهم بعدم المبالاة بالدراسة، وبالفوضى، وعدم الاهتمام بتحقيق أى إنجاز فى دراستهم.. ولعل الصورة التى تتكرر كثيراً فى بعض الكليات النظرية من تعدد سنوات الرسوب حتى وصلت فى بعض الأحيان إلى أن بعض الطلبة قضى خمس عشرة سنة قبل أن يتخرج من كليته لهى أبلغ مثل على هذا الإهدار فى الطاقات والموارد..! وبالطبع لا يمكن لعاقل أن يدعى أن مجانية التعليم تتيح لطالب أن يأخذ السنة الدراسية فى ثلاث أو أربع سنوات بالمجان، وتساوى بينه وبين الطالب المتفوق الذى تخرج فى أربع سنوات فقط فى التعيين والوظائف والرواتب..! وأبسط إجراء يمكن لتخاذه مع هؤلاء الطلاب المستهترين الذين يساهمون فى زيادة الكثافة الطلابية وزيادة العبء على العملية التعليمية بجميع عناصرها، هو أن يدفع الطالب القيمة الفعلية لأى مقرر دراسى يرسب فيه، وحينما يعرف الطالب أن له فرصة أولى فقط بالمجان وأن أى تعثر بعد ذلك سيكون مدفوع بالكامل سيكون هو أول من يذاكر دروسه ويجتهد ليتجنب أن يدفع مقابل عدم الجدية..! ولا يخفى على القارئ الفطن أن المصروفات التى سوف تدفع من الطلبة الذين رسبوا فى مقررات، سوف توجه

لتحسين العملية التعليمية لباقى الطلاب، كما أن هذا النظام البسيط سيعيد الجدية الضائعة إلى قاعات الدرس، ويعيد للجامعة والأستاذ والمحاضرة والمجموعة الدراسية والكتاب الجامعى الهيبة اللازمة لاستمرار العملية التعليمية فى تحقيق أهداف وغايات التعليم.!

- اضافة مقررات اختيارية للطلاب تشمل المهارات الحديثة فى استخدام البرمجيات، والحاسب، والتكنولوجيا الرقمية، والوسائط المتعددة، وتكنولوجيا النانو، واللغات الأجنبية، والتاريخ والحضارة، والاقتصاد والمستقبليات وغيرها.. ويمكن أن تكون هذه البرامج بمصروفات وتؤمن لمن يدخل فيها درجات أعلى (مثل درجات المستوى الرفيع)، ووظائف أرقى ليتم التفريق بين المجتهدين والخاملين، وبين الذين اكتسبوا مهارات جديدة والآخرين الذين ارتضوا أن يظلوا محلك سر..!!.

- تقليل أعداد الطلاب فى المجموعات الدراسية مع زيادة ساعات الاتصال contact hours بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب.

- الإدارة الواعية للمعرفة Knowledge Management، فلقد أصبح التعليم العالى يواجه كثيرًا من التحديات غير المسبوقة. لذلك أصبح من المحتم على القائمين على التعليم أن يتدخلوا محاولين إصلاح بعض من مشاكل المجتمع المحيط بهم وأن يظهروا العلاقة الوثيقة بين التعليم وخدمة المجتمع. كما لم يعد من المقبول أن يغلق الأكاديميون المكاتب عليهم وألا يتفاعلوا مع احتياجات المجتمع من حولهم. بل أن الطلبة أنفسهم أصبحوا يجاهرون بعدم قناعتهم بنوعية الخبرات المكتسبة من انخراطهم فى التعليم لسنوات طويلة من أجل الحصول على درجات علمية لا تؤهلهم لدخول سوق العمل الحقيقى أو تحقيق أى مردود اقتصادى لـ هذه السنوات الطويلة من التعليم. وأصبح أرباب العمل أيضا يتشككون فى قدرات وتعليم العاملين الجدد الذين يوظفونهم!!.

وحيث أن الحصول على البكالوريوس أو الليسانس فقط فى ظل التغيرات الدولية المتسارعة من حولنا ومتطلبات عصر العولمة Globalization لم يعد يكفى للحصول على وظائف مميزة فى سوق العمل بل أصبح يمثل صعوبة أيضًا فى الحفاظ على مثل تلك

الوظائف فيما بعد فى ظل التنافس الشديد بين الكفاءات المختلفة للحصول على فرصة عمل. لهذا أصبح من المحتم على الخريجين أن يتحولوا من مجرد حاصلين على شهادة جامعية إلى منخرطين فى تعليم مستمر Continual Learner وهو الفرق بين التعليم والتعلم فبينما يركز "التعليم" على الحصول على الشهادات العلمية نجد أن " التعلم" يعنى قدرة هذا الشخص على تطوير قدراته وتوسيع دائرة مهارته ومعارفه بصورة دائمة ومتجددة تمكنه بعد ذلك من المساهمة بفاعلية فى تطوير الاقتصاد المبنى على المعلومات كل فى مجاله. يجب على هؤلاء الأشخاص أن يعرفوا كيفية استخدام تكنولوجيا المعلومات Information Technologies وكيفية بناء المعلومات وأن يقيموا المصادر الجديدة للمعلومات وأن يتخطوا العقبات البيروقراطية الحالية والطرق التقليدية للتعلم حتى يستطيعوا خلق المواطن الواعى الذى يساهم فى رفعة وخدمة وطنه.

لقد بزغ مصطلح إدارة المعرفة فى السنوات القليلة الماضية ليوضح أن هناك فرقاً جوهرياً بين المعرفة والقدرة على إدارة هذه المعرفة والاستفادة منها. فهو يشير إلى الانخراط فى عملية ما بعد التعليم أو التخصص فى فرع ما وهذه العملية تعنى بكيفية التصنيف والتنظيم والدخول إلى المعلومات واسترجاعها وتقييمها بغض النظر عن طريقة عرضها وهى تهدف إلى خلق شخص يعى معنى المعلوماتية «Information Literate» بصرف النظر عن تخصصه فمثل هذا الشخص يمكن أن يكون فى المجال الطبى أو الهندسى أو حتى فى مجال العلوم الإنسانية. وهذا النوع من الخريجين سوف يصبح مكتفياً ذاتياً ويعرف كيف يوجه قدراته وقادرًا على التعلم على مدار حياته كلها ولا يقف عند حدود الشهادة التى حصل عليها. يفهم متى يحتاج إلى هذه المعلومات وما نوعية المعلومات التى يحتاجها وكيف يجمع هذه المعلومات ويقوم بتنظيمها وبناءها بطريقة فعالة تضمن سهولة الاسترجاع والاستخدام. كما أنه سوف يعى أن تنظيم وتوافر هذه المعلومات هو انعكاس للثقافة السائدة فى المجتمع، فالمجتمع الذى يحترم ويعظم قدرة المعلوماتية على الإسراع بتحريك وتيرة التنمية هو نفسه المجتمع الذى يعظم من قيمة الفرد الذى يسعى إلى قيمة التعلم المستمر وتحسين مستوى قدراته ومهارته ومعارفه.

إن الدور الهام الذى تستطيع أن تلعبه فكرة إدارة المعرفة فى تحسن مستوى التعليم الجامعى يجعل من المعلوماتية شريكاً أساسياً فى إعادة صياغة وتشكيل ودعم المناهج والكورسات التى تدرس فى الجامعات حتى نصل إلى مخرجات تعليم ناجحة. وإدارة المعرفة فى معناها الواسع لا تسعى فقط إلى أن يصبح أعضاء هيئة التدريس واعين ومستخدمين للتكنولوجيا الحديثة فقط بل قادرين على إدخال الوسائل المعلوماتية الحديثة Information Tools فى نسيج برامج التدريس الخاصة بهم بطريقة تشجع على مشاركة الطلاب فى النشاط الخاص بالتعلم واعتبارهم عنصراً فاعلاً فى منظومة عملية التعلم هذه. وتهدف إدارة المعرفة بهذا المعنى إلى الخروج من الحيز الضيق لمناهج التدريس التقليدية وفتح مجالات أرحب لتأهيل الخريجين بالقدرات والمهارات المتميزة بالجودة اللازمة للانخراط فى سوق العمل الحقيقى كما تخلق نوعاً من الاقتناع من أرباب العمل بهؤلاء الخريجين مما يخلق بالتالى إقبالاً من الطلاب على الالتحاق بهذه المؤسسة التعليمية دون غيرها.

ويمكن زيادة توافر المعلومات باستخدام النشر الإليكترونى والمدخلات المعلوماتية الحديثة والتطور فى الاتصالات وهو ما يشمل شبكة المعلومات Internet والمواقع الإليكترونية Web Siteوبرامج الوسائط المتعددة Multimedia Programming واللغات المحددة mark-up Languages والمسح التصويرى Scanning وبرامج وأجهزة التصوير Imaging hard and software ولكى نوضح كيف أن إدارة المعرفة يمكن أن تزيد من توافر المعلومات للتدريس والبحث العلمى فيكفى أن نعرف أنه يمكنها أن تعطى تنظيماً للبيئة الإليكترونية وخلق بدائل جديدة للكورسات والمناهج فمثلاً عن طريق بناء موقع إليكترونى لكورس ما (وهو ما يحتاج إلى متخصصين وبرامج وأجهزة كمبيوتر) يمكن إضافة كتاب المادة Syllabus إلى هذا الموقع كما يمكن إضافة قائمة القراءات المطلوبة Reading List وكذلك مقالات بحثية كاملة Full articles ومواد اضافية بعد عمل مسح عن طريق الإنترنت ويتم بعد ذلك إضافة الشرائح الملونة slides ويمكن أيضاً اضافة تعليقات صوتية وأفلام فيديو كما يمكن أيضًا وضع مذكرات المقرر وأن

يكون هناك اتصال مباشر بالمصادر العالمية والمحلية. وبتدريب الطلاب على الدخول إلى هذا الموقع واستخدام النشر الإليكترونى Information Commons ومحطات العمل المتقدمة Advanced work station يمكنهم الحصول على جميع المعلومات المطلوبة على مدار الأسبوع وتكون متاحة لهم قبل الحضور إلى قاعة الدرس بما يجعل من الوقت المخصص لقاعة الدرس من أجل الأسئلة وزيادة الإيضاح من الأستاذ. وقد طبق هذا النظام فى عدة جامعات غربية وأظهرت النتائج الأولية لهذا النظام مشاركة أكثر من الطلاب فى الكورسات وجعلتهم أكثر حماساً واهتماماً بالمقرر أظهرت أيضاً أداء أفضل للطلاب وسمحت لهيئة التدريس بالتداخل بطريقة أكثر فاعلية مع الطلاب مما أثار حماس أعضاء التدريس لقضاء فترات أطول مع هؤلاء الطلاب المتحمسين وكانت نتيجة إتباع الطريقة الجديدة تحسين نوعية التدريس ونوعية التعليم والتعلم وتقديم خبرة جديدة لكل الطلاب فى نفس الوقت، وعلى المدى الطويل قللت تكلفة التعليم بتقليل الاعتماد على الكتب الورقية التى زادت تكلفتها فى السنوات الأخيرة نتيجة زيادة تكلفة الورق والطباعة.

إن اللجوء إلى النظم الحديثة فى التفكير ومجابهة المشاكل التى تواجه التعليم الجامعى فى ظل المتغيرات العالمية المحيطة بنا وفى ظل تعاظم الدور المنوط بالجامعة لتقود مسيرة التغيير والتنمية فى المجتمع يضع كثيرًا من التحديات أمامنا ويصبح من المحتم علينا أن نلجأ إلى طرق تفكير غير تقليدية حتى يتسنى لنا عبور الفجوة الواسعة بيننا وبين الآخرين واللحاق بركب التقدم فى القرن الواحد والعشرين.

٤ ـ خلق مصادر تمويل موازية للتعليم(*)

بمراجعة سريعة للأرقام نجد أن عدد الطلاب الجامعيين المقيدين فى العام الدراسى الحالى ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦ فى مصر يصل إلى مليون ٤٥٣ ألف و٦٢٩ طالبا، وبلغ عدد

(*) نشرت فى صحيفة الوفد بتاريخ ٢٠٠٢/١١/٩

الطلاب فى الدراسات العليا ١٠٣٣٣٥ وأعضاء هيئة التدريس ٤٥٥٩٣ عضواً وعدد المبعوثين فى الخارج ٤٦٩٦ مبعوثاً. أما ميزانية التعليم العالى كما حددها وزير التعليم فى تصريح حديث (أكتوبر ٢٠٠٦) وصلت ٨,٣ مليار جنيه (ما يمثل أقل من ١٪ من الناتج القومى..!)، تستهلك المهايا والأجور ٤,٥ مليار جنيه منها.!

وبحسبة بسيطة نجد أن نصيب الفرد المستفيد من هذا الإنفاق يساوى مبلغاً ضئيلاً جداً ويدخل فى هذا المبلغ نصيب الفرد فى الإنفاق على المهايا والأجور والإنشاءات وقاعات المحاضرات والمعامل والورش والعيادات، وكافة أوجه الإنفاق الجامعى الأخرى..!

هذه المفارقة الكبرى والتفاوت الواضح بين الأعداد من جانب والإمكانات المالية المتاحة من جانب آخر تضعنا فى مأزق حقيقى يهدد إمكانية أى تطوير وقد يطيح بكل طموحات وجهود هذا الجيل من أجل التنمية.. هذا بالاضافة إلى أن انتظار موازنة الدولة لتفى بهذا الاحتياج المتزايد للتمويل قد يؤخر عملية البدء فى الإصلاح إلى أجل غير مسمى..! ومن هنا ظهرت الحاجة إلى تدبير "تمويل متواز أو بديل" لموازنات الدولة المخصصة للتعليم الجامعى، وهو يعنى خلق مصادر تمويل للتعليم الجامعى وتدبير موارد اضافية على الميزانية الحكومية، وبدون تحميل أعباء جديدة على الموازنة..

والأفكار فى هذا المجال لا تنتهى،و نوجز بعضها فى الأفكار التالية:

ـ مشاركة القطاع الخاص: عندما نجد أن بعض الشركات الكبرى ترعى الأنشطة الرياضية بعدة ملايين من الجنيهات فى العام الواحد، ونلمس مدى التنافس بين هذه الشركات لرعاية أحداث عامة وفنية ورياضية قد تبدو قليلة الأهمية ولا تتناسب مع المبالغ المدفوعة لنيل شرف هذه الرعاية، يتبادر إلى الذهن فوراً ضرورة مخاطبة وتشجيع هذه الشركات لتقوم بنفس الدور ولكن لتطوير التعليم.! ولكى نشجع مشاركة القطاع الخاص والشركات الكبرى ورجال الأعمال فى مشروع التمويل البديل للتعليم الجامعى، يجب أن يكون هناك مقابل مادى ومعنوى. ولكى يكون هناك مقابل مادى لمشاركة هذه الشركات فى التمويل، يجب أن يواكب ذلك تطوير فى التشريع بما يسمح

لهذه المؤسسات بالاستفادة من تلك المشاركة، عن طريق إعفاء كامل للضرائب وتقليل شريحة المحاسبة الضريبية بكامل تكلفة المشروع وبدون حد أعلى وليس فى حدود ١٠٪ كما هو معمول به الآن فى حال تمويل مشروعات التعليم أو الصحة.! وهذا التعديل التشريعى سوف يشجع هذه الشركات على السعى حثيثاً للمشاركة فى تمويل مؤسسات التعليم والصحة، كما يمكن أن يسمح لها أيضًا بوضع أسمائها عليها ورعاية المطبوعات والكتب أو رعاية بعض الخدمات مثل الرعاية الصحية والاجتماعية للطلبة، ومطبوعات مكتب التنسيق وكارنيهات الطلبة.

أما المقابل المعنوى فيكون بتسليط الأضواء إعلامياً فى جميع وسائل الإعلام، وذكر حجم المساهمات وأهميتها، كما يمكن عمل لوحات الشرف على المنشآت الجديدة التى تم إنشائها، أو بإطلاق أسماء الرعاة على المنشآت التى أقاموها، وهذه الفكرة تم تنفيذها قبل ذلك قديماً وحديثاً، ويكفى أن نعرف أن جامعة القاهرة نفسها قامت على تبرعات الأمراء والأميرات والأعيان والأثرياء فى بداية القرن الماضى، وكان أحد معايير الوجاهة الاجتماعية هو مقدار الصرف على التعليم، وحديثاً هناك مساهمات عديدة من خارج الجامعة فنجد مثلاً وحدة الملك فهد فى الدور الرابع بالقصر العينى والتى تبرع لها خادم الحرمين الشريفين بكامل قيمة بناء وتجهيز دور كامل بكل وحداته وخدماته للمستشفى الجامعى، وكذلك مدرج العيوطى بكلية التجارة جامعة القاهرة، والذى أقامه الأستاذ عيسى العيوطى وجهزه تجهيزاً فاخراً تخليداً لذكرى نجله الذى توفى فى حادثة..

ويمكن للشركات المساهمة فى التمويل عن طريق أحد الأوجه التالية:

- المشاركة فى الإنشاءات الجديدة سواء كانت مدرجات أو معامل وورش أو عيادات وعنابر.
- المشاركة فى الميزانية النقدية للأقسام أو الوحدات الخاصة.
- المشاركة فى إنشاء وتمويل المكتبات والدوريات والمراجع.

- المساهمات العينية عن طريق توريد الأجهزة ومستلزمات التشغيل بناء على احتياجات الأقسام وكذلك يمكن لشركات الكمبيوتر والحاسبات تقديم الأجهزة والبرامج والأقراص المدمجة وبرامج وكورسات التدريب اللازمة، وينطبق ذلك على شركات التكييف وأجهزة التصوير والوسائط المتعددة.

- المشاركة فى تمويل الأبحاث العلمية عن طريق:

● تمويل أبحاث علمية تضع الأقسام المختصة دراستها المبدئية وجدواها الاقتصادية، على أن تخدم هذه الأبحاث قضايا فعلية وترتبط بمشاكل المجتمع، ويتم عرضها بعد ذلك على الشركات الكبرى ذات الاختصاص والتى تهتم بهذه القضايا بنظام المزايدة لمن يدفع أعلى.! وتقدم الشركات المانحة المبالغ المتفق عليها ولمدة محددة، على أن تغطى هذه المبالغ مكافآت أعضاء هيئة التدريس المشاركين فى البحث والمساعدين والفنيين،كما تغطى مصاريف الأجهزة والمستلزمات والمواد والخامات والمراجع والمصاريف الإدارية ومصاريف النشر. ويكون ذلك فى مقابل أن يكون للشركة المانحة حق الانتفاع من نتائج البحث وتطبيقاته فى إطار قانونى متفق عليه.

● تمويل جوائز مالية للأبحاث المتميزة التى يقوم بها أعضاء هيئة التدريس.

● تمويل جوائز مالية ومنح دراسية للطلاب المتفوقين.

● تعيين أوائل الخريجين فى هذه الشركات استكمالاً لنشاطهم البحثى أثناء الدراسة.

الاستقلال المادى للأقسام والوحدات الخاصة:

يلزم تطوير النظام المالى للجامعة بما يسمح للأقسام والوحدات الخاصة بوجود ميزانية خاصة بها، لها استقلالها المالى الكامل وحقها فى نقل بنود الموازنة وتمكينها من تطوير إيراداتها الذاتية وقبول المنح والهبات والتمويل البديل، فضلاً عن إمكانية الاحتفاظ بفائض موازنتها وترحيله للعام التالى واستثماره عن طريق ودائع بنكية بفائدة لصالح تلك الأقسام.

المشاركة فى المشاريع البحثية العالمية:

تقوم فكرة المشاريع البحثية العالمية على اشتراك عدة دول ومراكز بحثية فى أماكن مختلفة من العالم فى دراسة إحدى المشكلات التى لها أبعاد دولية وتؤثر فيها ظروف وأوضاع كل دولة. وعادة ما تقوم شركات عملاقة أو منظمات دولية وهيئات عالمية بالتمويل والتنسيق لهذه المشروعات البحثية ونشر نتائجها فى أبحاث مجمعة يكون لها أبلغ الأثر فى التعامل مع هذه المشاكل. وقد تصل الميزانيات فى بعض هذه الأبحاث إلى عدة ملايين من الدولارات. ويستلزم الأمر تغيير بعض القوانين بما يسمح للأقسام وأعضاء هيئة التدريس بالاشتراك فى مثل هذه المشروعات والاستفادة من الخبرات العالمية ونقل التطور التكنولوجى.

الوحدات الجامعية الإنتاجية:

وهى نظام يسمح بتكوين وحدات إنتاجية خدمية على مستوى كليات الجامعة المختلفة تقدم خدماتها بمقابل يمكن أن يساهم جزء منه فى تحسين العملية التعليمية.فيمكن مثلاً عمل شركة تأمين مصغرة فى كلية التجارة ويقوم على إدارتها أساتذة قسم التأمين بالكلية ويتدرب فيها طلاب القسم وأقسام أخرى مثل إدارة الأعمال تدريباً عملياً وليس نظرياً على أعمال التأمين وإدارة الشركات وتقدم هذه الشركة المصغرة خدمات التأمين لطلاب الجامعة والأساتذة والعاملين. كما يمكن أن تنشىء كلية التجارة أيضاً بنكاً جامعيا صغيراً يقدم خدماته وقروضه للطلاب والأساتذة ويمكن لهذا البنك أيضا استحداث نظام القروض التعليمية للطلاب أو القروض البحثية للباحثين فى مرحلة الدراسات العليا. وبالمثل يمكن إنشاء معمل لإنتاج البذور والتقاوى المحسنة فى كلية الزراعة أو معمل دواجن وعيادة بيطرية فى كلية الطب البيطرى أو معمل للتوحيد القياسى بكلية الهندسة وغيرها كثير..!

نادى الخريجين التذكارى

هذا النظام يعمل على ربط الخريجين بكلياتهم بعد التخرج وانخراطهم فى سوق العمل عن طريق عمل لقاءات سنوية بينهم فى حفل كبير يتم فيه التبرع للكلية بمبلغ من

المال يستخدم لتطوير التعليم، وفى المقابل تذكر أسمائهم فى لوحة الشرف التذكارية للكلية. وهناك الكثير من الخريجين الذين وصلوا إلى مناصب براقة ونجحوا فى مجال تخصصهم، يسعدهم أن يرجعوا للكلية التي تخرجوا منها ويساهموا فى نشاطها عرفاناً منهم للدور الذى لعبته الكلية فى حياتهم.

تنمية الرياضة الجامعية:

فى كل جامعات العالم هناك اهتمام بالرياضة الجامعية، ومنح دراسية تعطى للمتفوقين رياضياً، ودورى قوى للفرق الرياضية الجامعية يحضره آلاف من المشجعين سواء من داخل الجامعة أو خارجها، ويمكن للدخل المتوفر من تسويق الرياضة الجامعية بطريقة علمية سليمة أن يساهم بشكل فعال فى تحسين العملية التعليمية لباقى الطلاب وتحسين جميع الخدمات التعليمية الأخرى.

بيع وتسويق شعار الجامعة:

كذلك يمكن استحداث نظام بيع العلامة الجامعية (شعار الجامعة) وهو نظام معروف فى الجامعات الأمريكية يعمل على صناعة وتسويق كل الأشياء التى تحمل شعار الجامعة مثل الملابس وملابس التدريب والكوفية والتى شيرت والأقلام والكراسات والولاعات والساعات والنظارات وجميع أنواع التذكارات والهدايا لصالح الجامعة فى منافذ بيع تابعة للجامعة وموزعة على الكليات المختلفة، واستخدام العائد فى تمويل الأنشطة التعليمية. وهو بالاضافة إلى أنه يخلق نوعاً من الولاء بين الأساتذة والطلاب والخريجين للجامعة التى ينتمون إليها، فإنه يحقق عائداً مادياً كبيراً نظراً لحجم البيع المتوقع فى ظل الأعداد الكبيرة المتوفرة من الطلاب فى الجامعات المصرية.

ويبقى فى النهاية أن تحديث التعليم فى مصر عملية متعددة العناصر ومعقدة ولكنها غير مستحيلة، فدول أخرى فى مثل ظروفنا الاقتصادية والاجتماعية أو أقل نجحت فى تطوير أنظمتها التعليمية بما يحقق أهدافها فى الترقى والتقدم.! وعملية التحديث لا يرتبط التقدم فيها بتحديث احد العناصر فقط أو تطويره، ولكنه يستلزم بناء

منظومة متكاملة تتعامل مع كل العناصر الداخلة في العملية التعليمية، كل على حدة، وأن يتم التعامل مع كل من هذه العناصر بكل دقة واحتراف، وان يصل إلى يقين القائمين على عملية التحديث، إن الوعي بوجود عناصر مختلفة متداخلة فيما بينها تستلزم قدرة هائلة على إحداث تناغم وتوافق بين هذه العناصر مجتمعة، كما أنها تستلزم في نفس الوقت وضوح للرؤى والشجاعة في تقبل الأفكار الجديدة غير النمطية، والقدرة على دفع ثمن التقدم، فالتقدم لا يأتي من تلقاء نفسه، وإنما بامتلاك أسبابه ودوافعه، والقدرة على التضحية من أجله، كل ذلك في إطار من الاستمرارية في العمل وبذل الجهد وعصف الأفكار وتفان من أجل تحقيق الهدف..!.

وإذا كانت الدولة تخصص أقل من ١٪ فقط من الناتج القومي للتعليم، بينما يعرف القاص والداني أن التعليم هو الاختيار الاستراتيجي لمصر لكي تخرج من عنق الزجاجة التي ظلت محبوسة داخله لعدة عقود متتالية، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الدولة مازالت غير مستعدة لدفع ثمن التقدم، وأنها تتصور أنه يمكنها الاستمرار بنفس الطريقة، أو أنها مازالت تخلط الهزل بالجد، أو بدا لها أنه يمكن الوصول إلى التقدم بدون تضحية ما أو حتى عدة تضحيات قد تكون جسيمة ولها تأثيرات حادة على المجتمع، ولكنها أصبحت حتمية والاختيار من دونها أصبح صفراً..! فإما أن ندخل إلى الحياة أو نظل في العراء بمفردنا معزولين منبوذين معرضين لكل عوامل التآكل والتعرية والفناء..!، فكيف يمكن للدول النامية أن تستوعب تكنولوجيا التحول الاقتصادي والاجتماعي دون مؤسسة علمية قوية؟ هل يجب أن ننتظر عقوداً قبل المشاركة في العلم والتكنولوجيا العالمية؟ هل يجب أن نقتنع بالوضع المتدني الذي وصلنا إليه؟ الإجابة بالنفي على هذه الأسئلة تستدعي وقفة جادة مع النفس، فبينما دول صغيرة مثل إسرائيل تصرف على البحث العلمي ٣٪ من الناتج القومي، ونحن نصرف أقل من ١٪ فقط على التعليم والبحث العلمي مجتمعين..! ، وهو ما يعني أحد أمرين كلاهما مر..! أولهما أن نكون مازلنا لم نعي قواعد اللعبة.! أو أننا غير مستعدين للعبها صح.!

إن تغـيير الأولويات فى تدبـير الموازنات اللازمة لتـحسين نوعية الـتعليم في مصر، يصـبح فرض عين على صـانعى القرار، وإن استـقطاع الموازنات المطـلوبة من موازنات قـطاعات أخرى، قـد يكون هو التـضحية التى يـجب أن تدفعهـا الدولة والناس من أجل تحقيق هذا الهـدف الاستراتيجى، وقـد يكون هو ثمن التـقدم الذى يجب أن يدفع سواء رضينا أم لم نرضى..!

٥- الترجمة.. وصناعة التقدم..!!

الدخول إلـى نادى التقدم يـستوجب الحصـول على بطاقـة العضويـة اللازمة للدخول..! وبـطاقة الدخول معـرفة لغة التقدم والـتكلم بها..! ولغـة التقدم المقصودة هـنا تحمل المعنيين، المعنى اللغوى وهو أن نعرف لغة الدول المتقدمة كلغة بمفرداتها وقواعدها وتطبيقاتها، والمعنى الآخر هو الذى يعنى أن نعرف كيف يفكر الذين وصلوا إلى التقدم ونفهم ماهيته..!

وأهمية الترجمة فى صناعة التقدم لا تخفى على أحد، فقد أوضحنا فى فصول سابقة أهمـية تلاقح الحضارات واستفادة كل حضارة مما أنجزته الحضارات السابقة، وقد بينا أن هذا الـتواصل هو من أجل استـمرار الحضارة نـفسها، والـترجمة تعـتبر إحدى أهم وسائل انتقال المعرفة بين الحضارات المختلفة، وإحدى وسائل هذا التواصل، سواء كانت الترجمة من أو إلى اللغة الأخرى..

وقد لعبت الـترجمة دوراً كـبيراً فى النـهضة العـلمية الـعارمة التى صـاحبت صعود الحضـارة الإسلامية في عصـورها الزاهـرة، وقد كانت النـهضة أول الأمـر قاصرة على الدراسات الدينية واللغـوية، ثم كان المترجمون، حلقـة اتصال بين العرب وهذه العلوم. هم نقلة علوم اليونان والسريان، والأقـباط والفرس والهنود إلى اللغة العربية. وقد اسهب ابن النديم فى «الفهرست» وابن أبى أصيبعة فى «طبقات الأطباء» فى ذكر عدد من المترجمين.

ويقول: «كرد على» أن خـالد بن يزيد سنة ٨٥ هـ كـان أول من عرفت له مكتبة فى الإسلام، ويقول ابن النديم أنه عنى بإخراج كتب القدماء. وأول من ترجمت له كتب الطب وكتب النجوم وكتب الكيمياء. أحضر جماعة من فلاسفة اليونان وأمرهم بنقل الكتب فى

الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى، وهم أول نقلة فى الإسلام من لغة إلى لغة.

وقد بلغ عهد الترجمة أوجه فى بيت الحكمة، التى أنشأها هارون الرشيد فى بغداد، ووصل النشاط فيها فى ذروته فى عهد المأمون حيث نشطت الترجمة لنقل العلوم من اللغات الأجنبية، وقد حوى بيت الحكمة، كتباً وضعت فى الأصل بلغات مختلفة، ومن أهمها الكتب اليونانية والفارسية، والهندية والقبطية والآرامية. ويقول ابن أبى أصيبعة: أن الرشيد، قلد يوحنا بن ماسوية ترجمة الكتب القديمة، مما وجدها فى أنقرة، وعموريه، وسائر بلاد الروم حين غزاها المسلمون. ويحدثنا "ابن نباتة" أن المأمون عين "سهل بن هارون" كاتباً على خزانة الحكمة، حيث كتب الفلاسفة التى نقلت إلى المأمون من جزيرة قبرص. وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وقد اغتبط بها المأمون، ويروى ابن النديم أن مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية إلى خزانة الحكمة، طلبها المأمون من ملك الروم.

ويعتبر عصر المأمون أزهى عصور بيت الحكمة، فقد كان المأمون مثال الخليفة العالم، يهب العلم وقته ورعايته، كما يهب العلماء عطفه وعنايته، فقد روى ابن أصيبعة أنه أمر أن يأخذ شيخ المترجمين العرب الكحال الكبير (طبيب العيون) حنين بن اسحق وزن ما يكتب ذهباً. وأهداه الخليفة المتوكل ثلاث دور مجهزة بأفخر الأثاث والرياش وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم..! وقد اهمل المعتصم شأن هذا البيت العظيم وتوالت الأحداث بعد ذلك مما زاد فى الإقلال من شانه، ولكنه ظل يقاوم إلى أن داهم التتار بغداد، وقتل "هولاكو" المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فانتهى مع الأسف هذا العهد العظيم واندثرت خزانة الكتب، وعفيت آثارها.

أما دار الحكمة فقد أنشئت بالقاهرة فى عهد الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ. وقد حملت إليها الكتب من خزائن القصور، وحملت إليها من خزائن الحاكم من الكتب، ما لم ير مثله، مجتمعاً لاحد الملوك قط، وأجريت الأرزاق على من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء. يقول "المقريزى" وأبيح دخولها لسائر الناس، فوفدوا على اختلاف طبقاتهم،

فمنهم من يحضر للقراءة، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم. كما أباح الحاكم المناظرة بين المترددين إلى دار الحكمة، فيعقدون الاجتماعات والمناظرات. وظلت دار الحكمة مزدهرة حتى القرن السادس الهجرى (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ـ د. عبد الحليم منتصر ـ ١٩٦٦).

ولقد عرف الغرب أرسطو فى البداية من خلال شروح ابن رشد ، ويكفى أن نعرف أن ابن رشد فى شرحه الكبير لكتاب واحد من كتب أرسطو "الميتافيزيقا" أو "ما بعد الطبيعة" قد اقتربت صفحاته من ألفى صفحة..! ولا يستطيع أى منصف أن ينكر فضل ابن رشد على الحضارة الغربية الحديثة التى انسلخت عن أصولها الإغريقية فى عصور الظلام لتعاود نهضتها مرة أخرى بعد ترجمة المؤلفات العربية الشهيرة لابن سينا وابن رشد وابن الهيثم والخوارزمى وغيرهم كثير إلى اللغات الأسبانية واللاتينية مرة أخرى، فالمعرفة التى انتقلت من الحضارة المصرية القديمة فى أول الأمر إلى الحضارة الإغريقية كانت بسبب الترجمة، والمعرفة الإغريقية التى انتقلت إلى العرب كانت بسبب الترجمة، والمعرفة العربية التى عادت إلى الغرب مرة أخرى كانت بسبب الترجمة، فالترجمة كانت الوقود اللازم لاستمرار عربة التقدم فى السير والعامل المشترك الفعال على مدى التاريخ فى التلاقح المستمر بين الحضارات، واستخراج أحسن ما فيها..

من حسن المصادفات التاريخية للحضارة الغربية الحالية أن جاءت لحظة تاريخية مذهلة أعيد فيها اكتشاف المعرفة، ففى عام ١٠٨٥م، سقطت قلعة توليدو الغربية فى أسبانيا لتجد القوات المسيحية المنتصرة بين أيديها كنزاً أدبيًا، كان أبعد ما يكون عن أحلامهم. فمنذ ما يزيد على مائة عام، لم تكن أوربا تعرف عن العرب الأسبان إلا القليل من خلال بعثات فردية قام بها بعض الباحثين، وبينما كانت أوربا تترنح فى عصور الظلام كانت قرطبة عاصمة الدولة الأندلس تتوهج من الحضارة والرقى. وعلى سبيل المثال كانت المكتبة الكبيرة التى بنيت داخل القصر الملكى عام ٩٧٠ م، كانت موضع افتخار العرب فى أسبانيا، ويشهد فهرست هذه المكتبة العظيمة على ضخامتها إذ يتألف الفهرست من ٤٤ مجلداً كل جزء يحتوى على ٥٠ صفحة كبيرة. وقد بلغ عدد الكتب

التى تضمها هذه المكتبة أكثر من٤٠٠,٠٠٠ كتاب أى أكثر من عدد الكتب الموجودة فى فرنسا كلها..!! (عندما تغير العالم ـ جيمس بيرك ـ ١٩٩٤).

وقد كانت هذه الثروة المعرفية هى النواة لما عرف بعد ذلك بمدرسة توليدو للترجمة والتى أصبحت فيما بعد أهم معهد فى القرون الوسطى فى الترجمة وقد تميزت بأنها:

أولاً: احتوت واحدة من أكبر المكتبات العربية واللاتينية والأسبانية خلال العصور الوسطى والتى استطاعت الحصول على الكنوز العربية من المدن الإسلامية المختلفة بعد سقوط الأندلس.

ثانياً: تمت فى هذه المدرسة أهم الترجمات لأمهات الكتب العالمية فى جميع فروع العلم وخاصة أهم المراجع العربية الإسلامية فى العلوم والرياضيات وعلم الأدوية والنباتات والطب، كذلك بعض الترجمات الإغريقية والدينية والعبرية واللاتينية.

وقد أنشئت هذه المدرسة بين عام ١١٢٧ ـ ١١٥٢ م بواسطة الأسقف ريماندو من توليدو، وكان معظم القائمين على الترجمة من اليهود والمسلمين والمسيحيين وبعض الرهبان وبعض الباحثين من بلجيكا وإيطاليا وألمانيا وبعض الدول الأخرى. وقد تم ترجمة بعض الكتب الهامة جداً فى تاريخ الإنسانية مثل "تغير مسار الرياضيات" لأرشميدس و"ما بعد الطبيعة" لأرسطو و"عناصر الهندسة" لأقليدس ولم يتم ترجمة هذه الكتب من مصادرها الإغريقية الأصلية ولكن من مصادرها العربية والتى تم حفظها بعد انتصار العرب وفتوحاتهم فى شرق المتوسط. وقد تم أيضًا فى هذه الحقبة ترجمة كتب ابن سينا، وبطليموس والقرآن الكريم.

وفى العصر الحديث يعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) شيخ المترجمين المصريين فى عصر محمد على، فقد تخرج فى الأزهر، وأرسل إلى فرنسا إماماً لأول بعثة تعليمية سنة ١٨٢٦ م فيتعلم الشيخ الفرنسية ويحذقها وبعد عودته عين فى عام ١٨٤٢ مديراً لقلم الترجمة، الذى أنشأه الوالى، ثم صار ناظراً لمدرسة الألسن، واشتهر بترجمة الكتب الجغرافية والتاريخية والعلمية، وقام بدور هام فى نقل طبيعة الحياة فى فرنسا إلى الوطن، وفى تطور الفكر المصرى، وهو الجدير حقًا بلقب

«باعث النهضة المصرية»، ومن مؤلفاته "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" و"مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب المصرية".

وقد بدأ رفاعة أثناء نظارته لمدرسة الألسن فى تطبيق نظاماً فريداً فى تحفيز الطلبة على تعلم اللغة الفرنسية، فكان يملأ جو المدرسة بالمرح، وهو أب رحيم لكل الطلبة، وأخ كريم لكل الأساتذة، هو حركة دائمة لا تتقيد بميعاد ولا أجراس، يحلو له أحياناً أن يعقد دروساً بعد العشاء أو فى الثلث الأخير من الليل، والطلبة فى إقبال على التحصيل، والأساتذة في إقبال على الدرس، فإذا نال الطلبة قسطاً لا بأس به من الفرنسية والعربية، قام الشيخ بتمرينهم على الترجمة، ولكنه لا يمرنهم بموضوعات يكتبونها فى كراستهم ثم يطرحونها للنسيان، بل فى كتب نافعة يترجمون منها ما استطاعوا، فإذا وقفوا فى فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها رجعوا للشيخ رفاعة فساعدهم ثم عرضوا ما ترجموه على الشيخ محمد قطة العدوى الساعد الأيمن لرفاعة ليصحح لهم ما ترجموه إلى لغة عربية سليمة..!(رجاء النقاش - أهرام٥/١١/٢٠٠٦) ،وقد وعى الشيخ رفاعة أهمية التدريب العملى فى التعلم، فقام بتمكين الطلبة من ترجمة نصوص حقيقية كاملة وليست مقاطع صغيرة من تلك النصوص وهو ما أدى إلى أن يتعلم الطلاب الترجمة الصحيحة بناء على وحدة الموضوع المطروح أمامهم، وبناء على فهم متكامل لجميع موضوعات الكتاب، وهذا النظام المحفز لطاقات الطلاب الذى طبقه الشيخ رفاعة فى منتصف القرن التاسع عشر قبل سنوات كثيرة من بداية تطبيقه فى الجامعات الحديثة يمكنه أيضاً من أن يشعر الطلاب بطعم الإنجاز الذى تم تحقيقه حينما يكمل الطالب ترجمة نص لم يسبقه أحد إلى ترجمته، وينسب له مثل هذا الإنجاز..! وهذه الطريقة فى التعليم بالإضافة للفوائد التى يجنيها الطلاب من رفع مستواهم العلمى وتوسيع درجة ثقافتهم العامة ليتمكنوا من فهم موضوعات فى كافة التخصصات، فهى تزيد من ثراء المكتبة المترجمة بما يعود بالنفع على الحياة الثقافية كلها.!

والترجمة كإحدى أهم أدوات صناعة التقدم، لا تقتصر على الترجمة من الغرب فقط، ولكنها يجب أن تستكشف مناطق جديدة غير مطروقة، فلا شك أن هناك كثير من كنوز المعرفة فى الثقافة اليابانية والصينية والهندية والروسية سواء القديمة أو الحديثة، وأكاد أجزم أن بعض

الأبحاث العلمية فى دول مثل اليابان تضارع بل تتعدى فى بعض الأحيان مثيلاتها فى دول غرب أوربا وأمريكا، وما يقال على اليابان يمكن أن يقال على دول كثيرة أخرى..!

وابن رشد رائد الاستنارة والعقل فى الفلسفة العربية كان قد فطن إلى أهمية ذلك التوجه قبل ثمانية قرون من الآن، فقد دعا فى سائر كتبه إلى ضرورة الانفتاح على كل الثقافات وقال: "ينبغى أن نبحث بأيدينا عن كتبهم (كتب سائر البلدان) فإن كان فيها شيء صواباً شكرناهم عليه، وإن كان فيها شيء يعد غير صواب نبهنا إلى هذا الخطأ". فالذين يهاجمون كل ما هو غربى، ويعتبرونه غزواً ثقافياً يجهلون الفوائد الجمة التى تعود علينا من هذا الاتصال والتواصل، والذين يرفضون التقدم العلمى بدعوى أنه يتعارض مع الأخلاق، وتصور أن العلاقات غير ضرورية بين الأسباب والمسببات، هم أول من يجرنا إلى الخلف، ويقصينا من النور إلى الظلام..!

وقد راعنى أن أعرف أن حجم الترجمة فى الوطن العربى كله فى العشر سنوات الماضية مازال لم يتعد بضع مئات من الكتب فقط، بينما يفوق هذا الرقم بكثير ما تخرجه دار واحدة من إحدى دور النشر الكبيرة فى الغرب فى عام واحد..!.

وفى دراسة حديثة عن حجم النشر فى دول العالم تبين أن أعلى دولة فى عدد الإصدارات الجديدة فى عام ٢٠٠٥ هى بريطانيا بعدد إصدارات وصل إلى ٢٠٦٠٠٠ كتاب، وتأتى بعدها الولايات المتحدة الأمريكية بعدد ١٧٢٠٠٠كتاب ثم الصين ١٠٠٩٥١ كتاب، وألمانيا ٧١٥١٥ واليابان ٥٦٢٢١، وروسيا ٣٦٢٣٧. أما الهند فتجيء فى المركز ٢١ بعدد ١١٩٠٣ كتاب وماليزيا فى المركز ٣٣ بـ٥٨٤٣ كتاب بينما إسرائيل فى المركز ٤٠ بـ ٤٠٠٠ كتاب، ومصر فى المركز ٥٢ بـ ٢٢١٥ كتاب فى السنة فقط وتسبقها دول مثل السعودية بترتيب ٤١ بـ ٣٩٠٠ كتاب، وأفغانستان فى الترتيب ٥٠ بـ ٢٧٩٥ كتاب فى السنة..! وعلى الرغم من أن إسرائيل تأتى فى المركز ٤٠ ترتيباً ولكن هذا العدد إذا نظر إليه بالنسبة لعدد السكان الذى لم يتجاوز أربعة ملايين فقط..! سوف تأتى إسرائيل فى مقدمة دول العالم هى وبريطانيا..!





التغيير بواسطة تحولات في الاقتصاد والسياسة

□□

السياسات الوحيدة التى لها اليوم مستقبل هى تلك التى تحل المشكلات الأساسية المطروحة علينا وهى:

الجهل.

البطالة.

الفقر.

انعدام العدالة.

فقدان الأمل.

مع كل الآثار الثقافية والأخلاقية التى تنتج عنها هذه المشكلات فى الحقيقة متشابكة ويمكن اعتبارها أعراض مختلفة لمشكلة واحدة.

- الحلول الخارجية هى الأكذوبة الأشد فتكاً

حلول هذه المشكلة يجب أن تنبع من داخلنا وليس من حلول خارجية.

هذا هو التحدى الذى يجب أن نواجهه وأن نكون مستعدين لدفع ثمن ما من أجل الحل ومن أجل التقدم وهو الفعل الخلاق.

المشاكل التى طرحت فى هذا السياق، مشاكل بالغة التعقيد ومن الصعب الكشف عن كل العوامل المؤثرة فيها، إيجاباً وسلباً والإلمام بكل متغيراتها المتداخلة والمتضاربة فى سطور قليلة، ولكنها محاولة للولوج إلى المشكلة بعيداً عن التنظير المبهم والقاصر،

واعتماداً على منهج هذا الكتاب في ربط التنظير بتصور للحلول وطرح أفكار للفعل الخلاق الغير نمطي للخروج من عنق الزجاجة الذى أصبح يضيق علينا الخناق، حتى يكاد المرء يتصور إن لم نخرج منه الآن، لن نستطيع أن نخرج منه أبداً. فقد أصبحنا مثل كائن بليد وضخم محشور داخل تلك الزجاجة يزداد حجمه وترهله كل يوم، يكبر حجمه داخلها بدون أن يشعر أو يشعر ولكنه قليل الحيلة لا يملك من الأساليب والطرق ما يمكنه من أن يغير من نفسه ليعبر هذا العنق الضيق إلى رحابة الخارج، فينتهى به الأمر بأن الهواء داخل الزجاجة لم يعد يكفيه، ويمضى فى اتجاه الموت والفناء خنقاً داخل الزجاجة بدلاً من اتجاهه للحياة والتقدم خارجها..!!

وفى فصول سابقة تم مناقشة قضية الجهل فى إطار مناقشة قضايا الأمية وتحسين مستوى التعليم، وسنقوم فى هذا الفصل بالتعرض لبقية المشكلات.

وهناك كما أشرنا سابقًا إشكالية أساسية تواجه من يتصدى لطرح آليات الحل تكمن فى تداخل تلك العوامل وتأثرها ببعضها، فالجهل مثلاً يؤدى إلى مزيد من البطالة، إذ يحول ارتفاع مستوى الأمية وضحالة الوعى القانونى دون وصول الفقراء إلى مؤسسات الخدمات الحكومية بدءاً من استخراج بطاقة شخصية إلى فتح حسابات بنكية أو الحصول على القروض المصرفية.. إلخ نتيجة لزيادة تكلفة اللوائح والقيود والإجراءات القانونية والإدارية التى تحول دون دمج الفقراء فى الأنشطة الرسمية فى مجالات الإسكان والإنتاج والتجارة، وهى تؤدى بدورها إلى مزيد من الفقر وعدم قدرة الفقراء على النفاذ إلى القروض خاصة القروض الصغيرة المصممة أصلاً للشرائح الفقيرة، وكذلك النفاذ إلى رءوس الأموال والأراضى الزراعية ومصادر الائتمان مما يؤدى إلى ضعف مساهمتها فى العملية الإنتاجية، وزيادة نصيبها من الاستهلاك أو اتجاهها إلى ممارسات غير قانونية..! وفى غياب العدالة فى توزيع الثروات فإن قابلية تنامى الجهل والفقر والبطالة تزداد، لأن الفقراء يزدادون فقراً والأغنياء يزدادون ثروة..! كما أن انعدام الأمل فى الإصلاح والتغيير يفقد الإنسان القوة الدافعة للمضى قدماً فى طريقه وتحسين نوعية الحياة التى يحياها، وكل هذه العوامل تحكمها السياسة، تؤثر وتتأثر بها، وتصب فيها كروافد متشعبة لنهر واحد كبير..!

الفقـــر:

الفقر فى مفهـومه الشامل يتعدى مـجرد فقر الدخل العـام للأمة (انخفاض متوسط نـصيب الفرد من الدخل في أى بـلد إلى ما دون ٧٦٥ دولاراً فى السنـة حسب تصنيف البنك الـدولى)، أو فقر لـشرائح منـها (الشرائـح التى يعيـش الفرد فيـها على أقل من دولارين فى الـيوم) الذى يعـد علامة رئيـسية على الـفقر، لـكنه لا يعبـر عن المضمون الشامل للفقر. وعندما نتحـدث عن الناتج القومى الخالص بطريقة إحصائية بحتة، سوف يصدمنا أن الأرقام لا تعنى شيئـاً فى هذا الصدد. أنها مجرد متوسط حسابى بسيط بين دخل ملياردير ودخل عاطل عن العمل، هذا الحد الأوسط لا يرتبط بأى واقع ملموس..!

فـالفقر بمعناه الشامل يعنى إلى جانب فقر الدخل أو العيش بأقل من دولار فى اليوم لـلفرد كمحدد للفقر المدقع، أو العيش بأقل من دولارين فى اليوم للفرد كمحدد للفقر، أن الفرد لا يتـلقى الرعاية الـصحية الضروريـة للحفاظ عـلى صحته من خلال الوقاية من الأمـراض أو تلقى العلاج الكافى إذا أصيب بها، ويـعنى أن الفرد لا يمكنه الحصول على التعليم حيث توجد تكلفة مانعة له من ذلك أيا كان دخله، ويعنى أن الإنسان لا يعيش فى بيئة صـحية ونقـية من ملوثات الـهواء والمياه والـبيئة فى حـالة عدم وجود مـياه نقية وصرف صـحى مغطـى وشوارع ممهـدة وبيـئة مـشجـرة قادرة عـلى تجديـد الهواء وصناعات غير ملوثة للبيئـة، كما يعنى أن هناك عدم مساواة بين البشر بغض النظر عن اللون والنوع والأصل العرقى والديـن أو المذهب، ويعنى أن الفرد لا يملك القدرة والحق القانـونى والفعـلى على التعـبير عن آرائه ومـواقفه وعلى المشـاركة الفـعالة اجتـماعيا وسيـاسياً مما يفقده الشعور بالانتماء والكرامة، وبالتالى فإن مصطلح الفقر ينطوى على مضمون اقتصادى اجتماعى سياسى شامل لكل ما يعنى الحاجة والعوز وغياب المشاركة وانعـدام الكرامة والمساواة الحقـيقية. (الآليات الممكـنة لمكافحة الفقـر فى البلدان العربية د.أحمد السيد النجار ـ ٢٠٠٥).

فى دراسة حـديثة لقيـاس الفقر فى مصر، تـوصل مجموعة من الـباحثين فى مركز الدراســات السياسيـة والاستراتيجـية فى الأهرام إلى أن أدنى حد للـفقر سجل فى عام

١٩٩٥/١٩٩٦ وقد بلغ ما قيمته ٤٤٣٨ جنيهًا مصريًا وذلك للعائلة سنويا فى المناطق الحضرية و٣٩٣٦ جنيهًا فى المناطق الريفية (كان نصيب الفرد ٩٦٨ جنيهًا مصريًا، و٩٦٩ جنيهًا بالترتيب) أما خط الفقر الأعلى فقد كان ٦٠٨٢ جنيهًا للأسرة سنويا فى المناطق الحضرية، و٥٠٧١ جنيهاً للأسرة فى المناطق الريفية (وكان نصيب الفرد وفقا لهذا الخط الأعلى ١٣٢٥ جنيهًا، و٩٢٤ جنيهًا فيها بالترتيب). ويمكن القول أن هذه التقديرات تعطى انتشاراً أوسع لحدوث الفقر وصل من ٤٤٪ إلى ٤٨٪ باستخدام خط الفقر الأعلى. ويمكن الاستنتاج بصفة عامة من هذه التقديرات (برغم وجود بعض الفروق المنهجية فيما بينها) أن ربع السكان على الأقل فقراء بكل المقاييس، وأن ربعاً آخر يقف على هامش خط الفقر (الفقر فى الوطن العربى ـ د. أحمد السيد النجار ـ ٢٠٠٥).

لو نظرنا إلى عدد الذين يعيشون بأقل من دولار فى مصر لوجدناهم فى عام ٢٠٠٠ ٣,١٪ بينما عدد السكان الذين يعيشون بأقل من دولارين فى اليوم ٤٣,٩٪ (تقرير التنمية فى العالم ٢٠٠٥ ـ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩).

والقارىء الفطن يستطيع أن يتأكد إلى أى حد وصل حجم الفقر فى مصر والذى وصل طبقاً لهذه الأرقام لنصف عدد السكان. فنحن إذن أمام ظاهرة انتشار واضحة للفقر فى مصر، وأمام آليات إفقار لا تكف عن إنتاج المزيد من الفقراء، حتى أصبحت تطال فئات اجتماعية، كانت تمثل فى الماضى القريب أساس التلاحم الاجتماعى، ألا وهى فئات وشرائح الطبقة المتوسطة، فقد انتهجت الأنظمة العربية عموماً منذ التسعينيات وحتى الآن سياسات أطلق عليها سياسات التكيف الهيكلى، والخصخصة، والتحرير الاقتصادى بالاتفاق مع الهيئات والمؤسسات المالية والعالمية (مثل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى)، خرجت بمقتضاها الدولة من مجال الرعاية الاجتماعية، ومن مجال الاستثمار فى البشر، حيث تراجعت معدلات الإنفاق فى مجالات الصحة والتعليم والتوظيف والإسكان..!

فالسياسات التى أنتجتها تلك الأنظمة، والتى تسعى إلى الارتباط بالنظام الاقتصادى العالمى، تركت شرائح اجتماعية مختلفة فى مهب الريح، ودون غطاء من الرعاية، ومن ثم

ازداد الفقراء عدداً. ولم يعد الفقر فى مصر يقتصر على عمال الزراعة وصغار الحائزين للأرض والعاملين فى القطاع غير الرسمي، والعاطلين، وغير القادرين على العمل وعمال القطاع الخاص، بل امتد ليشمل شرائح وسطى ودنيا مثل العاملين فى القطاعات الحكومية، والذى نال التضخم الحاد من قدرة أجورهم على الوفاء باحتياجاتهم الأساسية، كما لم تقتصر البطالة على الأميين، والعمال غير المهرة، بل امتدت لتطال شرائح وسطى متعلمة، وإن كان تعليماً شكلياً فى ظل تراجع الإنفاق على التعليم كاستثمار فى البشر يتمثل فى ضعف مستوى الخريجين وكفائتهم المهنية، مما أدى فى النهاية إلى مزيد من التدهور فى مستوى هذه الطبقة وانضمامها إلى مصاف الطبقة الفقيرة،..!

لقد تزايد الخلل فى توزيع الثروة داخل البلدان العربية، ليصل إلى حد لم يعرفه فى تاريخه، ففى مصر مثلاً نجد أن أدنى ٤٠٪ من العائلات يحصلون على ١٦,٣٪ من الدخل القومى،فى مقابل أن أعلى ٢٠٪ من العائلات يحصلون على ٤١,١٪ من الدخل القومى..! (الآثار السياسية والاجتماعية لانتشار الفقر فى الوطن العربى - أمال طنطاوى - ٢٠٠٥) وهو ما يشير إلى قرب اختفاء الطبقة المتوسطة نهائياً من تصنيف الطبقات فى مصر، فالطبقة المتوسطة طبقاً لتلك الأرقام لا تحصل إلا على ٤٣٪ من الدخل بينما عدد السكان المنتمين إلى تلك الشريحة يمثل ٤٠٪ من عدد السكان الكلى..! وقد شبهنا هذا الوضع وتقسيم الطبقات الحالى فى مصر بسيد قشطة كبير يعيش تحت الماء.. ويمثل الأنف الظاهر من الماء الطبقة العليا والرأس تحت الماء هى الطبقة المتوسطة التى تحاول الخروج من تحت الماء والجسم الكبير القابع كله تحت الماء يمثل الطبقة السفلى والتى لا أمل لها فى الخروج!!، (أعراض مصرية - د. حسين الشرقاوى - ٢٠٠٧) وهو ما يؤكد على مجموعة العلاقات التبادلية بين الفقر وجميع مناحى الحياة، فهناك علاقة تبادلية بين الفقر العام والفقر الذى يضرب الطفولة والأمومة، كما تبين علاقة التعليم بالفقر وعلاقة الفقر بالتعليم، وعلاقة الفساد بالفقر والتعليم، وعلاقة البطالة بالفقر وخصوصاً بطالة الشباب فى مقابل عمالة المعاشات، وأوضاع فقراء العمل الذين يعملون فى وظائف ويحصلون على مرتبات لا

تكفى احتياجاتهم الأساسية، فهم محتسبون على قوة العمل ولكن هذا العمل لا يوفر لهم القدر الكافي من الحياة الكريمة..! وارتباط الفقر بالإناث أكثر من الرجال، وتبين كيف تمثل هذه الآليات دورة محكمة، من حيث أن إحداهما تنتهي من حيث تبدأ الأخرى، وتبدو كلها مثل دورة الوقود التى تعيش عليها ماكينة الفقر..!

وفى البلدان العربية غير النفطية يصل معدل الدخل الفردى إلى سدس (أقل من ١٦٪) من متوسط الدخل الفردى العالمى، وهو بذلك يضع هذه الدول ومن بينها مصر فى وضع بالغ التدنى. وهذه حقيقة الاقتصاد العربى الهزيل، وهو محصلة أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية بالغة السوء. بعضها راجع لتراكمات تاريخية، والبعض الآخر نتيجة سياسات وتوجهات خاطئة..!

فمعظم الدول العربية تعيش فى ظل نظم بوليسية تستند إلى قوانين استثنائية وغالباً أحكام عرفية وعسكرية، حيث تنتهك الحقوق والحريات السياسية، ويسيطر الحزب الواحد أو حزب الحكومة على الحكم مع تزييف للانتخابات على جميع المستويات من المجالس التشريعية إلى اتحادات الطلاب والنقابات، إلى جانب إهدار مفهوم دولة القانون ومصادرة حق الشعوب فى إدارة أمورها، واختيار حكامها. واحتلت معظم هذه الدول المراكز الأخيرة فى كافة نشرات وتقارير المنظمات الدولية من حيث الحرية أو الشفافية أو احترام حقوق الإنسان أو الفساد..!(د.حازم الببلاوى أهرام ١٠/١٢/٢٠٠٦).

ويعانى الفكر الاقتصادى العربى المعاصر تناقضاً شديداً بين ما ينقل على الأغلب من الفكر الاقتصادى الغربى نقلاً غير هادف وبين الواقع الاقتصادى المعاصر من جهة، وبين ما يكتب من وصف للمشكلات الاقتصادية الحية على صعيد الاقتصاد الوطنى، وما تفتقر إليه هذه المشكلات من تحليل نظرى يميط اللثام عن قوانين حركتها العامة وتطورها الخاص، ومن الجهة الأخرى. فالخصوصية الفكرية والثقافية والاجتماعية التى تميز كل مجتمع عن الآخر تتطلب أن تكون مواجهة المشكلات الواقعية بعيداً عن القوالب الجاهزة والمعدة سلفاً بواسطة توجهات قد يغيب عنها بعض جوانب المشكلة، أو تحكمها أهداف أحادية الجانب أو فى أحسن الأحوال غير قابلة للتنفيذ..

وقد انعكس هذا التوجه فى ضرورة أن تكون الحلول نابعة من الداخل وليس من الخارج بما يناسب التركيبة الخاصة جداً بكل مجتمع، فى الاحتفاء الواضح ببعض المفكرين الاقتصاديين الذين انتهجوا منحى مختلفاً فى السنوات الأخيرة لحل مشاكل بلادهم، وتم منحهم جائزة نوبل فى الاقتصاد مثل الاقتصادى الهندى الكبير أماريتا سن Amaryta Sen فى عام ١٩٩٨عن دراساته حول الفقر والمجاعات، وإشكاليات التنمية بوجه عام.

وقد شدد أماريتا سن على أن المتغيرات التى تؤثر على النمو الاقتصادى تشمل: التعليم على مستوى الابتدائى والاعدادى والثانوى والتعليم العالى، وثبات السياسات الحكومية، وعدم وجود عوائق تجارية، ونظام قضائى عادل، وتوافر بنية تحتية سليمة، وتوافر العناية الطبية، والعناية بالأمومة والطفولة، والتوزيع العادل للدخل، وكيفية تعامل الحكومات مع الاقتصاديات الكبرى والصغرى..

كما تم منح جائزة نوبل أيضاً فى عام ٢٠٠٦ للعالم البنغالى الكبير محمد يونس وبنك الفقراء جارمين الذى بدأه منذ ثلاثين عاماً، وقامت فكرته ببساطة على توفير قروض صغيرة microfinance للفقراء وخاصة النساء المعيلات بدون الضمانات البنكية النمطية، ولكن بضمان إنتاج مجموعات عمل صغيرة تعمل مع بعضها فى الشارع أو الحى أو القرية، وبهذه الفكرة البسيطة تم تحويل هؤلاء النساء من فقيرات بدون عمل إلى منتجات وصاحبات أعمال وتنوعت هذه الأعمال من صناعة الملابس، وزراعة الخضروات إلى الأدوات المنزلية..! وقد بدأ يونس الفكرة بناء على اعتقاده بأن أى شخص مهما كان فقره يجب ألا يحرم من نظام مالى لمساعدته، وأن رغم التقدم الحادث فى الأنظمة المالية، فمازال ثلثى عدد السكان فى العالم ليس له أى طريق للاستفادة من نظام التمويل البنكى..!

وقد أدى نجاح فكرة بنك الفقراء والقروض الصغيرة إلى أن بنوك غربية كثيرة مثل Citigroup, ABN Ambro, Deutsche Bank بدأت تحذو حذو بنك جارمين فى التحول للأهتمام بالقروض والصناعات الصغيرة..! كما أن دولاً كبيرة مثل الصين استدعت

محمد يونس لتطبيق فكرته فى ثلاث من أفقر المقاطعات فى الصين تمهيداً لتعميم الفكرة ودراسة أوجه المنفعة والقصور فى تلك التجربة..! وقد ذكر الكاتب الكبير سلامة أحمد سلامة فى أهرام ٢٠٠٦/١٢/١٢ أن مشروعاً مماثلاً كان قد تم التفكير فيه فى منتصف التسعينيات فى مصر بعدما فاز محمد يونس بمشروعه عن طريق اليونسكو، وتحمس لها كثيراً من المفكرين فى حينها ولكنها أجهضت فى مهدها بناء على تعليمات الأمن ورفض البنك المركزى..!

وكلا العالمين الاقتصاديين الكبيرين استوعبا فكرة الخصوصية الاقتصادية للمجتمع الذى يعيشان فيه، ونبعت أفكارهما من واقع التجربة الحية بعيدًا عن النظريات الثابتة، والقوالب الجامدة، ووضع كل منهما يده على نقاط الخلل فى النظام الاقتصادى الخاص بوطنه، واقترح حلولاً عملية قابلة للتنفيذ..! ولعل هذا ما نحتاجه بالفعل الآن وهو الوصول إلى معادلة مصرية اقتصادية تستوعب المتغيرات العالمية الحادثة من حولنا، كما تراعى فى نفس الوقت الخصوصية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التى تمتع بها المصريون على مدى التاريخ وتضع استراتيجية إصلاحية واقعية.. ولا يعنى ذلك تجاهل تجارب الآخرين وألا ندرسها ونعرف إيجابياتها وسلبياتها، وإنما يعنى الاستفادة من كل ما سبق ونخرج منها أحسن ما فيها، لا يعنينا إن كانت من تجارب الشرق والغرب، أو إن كانت من النظريات الكلاسيكية أوالحديثة، أو تضمنت أفكارًا تقليدية أوغير نمطية، وإنما ما يعنينا هو قدرتنا على صهرها فى البوتقة لنخرج منها بما يضعنا على أول سلم التقدم حتى نبدأ فى صعود درجاته بدلاً من هذا الانتظار نتلفت حولنا لا نعرف أى خطوة يجب أن نأخذ، وإلى أى اتجاه يجب أن نتحرك..! ولعل أبلغ تعبير عن هذا المعنى ورد على لسان دنج زياو بنج وهو على رأس المسؤولية فى الصين حين عبر عن طريقته فى توخى الإصلاح المأمول بقوله «لا يهمنى لون القط بقدر اهتمامى بما إذا كان قادراً على الإمساك بالفئران من عدمه..!».

والأفكار التى سوف تطرح فى الفقرات القادمة هى نوع من عصف الأفكار وتخليقها Brain Storming فى مجال ما يناسب إصلاح الوضع الاقتصادى المصرى المعاصر وبما يناسب الخصوصية المجتمعية فى مصر..

مقاومة جنون العولمة وسياسات صندوق النقد الدولي:

طبقًا لفكرة العولمة الرئيسية والتي تقوم على إزالة الحدود والحواجز القومية أمام تدفق رأس المال إلى حيث يمكن تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح، وبما أن رأس المال وعملياً كل السلع المصنعة - يخص الدول المتقدمة والغنية، فلابد من أن يؤدى فتح الحدود إلى إجبار الفقراء على تدفق كل شيء من رأس المال حتى السلع المصنعة وحتى الخدمات من الأغنياء، وسوف تكون المحصلة تدفقاً ضخماً في اتجاه الخارج لكل ما لدى الدولة الفقيرة من نقد أجنبي.

وفي وجود التدفق الحر لرأس المال فإن إساءات خطيرة يمكن أن تحدث، ففي عالم بلا حدود يمكن للمتلاعبين الذين لديهم المال الكثير من عرض أية سلعة في أنحاء العالم بأسعار أقل باستمرار، وسوف يجد منتجو السلعة الحقيقيون الأسعار تهبط إلى ما دون التكلفة الفعلية مما يؤدى إلى خسائر ضخمة. وكثيراً ما يخسر المتعاملون الحقيقيون المال في حين يكسب المضاربون والمتلاعبون أموالاً ضخمة دون أن يمتلكوا أية بضائع أو سلع أو عملات حقيقية أو يسلموها (من الضروري في عالم تجنى فيه النقود من المضاربة على أسعار المواد الخام، وعلى قيمة العملات المختلفة، وعلى المنتجات المشتقة، إلخ..أرباحاً أزيد من ٤٠ ضعفاً مما تجنيه من أرباح استثمارها على المدى الطويل عبر اقتصاد حقيقي منتج للسلع والخدمات، المفترض فيه أنه قادر على تطوير البنى التحتية، والمؤسسات التي تلبي الحاجات الأساسية، ووسائل النقل وغيرها..!) ويمكن أن تفلس دول وحكوماتها بالكامل، لأن منتجاتها تأتي بأسعار دون التكلفة وتفقد عملاتها قيمتها. والخسارة ليست اقتصادية وحسب، بل كذلك اجتماعية وسياسية (العولمة وصدام الحضارات قراءة في فكر محاضير محمد - د.أحمد يوسف القرعي - ٢٠٠٥).

ولعل الاتفاقيات التجارية سيئة السمعة مثل الجات والتي تفرض على الدول الفقيرة تقليل الحواجز الجمركية وتبادلاً حراً يترك المكان لكل الاستبدادات الأمريكية لصالح منتجات الدول الغنية ولصالح أمريكا بوجه خاص ، بينما وللغرابة الشديدة فإن المادة ٣٠١ من القانون الأمريكي تسمح بحماية إنتاجها الخاص..! أو في اتفاقيات تم فيها فرض قواعد

مشاركة بين دول متباينة فى التوجهات السياسية فى المناطق الصناعية المؤهلة لإعادة التصدير مثلما حدث فى اتفاقية الكويز عندما تم فرض مشاركة إسرائيل بنسبة ١١,٧٪ من مستلزمات الإنتاج فى صناعة النسيج المصرية كشرط لتحظى المنتجات المصرية بإعفاء جمركى فى حال تصديرها للولايات المتحدة الأمريكية، ومثل هذه الاتفاقيات تظهر مدى الخسائر التى يمكن أن تصيب الصناعة الوطنية من جراء انخراطها فى هذه الاتفاقيات التى يفرضها البنك الدولى وتحكمها توجهات فرض الهيمنة والسيطرة على الشعوب والاستغلال لصالح الأقوياء الذين هم فى النهاية الأغنياء..!(*)

وقد اعتمدت الحكومة الماليزية سياسة اقتصادية جديدة منذ ١٩٩٠ لمدة عشرين عاماً، للاستفادة من فوائد العولمة وتجنب النتائج العكسية لها، فقد حرصت الخطة الجديدة على القضاء على فقر الأشد فقراً، وتحسين مهارتهم، وزيادة دخولهم، وبدأت هذه الخطة بتقديم مجموعة من الاستثمارات أدت إلى تحول الاقتصاد من الزراعة للصناعة.. وتتجلى عبقرية تجربة التنمية الماليزية المتمثلة فى الانتباه - دون مبالغة - إلى خصوصية الذات والانفتاح - دون وجل - على الآخر وعناصر هذه السياسة تمثلت فى النقاط الآتية:

١ - تقليل الاعتماد على الخارج.

٢ - التمرد على قواعد العولمة وسياسات صندوق النقد الدولى التى تزيد الدول الغنية ثروة على حساب الدول الفقيرة.

٣ - التنافسية فى الأسواق الخارجية.

٤ - تحقيق السلام الاجتماعى والسياسى.

فإذا نظرنا إلى ما حدث بالفعل ، سنجد وفقًا لتقارير التنمية العالمية ، تدرج نصيب الفرد من الدخل القومى فى ماليزيا من ٦٨٠ دولاراً عام ١٩٧٤ إلى ١٨٣٠ دولاراً عام ١٩٨٢، ثم تعدى الألفى دولار عام ١٩٨٤ حيث بلغ ٢١١٢ دولاراً ,ووصل إلى ٧٤٠٠

(*) نشرت مقالة مفصلة للمؤلف عن اتفاقية الكويز فى صحيفة:الأهرام: بتاريخ ٢٠٠٥/١/١٠ تحت عنوان" تساؤلات حول مسألة: الكويز"؟!

دولاراً عام ١٩٩١ ويتجاوز الآن عشرة آلاف دولار..!! (أى تضاعف حوالى ١٥ مرة فى ثلاثين سنة) ، وتطورت بالمثل نسبة تسجيل الطلاب فى المدارس من إجمالى من هم فى سن التعليم من ٤٨٪ عام ١٩٧٤ إلى ٦٠٪ عام ١٩٧٩ (أى أن هناك تحسن بنسبة ١٢٪ فى خمس سنوات فقط) ثم ٦٣٪ عام ١٩٨٤ ، ثم ثبتت النسبة عند ٧٣٪ في عام ٢٠٠٤..!! وتلك الأرقام تشير إلى معدلات التغيير وتثبت أن قفزات كبيرة يمكن أن تحدث فى وقت قصير جداً (٢٥٪ تحسناً فى ٣٠ سنة).

وقد شددت التجربة الماليزية على أهمية العدالة بين أهل الوطن الواحد، وأنه لا يمكن تصور أن بلاداً ما يمكن أن تبلغ مرحلة الرفاه الاقتصادية أو حتى مجرد أن تحافظ على وحدتها ووجودها على وجه المعمورة دون أن يتوافر لها نظام يكفل العدالة بين جميع الأطراف فيها، حيث توجد علاقة طردية بين العدالة والتنمية، فكلما تطورت مفاهيم إدارة العدالة أسهم ذلك فى تعزيز إمكانية إحداث التنمية.

عودة الاهتمام بالزراعة

أسطورة «مانجوبيز» حول بركة ماء بضواحى كراتشى يعيش فيها عدد من التماسيح «كانوا أربعة من الأولياء: مانجوبيز والقلندين لال شاه باز، والشيخ فريد، والشيخ بهاء الحق، اجتمعوا يومًا ليتنافسوا فى الكرامات.

«ضرب مانجويز الأرض فتفجرت عن ماء بارد وضربها شاه باز فتفجرت عن ماء ساخن وأخرج الشيخ فريد مشطًا وأخذ يمشط شعره، فكان القمل المتساقط منه يتحول إلى تماسيح بمجرد سقوطه فى مياه مانجوبيز.

أما الشيخ بهاء الحق فحين رأى باب الاجتهاد أقفل إطلاقًا فقد أخرج من عبه حفنة من نوى البلح، وطفق يزرعها فى الأرض بكل بساطة وكأنه يقول: (ويختص بالقول زميله الذى حول قمله إلى تماسيح): أيًا كانت كرامتكم أيها الزملاء، فهى لا تعدل قدرته تعالى ولا حكمته حين يخرج من هذه النواة نخيلاً يحمل للأجيال القادمة رطبًا شهيًا!!».(من كتاب «سندباد مصرى» د. حسين فوزى).

كان لدعاوى التصنيع ومحاولة الدخول فى نادى الدول الصناعية فى الستينيات من القرن الماضى أثرا كبيراً فى عدم الاهتمام بتنمية الزراعة وزيادة الأراضى المستصلحة مما أدى إلى تدهور الزراعة والإنتاج الزراعى تدهوراً ملحوظاً. وهذا التدهور شمل مساحة الأرض المزروعة سواء بالمحاصيل أو بالأشجار وكذلك فى الثروة الحيوانية، وإنتاج الحبوب والجذور والدرنات والبقول والخضر والفواكه...

وقد نتج هذا التدهور نتيجة إهدار الموارد الطبيعية الزراعية والمائية والحيوانية بأن تجور الدولة على مواردها وأصولها الزراعية لتوليد دخل سريع للأفراد. لكنها تخسر مواردها وأصولها الإنتاجية بهذه الطريقة فى المستقبل..! وعلى سبيل المثال، يعد الإفراط فى عدد مرات زراعة الأرض فى العام بأكثر مما هى مؤهلة له، والإفراط المرتبط بذلك فى استخدام المخصبات الصناعية، عاملاً مهماً فى إضعاف الأرض وإنهاكها على المدى البعيد إلى حد يمكن أن يصل بها إلى حالة العجز عن الإنتاج الزراعى أو «التطبيل».كما أنه فى بعض الحالات يتم تدمير قدرة الأرض الزراعية الخصبة على الإنتاج لفترات طويلة، من خلال التجريف الجائر، أو يتم القضاء عليها نهائياً من خلال البناء عليها كما حدث فى مصر التى فقدت قرابة مليونى فدان فى وادى النيل والدلتا، وهى من أخصب أراضى الدنيا، بعد أن تم البناء عليها بتواطؤ واضح من نظام الحكم منذ منتصف السبعينيات وحتى نهاية القرن العشرين، حيث كانت الحكومات المصرية المتتالية تقوم بإسقاط مخالفات البناء على الأراضى الزراعية أثناء الانتخابات البرلمانية والرئاسية، وذلك لشراء ولاء وأصوات الناخبين على حساب الأرض الزراعية كمورد طبيعى رئيسى للأمة من المفترض أن تطوره من جيل لآخر، بدلاً من القضاء التام على جزء منه كما حدث فى مصر..!!

وقد حدث إهدار فى الموارد المائية بنفس الطريقة مثل الرى بالغمر فى النهار بدلاً من الرى بوسائل أكثر تطوراً، مثل الرى الليلى بالرش أو بالتنقيط، إلى جانب الحفاظ على مياه الأنهار من الضياع والتلوث، وكذلك الاستفادة الرشيدة من مخزون المياه الجوفية الهائل الذى يقع فى صحراء مصر الغربية.!

وما يـقال عن الموارد الزراعية والمائية يمكن أن يقـال عن الثروة السمكية والحيوانية المهدرة والتى لا تتناسب مع الإمكانيات الطبيـعية الهائلة المتاحة، والشواطئ الممتدة على البحر المتوسط والأحمر، وبحيرة ناصـر فضلاً عن إمكانيات تطوير تلك الموارد بما يقلل احتياج مـصر للاستيراد، وبما يضيفه ذلك من عبء عـلى موازنات الدولة لما يتطلبه من تكلفة رهيبة.! وأى منطق يقبل أن نقـوم بالاستيراد بينما يمكن ببعض الوسائل البسيطة وغير المكلفة تنمية وتعظيم الاستفادة من مواردنا الطبيعية الموجودة أمامنا..!

فهـل من المعقول أن يصل الأمر أن تستورد مصـر منتجات الألبان والجبن والزبادى من دولة مثل السـعودية تعانى من كثرة الأراضـى الصحراوية وندرة مياه الرى اللازمة للـمراعى الخضـراء..! أو تـستورد الأسمـاك والجمبرى من دولة الإمـارات التى لا تملك عُشر ما تملكه مصر من شواطىء وخلجان وبحيرات طبيعية وصناعية ومناخ مناسب..!

وحـقيقـة الأمر الذى تظـهره هذه المـفارقات الـغريبـة فى بلادنا أن رغم وجود الموارد الطبيعية بوفرة، إلا أن الشرط المهم لحسن استغلال هذه الموارد هو الجهد البشرى المنظم ـ الذى مـا زال دون المستوى ـ الذى تقدمه الـعمالة العادية والمـاهرة والمخططين، ومستوى التـقدم العلمى والـتقنى الذى أحرزه البـشر والذى يمكنهم من تـطوير مواردهم وثرواتهم الطبيعية وزيادة قدراتها على الإنتاج، أو حتى على الأقل التقدم الذى يسمح لهم باستيعاب واستخدام وصيانة التقنيات الإنتاجية الحديثة التى تم ابتكارها فى بلدان أخرى.!

كـما يتضح أيضـاً من الإحصاءات الحديثـة أن هناك خللاً فى الـتركيب المحصولى، فبـينما تحتاج البلدان الفقيرة فى غالـبيتها لزراعة الحبوب أكثر من أى محاصيل أخرى، نجـد أن إنتاجنا من الحـبوب لا يتناسب مع إمـكاناتنا أو احتـياجاتنا..! وقد أدركت دول كثيرة مثل فرنسا الأهمية الاستراتيجية العالمية لإنتاج الحبوب، وأدركت جيداً أن الاكتفاء الـذاتى من الحبوب، والقيـام بدور رئيسـى فى تـصدير الحبوب يـعزز مكانتـها العالمية، ويمكن توظيفه لخدمة أهدافها السياسـية والاقتصـادية..!

وينطـبق هذا الكلام بصفة خاصـة على القمح فلم يعد من المـقبول أن نستورد أغلب احتياجاتنا من الـقمح ولا نزرع إلا أقل القليل منه.وزراعة البرسيم بدلاً من زراعة القمح

حتى أصبح عندنا ٣٠٠,٠٠٠ فدان منزعة بالبرسيم تزيد عن احتياجاتنا الفعلية!! والمبررات التى تساق من قلة الرقعة الزراعية أو الزيادة السكانية الرهيبة إلى عدم الجدوى الاقتصادية من زراعة القمح وإن استيراده أقل كلفة من زراعته هى مبررات واهية وضعيفة فكم من دول تفوقنا فى عدد السكان مثل الصين والهند والتى تجاوز عدد السكان فيهما المليار من البشر ومع ذلك فكلاهما ينتج ما يحتاجه من القمح ولا يستورده. إن القمح بات سلعة أساسية واستراتيجية ولا يمكن أن نتركه يستخدم ضدنا كقوة ضغط من الدول المانحة وبالذات حينما تختلف مواقفنا السياسية ومصالحنا العليا مع توجهات هذه الدول. إن جزءً من تحرير إرادتنا السياسية يعتمد فى الأساس على قدرتنا على الاعتماد على أنفسنا وخلق إرادتنا بأيدينا وليس بالاستيراد!!.

وما ينطبق على الحبوب ينطبق أيضاً على البقوليات مثل الفول، فقد انعكس الحال وبدلاً من التصدير إلى بلاد أوربا، أصبحنا نستورد منهم! فنحن مثلاً نحتاج إلى ٧٠٠,٠٠٠ طن من الفول سنويًا نزرع منها ٥٠,٠٠٠ فقط ونستورد الباقى من عدد من الدول مثل فرنسا ـ التى أعادت بالمناسبة تسعير الفول المخصص للتصدير ـ بعدما زاد الطلب عليه من جانبنا! ولا يخفى بالطبع حجم العملة الأجنبية المطلوبة لتأمين بند واحد فقط مثل ذلك.

وبنظرة سريعة نجد أن الظروف كانت ومازالت مهياة لزراعة البقوليات وخاصة الفول فى مصر (أكثر من ٥٠ نوعًا) من حيث التربة المناسبة والمناخ المعتدل طوال العام وخبرة الفلاح المصرى فى زراعته قديمة بل إن زراعته تتم بسهولة وينمو بسرعة كبيرة بحيث أن التلاميذ فى مدارسنا تعودوا على زراعة الفول فى أطباق بها قطعة قطن مبللة بالماء كجزء من حصة التربية الزراعية!! كما أن هناك بعض الأنواع مثل الفول الصعيدى وهو من أجود الأنواع ولا يحتاج إلى رى!!. إن تغيير الظروف المحيطة يستلزم تغييرًا موازيًا فى طريقة التفكير والاستجابة للمتغيرات الدولية من حولنا وتغيير النمط الاستيرادى إلى نمط إنتاجى ويتطلب ذلك توعية شاملة بحجم المخاطر التى تحوطنا بل أزعم أنه قد آن الأوان لمشاركة كل فئات الشعب فى هذا التغيير وليت الجميع يبدأ من

الآن بنفسه فى محاولات الإصلاح الجادة. فكلٍ يمكن أن يساهم فى إحداث هذا التغيير حسب موقعه وبحكم خبرته فمثلاً لو تكلمنا عن البقوليات عامة والفول بصفة خاصة لما يمثله من أهمية خاصة فى غذاء الشعب المصرى ولما يحتويه من قيمة غذائية عالية فيمكن لكل ربة بيت أن تبدأ وتزرع الفول فى شرفة المنزل وهى بذلك تؤمن بعض من احتياجاتها بتكلفة ضئيلة للغاية لا تكاد تذكر وتعطى فى نفس الوقت مظهراً جمالياً لشرفة المنزل. ويمكن لكل صاحب مشتل أن يزرع حوضًا فى المشتل للفول، وكذلك كل صاحب أرض يخصص مكانًا ولو صغيرًا لزراعة الفول ويمكن للدولة تشجيع المزارعين على زراعة الفول بتحسين أسعار التوريد ويمكن لخبراء التسويق فتح أسواق جديدة وخبراء الدعاية فى توعية المزارعين بأهمية التوجه نحو هذا النوع من الزراعة.

تحويل الزراعة إلى صناعة:

من المعروف أن فلاحاً واحداً يستطيع أن يزرع عدة أفدنة بمفرده، والزراعة بهذا المنطق توفر فرص عمل لعدد محدود من الأيدى العاملة قد لا تتجاوز عائلة الفلاح الذى يزرع هذه الأرض.. ولكن لو أنشئت صناعات خفيفة تعتمد على استغلال المحصول الزراعى لأمكن تحقيق عدة أهداف مثل:

١ ـ زيادة فرص العمل وبالتالى تقليل حجم البطالة. وبدلاً من أن يعمل فى الفدان الواحد شخص واحد لفترة بسيطة خلال العام، يمكن أن يؤدى ذلك إلى أن عشرة أشخاص على الأقل يمكن أن يعملوا وأن يوفر لهم فدان واحد فرصة عمل حقيقية طوال العام.

٢ ـ تعظيم الاستفادة من الموارد الزراعية.

٣ ـ الاستفادة من الكوادر المتعلمة وخصوصاً الفنية والمتوسطة والتى لا تستطيع أن تجد عملاً يتناسب مع مؤهلاتها.

٤ ـ زيادة الوعى عند الفلاحين وتحسين قدراتهم.

٥ ـ تقليل الفاقد وتحسين البيئة.

وسنضرب مثلاً بزراعة الأرز والتى تتطلب بعد عملية نثر البذور غمر الأرض بالماء والانتظار فترة طويلة حتى يتم حصاده. وفى هذه الفترة لا يفعل الفلاح شيئاً غير الانتظار، بينما من الممكن استحداث بعض الصناعات التى تقوم على منتجات الأرز وتحويل زراعته إلى مجموعة من الصناعات الخفيفة التى لا تتطلب رؤوس أموال كبيرة أو تكنولوجيات معقدة.! وللأرز بمصر كما هو معروف أهمية خاصة ، فهو المحصول الثانى للتصدير بعد القطن ويعتبر غذاءً رئيسياً لكافة الناس وهناك عدة صناعات تعتمد على الأرز مثل ضرب الأرز وتبييضه وينتج عنها منتجات ثانوية هامة، فحبوب الأرز (الشعير) المنخفضة الدرجة تستخدم علفاً، والقشور وقوداً ورجيع الكون (السن والردة) الناتج عن عملية التبييض علفاً للدواجن. ويطحن الأرز المكسور ويخلط بدقيق القمح لصناعة النشا، كما يدخل فى صناعة بعض المشروبات كالسوبيا وشراب الشعير والساكى (فى اليابان). وقش الأرز يستخدم علفاً للمواشى أو كفرشه، كما يستخدم لتحبيش المواد القابلة للكسر. وفى تصريح حديث لوزير البيئة، أعلن عن إمكانية تحويله إلى غاز الميثان النقى الذى يمكن استخدامه كوقود صديق للبيئة فى مصانع الطوب والفواخير وغيرها من الأنشطة الصناعية. وقد أشار إلى إمكانية تحويل كل كيلو قش أرز إلى ١,٨ كيلو من غاز الميثان (أهرام١٥/١١/٢٠٠٣). كما أن قش الذرة يمكن تحويله إلى عليقة خضراء وتحويل العيدان إلى "سيلاج" وهو ما يمكن أن يوفر على الدولة نحو مليار جنيه فى السنة!. وفى بحث حديث عن اقتصاديات البناء بالقش ودوره فى التنمية المستدامة تم عرض التجارب العالمية لاستخدام قش الأرز فى إنتاج مواد بناء صديقة للبيئة فى الغرب الأمريكى والهند وباكستان والفلبين والصين وإمكانية نقل هذه التكنولوجيا إلى مصر وهو ما يفتح مجالاً جديداً فى صناعة هذه المواد وكأحد الحلول العملية والجيدة لمشكلة حرق قش الأرز سنوياً والتى تتسبب فى تلوث شديد للبيئة فيما يعرف بالسحابة السوداء.

وزراعات أخرى يمكن أن تؤدى إلى نفس النتيجة مثل زراعة القطن وقصب السكر لما هو معروف عنهما من دخولهما فى صناعة الغزل والسكر والمنتجات المشتقة منهما، كما

أن زراعة القمح تدخل فى صناعة المخبوزات وبعض مستحضرات التجميل، وزراعة بعض أنواع الخضروات والفاكهة يمكن أن تؤدى إلى ازدهار صناعات التعبئة والتغليف، والتوسع فى زراعة الأزهار والورود تؤدى إلى زيادة صناعة التصدير بكل ما تشمله من صناعات مساعدة، وتربية الماشية تدخل فى صناعة الجلود وغيرها كثير..

الصناعات والمشروعات الصغيرة

تلعب الصناعات الصغيرة دوراً حيوياً وهاماً فى نمو الاقتصاد، وخصوصاً فى الدول النامية والتى تعانى من مشاكل اقتصادية حادة، وضعف الناتج القومى وكذلك من كثرة عدد السكان. وتعتبر تلك الصناعات المفتاح السحرى الآن لتنمية الاقتصاديات الضعيفة لأنها بقدرتها على استيعاب أعداد كبيرة من العمالة وعدم اعتمادها على رؤوس أموال كبيرة، أو تقنيات متقدمة وغير متاحة، مع المردود الاقتصادى المرتفع، تساهم بصورة فعالة فى تقليل البطالة وزيادة الناتج الصناعى الكلى.

وقد تنبهت دول كثيرة لأهمية الصناعات الصغيرة، ودعمتها بالتمويل والتنظيم الضرورى لنجاح مثل تلك الصناعات. وقد انتشر هذا التوجه فى الدول الصناعية الكبرى مثلما انتشر فى الدول النامية فى السنوات العشرين الأخيرة انتشاراً واسعاً مما يعكس أهمية تلك الصناعات على اقتصاد تلك الدول.!

ومن أكثر الدول النامية تطبيقاً لهذا التوجه الهند، وقد أظهرت الهند فى هذا المجال نجاحاً ملحوظاً دفع بها إلى قائمة الصدارة بالنسبة للدول التى انتهجت نفس النهج..! وقد اخترنا بلداً مثل الهند لتوضيح أهمية اتجاهها لتنمية الصناعات الصغيرة والتوسع فيها، هذا التوجه الذى بدأ منذ الثمانينيات فى القرن الماضى واستمر حتى الآن، وسوف يجد القارىء أن هناك أوجه كثيرة متشابهة بين تجربة الهند وتجربة مصر من حيث الخلفية التاريخية الواحدة للاحتلال البريطانى، والاستقلال فى نفس الوقت تقريبًا فى منتصف القرن الماضى، وكثرة عدد السكان، وتوافر الموارد الطبيعية، ووفرة أعداد المتعلمين والمتخصصين، وكذلك حجم السوق المحلى الذى يمكن أن يشكل قوة دافعة

لأى صناعة، والموقع الجغرافى المتميز وقربه من خطوط وطرق انتقال التجارة من وإلى مراكز التجارة العالمية... إلخ.

فإذا نظرنا إلى تأثير الصناعات الصغيرة على النمو الاقتصادى فى الهند لوجدنا الآتى:

- يلعب قطاع الصناعات الصغيرة دوراً حيوياً فى النمو فى الهند بحيث يرجع إليه الفضل فى ٤٠٪ من الناتج الصناعى الكلى.
- وتشير الإحصاءات إلى أن كل مليون روبية تستثمر فى الصناعات الصغيرة تنتج ما يساوى٤,٦٢ مليون وحدة من البضائع والخدمات.
- زاد عدد الوحدات العاملة فى قطاع الصناعات الصغيرة من ٠,٨٧ مليون وحدة فى عام ١٩٨١ إلى أكثر من ٣ مليون وحدة فى عام ٢٠٠٠.
- ساهم قطاع الصناعات الصغيرة فى خلق فرص عمل أكثر من أى قطاع آخر بعد قطاع الزراعة مباشرة، وتشير الدراسات إلى أن كل ١٠٠,٠٠٠ روبية تصرف فى استثمارات أصول الصناعات الصغيرة تخلق فرص عمل لأربعة أشخاص.
- الصناعات الغذائية كانت الأولى فى توفير فرص العمل لحوالى ٠,٤٨ مليون شخص بنسبة ١٣,١٪.. ويأتى بعدها إنتاج الأملاح غير المعدنية والتى خلقت فرص عمل لحوال ٠,٤٥ مليون شخص بنسبة ١٢,٢٪.. ثم الصناعات المعدنية ٠,٣٧ مليون شخص بنسبة ١٠,٢٪.
- أما صناعة الكيماويات والمنتجات الكيميائية وقطع غيار الماكينات، والصناعات الخشبية، والصناعات المعدنية الأساسية، وصناعة الورق، والطباعة، والجوارب، وصناعة الثياب، وخدمات الإصلاح والصيانة، وصناعة البلاستيك، فقد ساهمت مجتمعة بمقدار يصل من ٥ إلى ٩٪.
- تلعب الصناعات الصغيرة دوراً رئيسياً فى الأداء التصديرى الحالى للهند فنحو ٤٠ ـ ٥٠٪ من صادرات الهند تعود إلى قطاع الصناعات الصغيرة.

بينما التصدير المباشر يعادل ٣٥٪ من كل الصادرات، و١٥٪ من التصدير غير المباشر(كان تدخل فى إحدى المكونات أو قطع الغيار فى الأجهزة والمعدات المعدة للتصدير).

- شهد العقد الماضى ارتفاعًا ملحوظاً فى معدلات التصدير للسلع غير التقليدية من خلال تصدير الثياب، والجلود، والأحجار الكريمة، والمجوهرات، كما تشهد صادرات الهند من المنتجات الرياضية والثياب المجهزة والملابس ومنتجات البلاستيك والطعام سابق التجهيز ومنتجات الجلود رواجاً ملحوظاً أيضاً.

- عادة ما تصدر هذه المنتجات إلى أمريكا ودول الاتحاد الأوربى واليابان.

بعد هذا العرض الموجز ألا نلاحظ تشابهاً قد يصل إلى التطابق فى الظروف والمشكلات والمناخ الاقتصادى العام، والطبيعة الجغرافية بين الهند ومصر، إن مصر قادرة بقليل من التنظيم والاستثمار الموجه من الدخول إلى هذا العالم - عالم الصناعات الصغيرة - الذى سيصبح فى غضون سنوات قليلة هو الحل لكثير من مشاكلنا الاقتصادية، وما يتبعها من مشاكل البطالة، وضعف التصدير، وقلة الإنتاجية، وخسائر الصناعات الثقيلة والتقليدية..!

أن النجاح فى مجال الصناعات الصغيرة يحتاج إلى عدة عوامل أغلبها متوفر فى مصر وهى: رأس مال مركز، وتنظيم حكومى يعطى الصلاحيات للانطلاق فى هذا المجال ويوفر الدعم الدعائى والتسويقى لهذه الصناعات، وضمان التزامها بالمواصفات القياسية فى إنتاجها حتى يمكن تسويقها داخلياً وخارجياً، وتمويل وإعانات حكومية فى البداية ومتابعة لمنع التعثر ولمعالجة أى عثرة فى بدايتها، وتخفيض الضرائب، وتوفير الماكينات والمواد الخام، وتدريب العمالة الفنية والإدارية، وتدخل حكومى بالشراء، وحفز السوق المحلى على استخدام هذه المنتجات مع دعاية تصديرية وتسويقية ذكية وغير نمطية..!

وهذا الأمر يحتاج إلى ثورة حقيقية فى مجالات التدريب والتعليم والتحديث التكنولوجى ورفع كفاءة الإدارة والخدمات المساعدة والمكملة للعمليات الإنتاجية

الأساسية، وبالذات فى قطاع الصناعة التحويلية، وإنهاء ظاهرة البطالة المقنعة فى بعض وحدات هذا القطاع، وإنهاء الفساد الهيكلى فيه الذى لا يمكن إنهاؤه إلا بإقامة نظام ديموقراطى كامل تتوافر فيه الشفافية وآليات منع الفساد ومكافحته واجتثاثه من خلال الرقابة الشعبية الفعالة..!

إن الصناعات الصغيرة بما تحتاجه من رأس مال مركز وما تتميز به من قدرة عالية على استيعاب أعداد كبيرة من العمالة ستكون قادرة على توفير فرص عمل هائلة للعديد من الناس بما يقلل من نسب البطالة المرتفعة فى مصر، وسوف تفتح مجالات جديدة أمام العديد من التخصصات التى تعانى من ضيق سوق العمل المتاح لها، كما ستساهم بشكل فعال فى نقل المراكز الصناعية إلى أماكن ومناطق جديدة سواء فى المناطق الحضرية أو الريفية..! هى باختصار منجم ذهب موجود ومتاح، يحتاج فقط إلى من يعرف طريق الوصول إليه والاستفادة منه..!

دخول عصر الصناعات القائمة على البيوتكنولوجى

الصناعات القائمة على البيوتكنولوجى يمكن ترجمتها إلى التقنية الحيوية وهى تعتمد فى المقام الأول على استخدام الخلايا الحية أو مكوناتها مثل الإنزيمات فى تخليق منتجات صناعية نافعة. وأول من استخدم لفظ التقنية الحيوية Biotechnology هو مهندس مجرى يدعى كارل إركى Ereky فى عام ١٩١٩.. وكان يشار إلى التقنية الحيوية فى ذلك الوقت أنها العلم الذى يعنى بتخليق منتجات من مواد خام بمساعدة كائنات حية.. وقد تطور التعريف الذى وضعته منظمة الصناعة الحيوية Biotechnology Industry Organization BIO ليشمل جميع العمليات الخلوية والجزيئية التى يمكن استخدامها لحل مشاكل أو صناعة منتجات جديدة..

ومن الأمثلة الواضحة لهذه التقنية الجديدة هى الصناعة القائمة على تنمية الفطريات من أجل إنتاج المضادات الحيوية مثل إنتاج البنسلين من فطر Pencillum fungi.

وقد تنبأت بعض الدوائر الاقتصادية مثل مجلة الأيكونوميست الشهيرة بأن مجال الصناعة الحيوية قد يطغى تماماً على مجال الهندسة الكيميائية فى القريب العاجل، وأن الدول التى سوف تدخل مجال التقنية الحيوية سوف يقل اعتمادها على الوقود العضوى المعتاد Fossil fuel..!

وتأثير التقنية الحيوية على حياة البشر فى المستقبل القريب والبعيد سوف يكون أكثر تأثيراً من كل الاختراعات والاكتشافات العظيمة التى ساهمت فى تشكيل التاريخ، وهو ما حدا بكثير من المفكرين إلى إطلاق تعبير«القرن البيولوجى» على القرن الحالى(أنظر فصل الموجة الرابعة).

وهذا التأثير المتوقع للتقنية الحيوية سوف يفوق تأثير اختراعات مثل محرك البخار والكهرباء، والرقائق الاليكترونية..!

فمن المعروف تاريخياً أن الاختراعات الكبرى المؤثرة، وما تلاها من توسع فى الاستخدام التجارى لهذه الاختراعات قد أدى إلى فترات طويلة من النمو الاقتصادى القوى.. وقد حدث ذلك لبريطانيا عندما اخترعت محرك البخار والإمكانات التجارية الهائلة التى وفرها مثل هذا الاختراع.! وكذلك بالنسبة لاختراع محرك الاحتراق الداخلى والكهرباء فى أمريكا والتى ولدت الثورة الصناعية الهائلة الحالية.! مثلما قاد اختراع وليام شوكلى Shockly للترانزستور وجاك كيبلى Kibly للرقائق متناهية الصغر microchips للدخول إلى عصر الكمبيوتر والمعلوماتية..!

ومثل هذه الاختراعات العظيمة لم يظهر تأثيرها على البشرية فى الحال، ولكن استلزم الأمر بضع سنين، وحينما تم التوسع فى تطبيق هذه الاختراعات على المستوى التجارى. وبالمثل حينما تنتهى التقنية الحيوية الحالية من رسم خريطة الجينوم البشرى، ـ والتى أصبحت وشيكة على الظهور ـ سوف تظهر أهميتها عندما يبدأ استخدامها فى محاربة المرض وتقليل فرص انتشاره .!

وتأثير التقنية الحيوية على اقتصاد الدول سوف يصبح مثل إلقاء حجر فى مياه بركة هادئة، يبدأ بتناثر قوى ومباشر لرذاذ الماء، يتبعه دوائر من التأثيرات غير المباشرة، ولكنه فى النهاية سيجعل وضع البركة يتغير من السكون إلى الحركة..!

الآثار المباشرة للتقنية الحيوية على الاقتصاد تتمثل فى النمو المباشر لجميع المتغيرات الاقتصادية، ففى دراسة حديثة أجريت فى الولايات المتحدة الأمريكية، ظهر أن الدخل العام زاد من ٨ مليار دولار فى عام ١٩٩٣إلى ٢١ مليار دولار فى عام ١٩٩٩.! أى

تضاعف حوالى ثلاثة مرات فى ست سنوات فقط ، وسوف تستمر الصناعة الحيوية فى الزيادة والتوسع مادام هناك زيادة فى الإنفاق على الطب والدواء..

وباعتبار التقنية الحيوية مولود جديد قادم إلى عالم الاقتصاد، فإن التأثيرات غير المباشرة أظهرت أيضاً آثاراً إيجابية تمثلت فى زيادة العمالة والقضاء على البطالة، وقد قدرت هذه الزيادة بأن كل وظيفة فى مجال التقنية الحيوية يمكن أن تضيف ٢,٩ وظيفة إلى سوق العمل، كما أن المتوقع أن تصل نسبة العمالة فى هذا المجال فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى ٤٣٧,٠٠٠ وظيفة جديدة..!

وقد أظهرت الدراسات التى أجرتها كبريات المؤسسات المالية فى أمريكا أن التقنية الحيوية سوف تساهم فى زيادة معامل الدخل Revenue multiplier تصل إلى ٢,٣ بما يؤدى إلى زيادة قدرها ٤٦,٥ مليار دولار، وزيادة معامل دخل الفرد Personal Income multiplier يصل إلى ٢ مما يعنى زيادة قدرها ٢٨,٨ مليار دولار على الدخل الشخصى من تلك الصناعة فقط..!

ومن الفوائد غير المباشرة أيضاً، تحسين مستوى الخدمات الصحية والطبية مما يساعد على إطالة عمر الإنسان وتمتعه بالصحة طوال حياته، وهو ما ينعكس بالإيجاب على زيادة مستوى دخل الفرد وإنتاجيته..كما أن استخدام التقنية الحيوية فى تحسين سلالات المحاصيل الزراعية ساهم فى تحسين العائد على مدار السنين، والمحاصيل الأكثر إنتاجية ساهمت فى تحسين دخل المزارعين باطراد، ولا يخفى أن كل ذلك يؤدى إلى تحسين مستوى الحياة، والحفاظ على بيئة نظيفة..!

أين مصر من التقنية الحيوية؟ سؤال سوف يفرض نفسه علينا بما يحمله من ضرورة مواجهة هذا التحدى والدخول إلى عصر التقنية الحيوية و«القرن البيولوجى»، فلم يعد ممكناً السكوت ولم يعد مقبولاً أن نقبع فى الظل..!. ودول كثيرة تعد فى نطاق الدول الفقيرة دخلت هذا المجال مثل ماليزيا والهند والصين وغيرهم كثيرون، كما أن التقنية الحيوية غير مكلفة كما يتراءى للبعض، ومصر تملك قاعدة علمية واسعة من الجامعات ومراكز البحوث والمعامل، كما تملك وفرة من المتخصصين فى هذا المجال،

سواء من خريجي كليات العلوم الذين يعانون من البطالة أو من خريجي كليات الصيدلة الذى يعمل أغلبهم فى الترويج والمبيعات وأقلهم فى الصناعة، وحسنًا فعلت بعض كليات الصيدلـة المختلفـة بإدراجها مواد الـتقنيـة الحيوية والـتصنيع الـدوائى ضمن مناهج التدريس لمرحلة البـكالوريوس، كما تملك مصر أيضاً قـاعدة صناعية عريقة فى صناعة الدواء، وبدلاً من الجرى وراء براءات الاختراع من الشركات العالمية يمكن البدء فى عمل براءات اختراع مصرية، والميزانيات الضخمة التى تنفقها شركات الدواء على الاحتفاليات المظهرية، وسفر الأطباء وعـائلاتهم إلى المنتجعات السياحية فى جميع أنحاء العالم يمكن أن توجه لـلبحـوث والتطـوير، والدولـة يمكن أن تسـاهم بتوفـير الموارد الـلازمة لهذه البحوث، كـما أنها يمكن أن تساهم بتعديل التشـريعات والقوانين بما يشجع على البحث العلمى وإعفـاء تلك البحوث من الضـرائب والرسوم..إلى آخر تلك الأفكـار التى تستلزم إرادة واعية وقدرة عـلى مجاراة الـمتغيرات من حـولنا، والاشـتباك مع التـحديات التى نواجهها، فالمهم ألا تظل المياه راكدة، وأن نـسعى بكل ما أوتينا من قوة لمحاولة تحريك تلك المياه الساكنة..!!.





تعديل الإطار السياسى

□□

من المفـهوم كما أوضحنـاً قبلاً أن أية رؤى لتحـولات فى المجتمع باتجاه الإصلاح، يجب أن يـصاحبـها تعـديلات فى الإطار الـسياسى. وعـلى ذلك فإن الإطار الـسياسى الوحيد المقبول الـذى يضمن أن يتم هذا الإصلاح هو مدى قابلـية النظام السياسى على إجراء إصلاحات سياسية شاملة فى المجتمع لتضمن تحقيق أهداف رئيسية وهى:

١ ـ قدرة النظام السياسى على أن يمتلك ثلاث أشياء رئيسية الا وهى:

- رؤية واضحة.
- رسالة يطمح إلى تحقيقها.
- وسائل يحقق بها الرؤية وينفذ بها الرسالة..!

ويتطلب ذلك استعياب المتغيرات العالمية من حوله، واستشراف المستقبل، وقدرته على التوجه نحو الإصلاح ووضع الاستراتيجيات والخطط الكفيلة بتحقيق هذا الإصلاح، وأن يقـبل التعامل مع معـطيات التقـدم، وأن يملك القدرة على تحـديد الأولويات، وأن يكون النظام السياسى مستعداً لبذل الجهد والمال والوقت من أجل هذا التقدم..!

٢ ـ وفى نفس الوقت، فإن قـابلية النظـام السياسى لإحراز أى تقـدم تتحدد وتقاس بمدى قدرة الشعوب على مراقبة أداء الـنظام والحكومات فى عملها من أجل تحقيق هذا الإصـلاح المنشود، وقدرتها عـلى محاسبة النظـام بهذه الطريقة، تضـيف طريقة واقعية لإمكانـية التغيير، إذا تـعثر النظام فى تحـقيق هذه الأهداف..فالسـلطة على أى مستوى كانت، لا يمكن أن تمـارس أو تسحب إلا بواسـطة توكيل من قـبل من يلتـزمون،التزاماً

مكتوباً للوصول إلى مراقبة الواجبات. والحائزون يمكن أن يستبعدوا بواسطة أقرانهم إذا تعدوا. وهى لا تضمن أى امتياز، لكن فقط واجبات واقتضاءات

٣ ـ وتحقيق العدالة بين الناس وبعضهم وبين الناس والدولة، فمثلما هو مطلب ضرورى أن تضمن الدولة ألا يعتدى شخص على حقوق الآخر ولا يسلب شخص حقوق الآخرين، يكون مطلباً أكثر ضرورة ألا تعتدى الدولة نفسها أو مؤسساتها على حقوق الأفراد والمواطنين فيها..!

٤ ـ وتحقق للبشر فرصة حقيقية فى المشاركة فى النشاط الاقتصادى لبلادهم بالعمل والعلم والإدارة، وتضع حداً أدنى للأجر يضمن حداً أدنى من الحياة الكريمة للعاملين وأسرهم، وتتدخل فى توزيع وإعادة توزيع الناتج المحلى الإجمالى لضمان العدل ومنع وجود الفقر وانتشاره..

٥ ـ وأن يكون للناس حق تحسين مستوى معيشتهم وتحسين نوعية الحياة التى يحيوها، وأن يكون من حق كل إنسان أن يصل إلى أى موقع مهما كان بالعمل والعلم والخبرة، وأن يكبر كل إنسان فى مجاله ويبدع فى تخصصه..

٦ ـ لا يجوز لأحد أن يزعم امتلاكه المعرفة الكاملة والحقيقة المطلقة،لأن هذه الأصولية الثقافية تولد بالضرورة محاكم التفتيش والشمولية..

وعلى هذا فمعيار واحد فقط مثل ضرورة تداول السلطة على جميع المستويات يصبح من الأهمية بمكان كآلية حاسمة لمكافحة الجمود والفساد، وتحديد الفترات بحيث لا تزيد عن فترتين مهما كانت الظروف التى يتولى فيها المسئول المسؤولية تمكن من تجديد دماء القيادات بقيادات جديدة وتوجهات جديدة، كما أنها تعطى الأمل لأى صاحب فكر فى إمكانية تطبيق أفكاره الجديدة،والوصول إلى موقع صناعة القرار واتخاذه، ويؤدى تداول السلطة كذلك لإمكانية محاسبة هذا المسئول عن مجمل أدائه فى الفترة التى تولى فيها، وعزله بالانتخابات إذا لم يرتق أداؤه إلى المعدلات المطلوبة..! والعلاقة بين الحاكم والمحكومين مثل عقد عمل قانونى بين طرفين، يتعهد بموجبه طرف (الرئيس ونوابه ورئيس الوزراء والوزراء المنتخبون) ببذل كل الجهد من أجل تحقيق أهداف

وطموحات الطرف الآخر(الشعب) الذى كلفه بهذه التكليفات، فى فترة زمنية محددة، ينتهى بعدها هذا التكليف، تمهيداً لانتقاله لآخرين...

ومعايير أخرى مثل أن تكون الانتخابات الحرة المباشرة هى الوسيلة الوحيدة لانتخاب القيادات العليا مثل الرئيس ونوابه ورئيس الوزراء ونواب البرلمان وتتسع لتشمل الوظائف التنفيذية الأخرى مثل المحافظون ورؤساء المدن والأحياء والعمد،ورؤساء مجالس الإدارات من الجمعيات العمومية للشركات والنقابات والنوادى الرياضية والاجتماعية ووسائل الإعلام، ورؤساء الجامعات وعمداء الكليات واتحادات الطلبة وغيرهم.. تتساوى فى الأهمية مع المعيار السابق، ويلزم لتحقيق ذلك حزمة من التعديلات التشريعية تضمن حرية تشكيل الأحزاب، وتمكين المستقلين من العمل العام، وتعديل الدستور، وإزالة القوانين المقيدة للحريات، كما تتضمن إجمالاً احترام حقوق وحريات الإنسان..

وتحسين مناخ الاستثمار لجعله جاذباً للاستثمارات المحلية والأجنبية، ومدى قدرة الدولة على توفير مناخ الاستقرار لهذه الاستثمارات، وتقليل القيود البيروقراطية، مرتبط بقدرة الإطار السياسى الموجود والقائم ـ على اتخاذ خطوات جريئة وممارسة الشفافية ـ على ضمان إجراء هذه التعديلات وتحويرها بما يناسب التغيرات العالمية المستحدثة. وعندما تتأكد الجهات المانحة والمستثمرون من أن تلك الأموال لن تذهب إلى جيوب المسئولين الفاسدين والمحاسيب، والمضاربين والوكلاء التجاريين الوهميين، وأن هناك قوانين تحترم وتطبق على الكل، عند هذا الحد فقط يمكن أن تزيد معدلات هذه الاستثمارات لنصل لمعدلات وصلت إليها دول صغيرة بدأت مسيرة تنميتها بعدنا بعشرات السنين..!

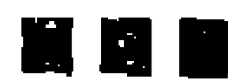
ومن المهم أيضاً فى هذا السياق توضيح سطوة الإعلام على صناعة القرار، فإن التلاعب بالرأى العام عن طريق وسائل الإعلام المملوكة للدولة والمسماة بالوطنية والتى تخدم مصالح الحكومات القائمة، تؤدى إلى خلق فكر وحيد يسعى فى اتجاه وحيد أيضاً، ألا وهو فكر التأويل والتبرير، وكأنها رفا الحكومة المسئول عن رتق جلباب

الحكومة المهلهل الملىء بالثقوب..! وهو بتبعيته الصاغرة للنظام يحيد عن وظيفة الإعلام الرئيسية فى القدرة على تقصى الحقائق بموضوعية، وكشف الفساد بشجاعة، وطرح المشكلات والحلول بواقعية، كما يفقد ضمن ما يفقد مصداقيته وقدرته على محاسبة النظام كسلطة رقابية واعية تملك آليات مختلفة فى أدائها ودوافعها وتفوق سرعتها فى بعض الأحيان الجهات الرقابية الأخرى..!

وفى رؤية فلسفية للتاريخ وضعها الفيلسوف العربى الشهير ابن رشد للسياسة فى عصره(١١٢٣ م ـ ١١٨٤م) وجدنا أنها تنطبق على كل العصور بما فيها عصرنا الحالى.! وما أشبه الليلة بالبارحة..! ففى عرضه لأسباب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين على أنقاضها،فإنه يعزو ذلك إلى ابتعادها عن دولة الشرع،حيث تحولت بعد تسعين سنة إلى دولة المال،ثم بعد عشرين سنة أخرى إلى دولة الاستبداد، ويعلل أسباب فنائها بظهور حركة سياسية مضادة للاستبداد قائمة على الشريعة(ويقصد بها دولة الموحدين). ثم يصف بعد ذلك فى تحليل سياسى عميق ما جرى عند قيام دولة الموحدين وكيف أنها اعتمدت فى أول أمرها على الشريعة الإسلامية والشرع(ويقصد به المبادىء الأخلاقية التى تسمح بقيام مدينة فاضلة) غير أنه يرى أنها تحولت بعد فترة إلى مدينة الجاه والشرف ثم إلى مدينة الاستبداد.

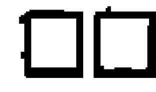
ويستفيض ابن رشد فى شرح سياسة وحدانية التسلط والاستبداد وأن الاستبداد يبدأ فى هذه المدينة عندما يجد المستبد أو المتسلط فى أول أمره جماعة تطيعه بإلحاق الضرر بمن يرغب هو فى إيذائه وزجره بالإكراه والفتك بمن يريد الفتك به ولا يزال يسلط جماعة من الناس على أخرى ليكشف الناس وخاصة ذوى اليسار (محبى المال واللذات) ويظل يفعل ذلك إلى أن يصبح عدواً لغالبية أهل المدينة،وفى هذه الحالة إما أن يجمعون على قتله أو أن يبسط سلطانه عليهم ويتغلب على الجميع ويصير وحدانى التسلط. ويعطى ابن رشد مثالاً بما حدث فى قرطبة إذ قامت ثورة على المرابطين وقام حكم جماعى كان على رأسه كبار القضاة والفقهاء وكان من بينهم جد ابن رشد الذى كانت له الكلمة المسموعة،وقد انتهت تلك الثورة باستيلاء ابن غانية وهو من بقايا

المرابطين علـى قرطبة عام ٥٤٣ هـ وقد مارس حكماً استـبدادياً عانت منه قرطبة الكثير إذ كان يـدفع بمجتمـعه إلى الحرب ويجمع الأموال مـنهم بحجة الحـرب ولكنه استولى عليها وجمعها لنفسه ظناً منه أنه إذا سلبهم أموالهم فإنهم لن يستطيعوا خلعه فينشغلوا بأنفسـهم والبحث عن قوتهم اليـومى كما لجأ إلى المكر لفـتك بمن له عنده أموال كثيرة وسلمهم لأعدائهم كما تآمر على أصحاب الشـجاعة والعظمة وطهر المدينة منهم. وخوفاً من ازدياد الكارهين له فإنه يزيـد من حراسه ليكونوا له أكثر أمنـاً وحماية ويستقدمهم من خارج المدينة حتى لا يتآمروا عليه ويجزل لهم العطاء من أموال الجماعة التى نصبته رئيسـاً لها وبذلك يرون أن فـعله عكس ما قصدوه من تـسليمه الرئـاسة لأنهم نصبوه رئيـساً ليحميهم من ذوى اليسار وليحـتمى بهم، وترى الجماعة أنها فرت من الاستبداد بتـسليمـها الرئاسـة إليه فإذا هى تـقع فى استبداد أكـثر قسوة..!! (ابن رشـد ومدينته الفاضلة ـ د. زينب عفيفى شاكر ـ العربى ـ يناير ٢٠٠٧).





أغنية مصرية حزينة.. قديمة.. وحديثة جداً!!



اصغ إلى ما يقوله جد من جدودك الأولين قبل أربعة آلاف عام المدعو إيوروير:

«اسمع يا قلبي،واندب حظ البلاد التي نشأت فيها.. فقد خربت ولا حياة لمن تنادى. ابك يا قلب وحدك، فليس ثمة من يواسيك. انظر يا قلبي الشمس وقد غيبتها الغياهب، فلا هي مشرقة ولا هي غاربة، انظر إلى نيل مصر وقد غاص ماؤه، تخوضه بأقدامك إن شئت، أما إذا أردت أن تشق مياهه بسفينتك، فستجد مجراه شطآنًا، وضفافه ماء جاريًا».

«كل طيب ولى، والبلاد حليفة الشقاء، تئن تحت أقدام الغرباء، اقتحموا علينا ديارنا، وحل بنا ما لم يدر بخلد إنسان، وقد وقع الفأس في الرأس».

«فالابن عدو لأبيه، والأخ يضرب أخاه ابن أمه، ويدير له وجهه وهو يُذبح. كل طيب ولى، والبلاد تموت، والأرض تنزع من يد صاحبها، ويغتصبها الغرباء، تأمل العامل يبحث دون جدوى عن عمل، لأن أعداء البلاد افقروا صناعتها، والحاصد لا يملك ما حصد، تأمل من لم يحرث الأرض، ويملأ بالغلال أهراءه، تأمل صاحب الأرض تعسره الحاجه، والغريب يملأ كرشه».

انظر الماشية السائمة، لا راعى يرعاها، والسفن وقفت ولم تعد تخطف إلى شواطئ فينيقيا، وأضابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق يدوسها الرائح والغادى، ودارت عجلة الدنيا كما يدور دولاب صانع الفخار، فاللصوص صعدوا الجذور واستطالوا، والأشراف عضهم الفقر واستكانوا، ومن لم يملك زوج ثيران، يحتكم اليوم على قطيع

منـها. لم يبق من العدالة غيـر اسمها، وباسمها تـقترف المظالم، سكن هرج الأفراح وعلا صوت العويل والنواح، والصغير يقول قبل الكبير:

ليتنى كنت ترابًا، ويكاد الطفل يندب مجيئه إلى هذا العالم»

أين الإنسان.. هل راح فى غيبوبة النوم.!!





سر المطلح
فــى مجتمــع كما لــو..!



فى خاتمة هذا الـكتاب تجدر الإشارة إلى بعض الـتصنيفات الـتاريخية للـمجتمعات المختلفة والطرق التى تتبـعها فى تلبية احتياجات وحاجات كل مجتمع والتى تختلف من مجتمع لآخر مثل مجمع «زين Zen» كما يسميه عالم الأنثروبولوجى الأمريكى مارشال ســالينز هــو المجتمع الذى يــعتمد فى إشـباع الحاجات عـلى الاكتفاء وعـدم الاهتمام.! وضرب مثلاً على ذلك بمجـتمعات الصيد والجني والـتى تكف عن إنتاج الطعام فور أن يعتبـر أفرادها أن الكميـة الموجودة منه تحت أيديـهم بلغت المستـوى الكافى لحاجتهم.! وذلك بالمقابلة مع المجتمعـات الفردية التى تسعى لإنتاج الوفرة والكثرة لإشباع حاجات سكان هذه المجتمعات.

وكلمة «زين» بـاللغة الـعربية تـعنى الجميل والمـزين وهى تطلق عامـة على الأشياء الجيدة والجميلة.. وهى بمعناها فى اللغة العربية لا تنطبق على مجتمعنا، فالمجتمع الآن «ليس زين»..! فقلما توافرت فيه معانى الجودة أو الجمال، وهو يقرب من مجتمع «زين» بمعناها الذى أشـار إليه سالينز والمسـتمد من العقيـدة الصينية واليـابانية الذى يهاجم المجتـمع الذى يقنع بعدم العـمل والتواكل على ما هو موجـود..! وهو ـ عندنا ـ مجتمع تنـقصه كثيرًا من المـعايير الأساسيـة المتوافرة فى المجتمـعات الأخرى ويمكن أن نطلق عليه تصـنيفًا جـديدًا وهو مجتـمع «كما لو..» ويمـكن ترجمتهـا للإنجليزية إلى «As If Society» وهو المجتمع الذى توجد فـيه مقومات المجتمعـات الأخرى من ناحية الشكل فقط ولـكن تختـلف معـها فى التـطبيق، مـجتمع يـشبه المجتـمعات الأخـرى فى نتاج الحضــارة، ولكنه دائمًا ما يكون منقوصًا غير كامل، ولا يعنى مثلاً أن يكون عندك شيئًا

ما أن تكون بالضرورة قادرًا على استخدامه بطريقة صحيحة.! والشيء بالشيء يقال وهو أن الاستخدام السيء أو المنقوص لا يعنى أنه موجود أصلاً..! والوجود فى حد ذاته لا يعنى الكفاءة أو القدرة على إتمام العمل على الوجه الصحيح..!

فنحن مثلاً نقود السيارات ولا نعرف أصول قيادة السيارات بطريقة سليمة، ولا نملك ثقافة استعمال الأشياء التى بحوزتنا..! وعندما يصبح تسيير السيارة هو الهدف فقط، وليس تسيير السيارة بطريقة آمنة فإننا ننتقل فورًا من مجتمع ـ فيه سيارات ـ إلى مجتمع ـ كما لو كان فيه سيارات ـ..! والفرق بينهما كبير ففى الأول تسير السيارات ولا تتعدى مثلاً نسبة الحوادث فى هذه العملية نسبة ثابتة فى جمع أنحاء العالم ـ إذا أخذنا معدل الحوادث كأحد المعايير للتقييم ـ أما فى النوع الثانى فنسبة الحوادث تتعدى النسبة العالمية المسموح بها، مما يدفعنا إلى تدقيق النظر فى الأسباب التى تؤدى إلى ذلك..! سنجد أن الممارسات التى يقوم بها الناس فى مجتمع «كما لو» تغيب عنها المعايير المعروفة، وتزداد تلك الفجوة بين ما هو ضرورى وبين ما هو حادث فعلاً.. بين ما هو مقرر وبين ما هو ارتجال بين ما هو منظم وبين ما هو أهوج بين الإتقان والإهمال وسوف تصدمنا كمية التجاوزات التى أصبحنا نعيش ونتعايش معها فى مجتمع «كما لو..» وتعودنا عليها بفعل الزمن حتى اختلطت علينا الغفلة بالغفوة، والجد بالهذر،والعمل بالتواكل، فالأنوار مطفأة والفرامل سايبة والسائقون يحششون بانتظام فى غرز على الطريق يعرفها القاصى والدانى، وعندنا طرق تسير عليها هذه السيارات ولكنها لا تمت بصلة للطرق المعروفة فى أى مكان فى العالم المتقدم والمتأخر، لا توجد علامات إرشادية أو إضاءة كافية، والطرق مليئة بالمطبات الصناعية والطبيعية والنتوءات والبلاعات والحفر وبقايا سيارات النقل من طوب وحصى ورمال، وبقايا سيارات جمع القمامة والحيوانات الميتة وغيرها.! ويمكن أن تفاجأ فى طرق مصر سواء كانت سريعة أو طرق سفر ببقرة أو جاموسة تعبر الطريق أو عربة تجرها الحمير تسير فى الحارة اليسرى من الطريق السريع، أو سيارة نقل تقف فى نهر الطريق فى ليلة غير مقمرة وبدون إضاءة كشاف التحذير للسيارات القادمة من الخلف، وفى مصر حسب إحصائيات حديثة يموت كل شهر مائة من المصريين جراء عيوب الطرق فقط..!

والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى، وكأنها ظاهرة سلوكية شاملة تشمل الجميع..! ويتوارثها جيل بعد جيل، أو كأنها أصبحت من السمات السلوكية للمصريين..! وكأن المهندسين الذين صمموا هذه الطرق ليسوا مهندسين حقيقيين أو ـ كما لو كانوا مهندسين!، أو الفنيين الذين قاموا على تنفيذها ليسوا فنيين حقيقيين أو ـ كما لو كانوا فنيين ـ! فالمستويات غير محددة، والرصف العشوائى بين مناطق عالية وأخرى منخفضة، والميل اللازم فى كل منحنى غير موجود، وأبسط قواعد السلامة لا تتبع.! ولنضرب مثلاً على مجتمع «كما لو..» ونسرد قصة سر المطلع الذى أخذنا منها عنوان هذا الفصل..!

ففى مطلع كوبرى المنيب من جهة المعادى هناك ميل غير عادى فى هذا المطلع إلى خارج الطريق مما يؤدى إلى سقوط سيارات النقل الثقيل ذات المقطورة دائمًا عند منطقة معينة فى هذا المطلع.. تسقط السيارات عندما تقترب من السور وتأخذ معها فى كل مرة الجرار والسور والسائق المسكين الذى هيأ له قدره وحظه العاثر أن يأخذ هذا الطريق، وتظل تحدث تلك الواقعة الفاجعة كل أسبوع بطريقة منتظمة، فى كل مرة أجد المقطورة وقد تدلت من حافة الطريق وسحبت معها الجرار والسائق والتباع بداخله، وطبعًا تتناثر الحمولة على مطلع الكوبرى أو تحته، وتؤدى إلى اختناقات مرورية وفى بعض الأحيان حوادث واصطدامات أخرى..!

لفت نظرى هذا التكرار الأسبوعى للحادثة فى نفس المكان وبنفس الطريقة، فقررت أن أقوم بتجربة شخصية لمعرفة سر المطلع.! فقمت بقيادة سيارتى على هذا المطلع، وقبل المنطقة المحددة بعدة أمتار ألغيت ناقل السرعة وتركت السيارة على اندفاعها، فإذا بها تتجه مباشرة إلى منطقة السقوط، ولولا أننى أعدت التحكم فى السيارة مرة أخرى لاندفعت السيارة المسكينة لتهوى من على حافة الطريق مثل أخواتها الكبار من سيارات النقل الثقيل اللاتى سبقوها إلى مصيرهن المحتوم..!

وما يحدث فى كوبرى المنيب يحدث فى كوبرى السيدة نفيسة، وطريق المنصورة الزراعى وطريق المنيا والطريق السريع من السويس للقاهرة وغيرها كثير..

المفجع المبكى فى الموضوع أن إدارة الطريق تواظب بغباء ملحوظ وعناد ممجوج على إعادة إصلاح السور فقط فى كل مرة تسقط فيها سيارة نقل ثقيل من أعلى الكوبرى..! وكأنها اعتبرت السور هو المسئول عن سقوط السيارات وليس الطريق نفسه ودرجة الميل الخاطئة التى تدفع السيارات فى هذا المطلع لكى تنحرف عن طريقها! إلى الخارج بدلاً من الداخل وتصطدم فى اندفاعها للخارج بالسور وتأخذه معها ، تهوى به إلى أسفل سافلين..!

وكلنا يعلم أن هناك ميول محددة لكل منحنى فى طريق أو مطلع كوبرى أو طريق سريع وهذه الميول من المعلومات الهندسية الأولية التى تدرس لطلبة كليات الهندسة فى أقسام الطرق والهندسة المدنية فى جميع كليات الهندسة فى مصر والعالم، وهى ليست سرًا تقنيًا تملكه الدول المتقدمة فقط أو أنها تحتاج لعمالة نادرة الوجود، أو لزيادة التكلفة فى بناء الكوبرى أو الطريق.! ولكنها أساسيات فى هذا العلم بدونها لا يمكن أن يكون هناك طرق وكبارى آمنة، ولا يكفى ولم يعد يكفى أن نقول لقد بذلنا الجهد والمال فى بناء الطرق والكبارى وهذه رفاهية لانقدر عليها فإما أن نكون أو لا نكون ولا ينفع فى ذلك أنصاف الحلول أو مجتمع «كما لو أننا نملك طرق» لأنها ليست كالطرق الموجودة فى أى من بلاد العالم..!

وما ينطبق على الطرق ينطبق على الأشياء الأخرى.. فنحن كما لو نملك برلمانًا ولكنه برلمانًا ليس ككل البرلمانات فى العالم.! لا يؤدى وظيفته الحقيقية التى أنشأ من أجلها فبينما وظيفة البرلمان فى جميع أنحاء العالم أن يحاسب ويراقب الحكومة، نجده ـ عندنا ـ يدافع عنها ويبرر لها أخطاءها وسقطاتها..! حينما يطالب أحد أعضائه بتقص الفساد يحاكم ويسجن بتهمة التشهير بالدولة..! أو ترفع عنه الحصانة أو يطارد فى رزقه وأعماله أو تشهر بعائلته وأبناءه..! أو عندما يفضح نائب نائبًا آخر ورّد أكياس دم فاسدة للدولة، تم تلفيق سى دى جنسى له حتى يتراجع عن ملاحقة النائب الآخر الجالس على حجر الحكومة..!

عندنا تعليم ولكنه ليس مثل أى نظام تعليمى فى العالم، يقدم مخرجات لا تتناسب مع حاجات المجتمع، أو تتواكب مع التغيرات المتسارعة من حولنا..! فنحن نقذف كل عام

بأعداد غفيرة من الخريجين ولكنهم لا يستطيعون الانخراط فى سوق العمل، مجرد حاصلين على الشهادة وغير مؤهلين للقيام بما تعلموه.. كما لو أن عندنا تعليم..!

نتكلم كثيرًا عن الأمية منذ سبعين سنة وما زلنا من أعلى الدول فى نسبة الأمية (حوالى ٥٠٪ من مجموع السكان) بينما دول أخرى أصغر منا مثل ماليزيا استطاعت فى غضون سنوات قليلة أن تقلل نسبة الأمية إلى معدلات مقبولة عالميًا ـ فكما لو أننا نحارب الأمية فعلاً..!

ولو أمعنا النظر لوجدنا أن ما ينطبق على التعليم والبرلمان ينطبق تمامًا على الصحة والثقافة والفن والصحافة، والصناعة والزراعة والرياضة وكل مناحى الحياة فى مجتمعنا، فجميعها ترفع شعار «كما لو أن..» بدلاً من «هو أن..»!! صحيح أن الفرق بين العبارتين كلمتان فقط وهما «كما» و «لو» ولكنها تحمل فى طياتها كل الفروق بين أن يكون عندك فعلاً أو كما لو كان عندك.! أو تتخيل أنه عندك.! الفرق بين الجدية واللامبالاة، الفرق بين الإنجاز والأوهام، الفرق بين عمل المحترفين وعمل الهواة، بين العمل الحقيقى والهزل، بين الشجاعة والتهور، بين إعلاء قيمة العلم والجرى وراء الخرافة، بين التخطيط والتواكل، بين استعمال المنهج العلمى فى التفكير أو الجرى وراء الخزعبلات..!

الفرق بين أن نملك العقل والإرادة والفعل ـ موضوع هذا الكتاب ـ

باختصار بين أن نتحضر أو نحتضر..!

حسين الشرقاوى

المعادى أبريل ٢٠٠٧



عـــن المؤلـــف



- حصل عـلى درجة الدكتـوراه فى تركيـبات وزراعة الأسنـان من جامعـة القاهرة ١٩٨٨، وحـصل على درجة الدكتوراه فى زراعة الأسنـان من جامعة مينســوتا بالولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٨٧.
- حصل على جائزة أحسن بحث علمى فى الولايات الأمريكية المتحدة عام ١٩٨٧.
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الطبية لعام ١٩٩٣.
- له أكثر من ١٢ بحثًا علميًا منشورة فى كبريات الدوريات العلمية الأمريكية.
- له عدة كتب باللغة الإنجليزية فى مجال تركيبات وزراعة الأسنان.
- حصل على نوط الامتياز من الطبقة الأولى فى العلوم والفنون عام ١٩٩٥.
- عمل أستاذًا زائرًا فى جامعة مينسوتا ولوس أنجلوس بالولايات المتحدة الأمريكية.
- يعمل حاليًا أستاذاً فى تركيبات وزراعة الأسنان بكلية طب الفم والأسنان بجامعة القاهرة.
- للـكاتب عدة مـقالات منـشورة فى الصــحف والمجلات المصريـة والعربـية مثل الأهرام والجمهوريــة والوفد والأهرام الأقـتصادى ووجهــات نظر ومجـلة العربى الـكويتية فى موضوعات مختلفة مثل السياسة والتعليم والاقتصاد والاجتماع والمستقبليات.
- للكاتب عدة قصص قصيرة منشورة فى مجلتى صباح الخير وروز اليوسف.
- حصل على جائزة وزارة الثقافة فى القصة القصيرة لعام ١٩٨١.

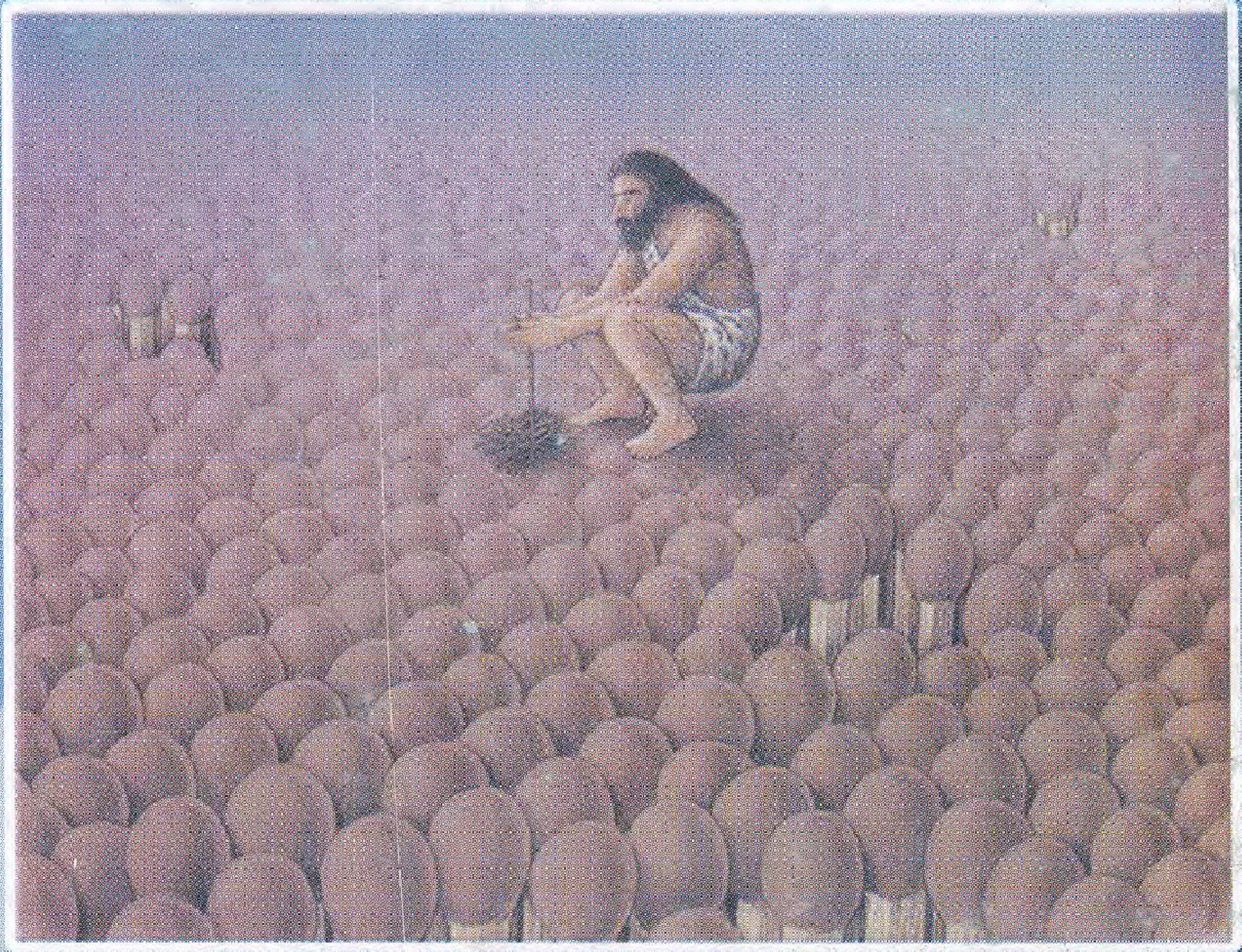
كتب للمؤلف:

- صدر له فى ينـاير ٢٠٠٧ كتاب بعنوان «أعراض مـصرية ـ دراسة فى أحوال المصريين المعاصرة» عن مكتبة مدبولى. وقد اختارته صحيفة الأهرام من أحسن الكتب فى ٢٠٠٧.
- كتبت عنه صحف مثل الأهرام والفجر والمصرى اليوم والدستور ونصف الدنيا وكلمتنا.



محتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg



هذا الكتاب

يبحث كيف تملك هذه الأمة القدرة على تحرير العقل من أوهامه وضلالاته التى تعتقله داخل سجون الجمود والتحجر وتقيده بأغلال تشده دائماً للخلف.. وقدرة العقل على تغيير طريقة تفكيره ، والنموذج السائد فى التفكير إذا استدعت الحاجة لذلك.

ولا يستطيع العقل أن يقوم بكل ذلك دون أن يصاحبه إرادة الفعل، وإرادة القوة والحاجة للإنجاز.. ولا شك أن العقل والإرادة لا يعملان فى عدم وجود القدرة على الفعل الخلاق.

والكتاب محاولة جادة للإبحار فى معضلة التقدم، ومحاولة سر دروبها ومسالكها والاشتباك مع مشاكلها وتحدياتها، إن التقدم يقاس بمدى قابلية وقدرة الأمة على استخدام العقل كما هيأ الله له أن يُستخدم، فعقل الإنسان لا حدود له ولا سقف للحد الذى يمكن أن يصله، ولا يمنع تطوره الأختـا... فى الجنس أو الجينات أو الجغرافيا.

باختصار إن موضوع هذا الكتاب هو الفرق بين أن نتحضر أو نُحتضر. !!

الهيئة المصرية العا...
٧ جنيها...

ISBN# 9789774204189
